مستويات التحليل الأسلوبي

دراسة تطبيقية على "جزء عمّ"



الدكتور مرتضى علي شرارة



2014

الأردن


مستويات التحليل الأسلوبي دراسة تطبيقية على "جزء عمّ"
الدكتور مرتضى علي ش
١٤
٥
٧

الدكتور مرتضى علي شرارة

يغلب على هذه الدراسة المنهج الوصفي، وهو أحد مناهج التحليل داخل الأسلوبية، يدرس العلاقة بين اللغة والفكر، ويهتم بالأبنية اللغوية، ووظائفها المختلفة، ويسمّى أسلوبية التعبير، وقد اعتمدنا هذا المنهج بالذات لأنه هو الذي يتضمن أدوات للتحليل تتسم بالشمولية والإحاطة من كل المستويات، حيث إن الدراسات الوصفية تقوم على وصف ظواهر النظام اللغوي من خلال دراسة المستويات اللغوية كلها، وهي تدرس النصوص الأدبية من الخارج، انطلاقاً من أنّ السلوك اللغوي هو الكاشف للمكنون العاطفي والتعبيري الذي ينطوي عليه النص. ومن هنا ستركز هذه الدراسة على مفردات الوصفية الأسلوبية في سعيها لتحليل آيات "جزء عم"، وهي الأسلوبيات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية.

LEVELS OF STYLISTIC ANALYSIS

مستويات التحليل الأسلوبي

دراسة تطبيقية على "جزء عمّ"



almalktob@yahoo.com







مستويات التحليل الأسلوبي

دراسة تطبيقية على "جزء عمّ"



الدكتور

مرتضى علي شرارة

الأردن

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد- الأردن

2014

الكتاب

مستويات التحليل الأسلوبي دراسة تطبيقية على "جزء عمّ"

تأليف

مرتضى علي شرارة

الطبعة

الأولى، 2014

عدد الصفحات: 242

القياس: 17×24

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية

(2013/7/2661)

ISBN 978-9957-70-762-0

الناشر

عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع

إربد- شارع الجامعة

تلفون: (27272272- 00962)

خلوي: 0785459343

فاكس: 27269909- 00962

صندوق البريد: (3469) الرمزي البريدي: (21110)

E-mail: almalktob@yahoo.com
almalktob@hotmail.com
www.almalkotob.com

الفرع الثاني

جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع

الأردن- العبدلي- تلفون: 5264363/ 079

مكتب بيروت

روضة الغدير- بناية بزي- هاتف: 00961 1 471357

فاكس: 00961 1 475905

الإهداء

- إلى والدي العزيز، الذي غرس حب اللغة والأدب في نفسي منذ نعومة أظفاري.
- إلى والدتي الحبيبة، التي بدعائها وحنانها أتذوق طعم التوفيق والإكرام من الله في حياتي.
- إلى زوجتي الغالية، التي بتهيئتها الجو لي للكتابة والبحث فكأنها كتبت وبحثت معي.
- إلى أبنائي وبناتي الأحبة، الذين آمُل أن تكتحل عيونهم بهذا العمل المتواضع، ويسيروا على طريق البحث الرصين والعلم النافع.
- إلى أقربائي وأصدقائي، الذين شحذوا همتي، وأتحفوني بالتقدير.
- إلى أساتذتي الفضلاء، الذين أرشدوني لأحلق في آفاق العلم والمعرفة.
- إلى كل طالب علم، يحث الخطا في طريق الرشاد والسمو.
- إلى كل من يستحقون أن يُهدى إليهم الخير.

أهدي هذا العمل المتواضع. وأسأل الله تعالى القبول والمزيد من التوفيق.

المحتوى

الموضوع	الصفحة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله الطاهرين، وصحبه الميامين. وبعد، فإنّ القرآن الكريم كان وما يزال مجالاً واسعاً لعدد ضخم من الدراسات في مختلف الموضوعات قديماً وحديثاً، لا بل إنّ القرآن أحدث أبواباً جديدة من العلم لم تكن لتوجد لولاه، كعلوم التجويد، والتفسير، والقراءات، وغيرها.

والحق إن القرآن الكريم قد حث العرب والمسلمين على تقعيد علوم البلاغة العربية، وتتبع مراميها البيانية، واستجلائها. وفي عصرنا الحديث، توالت الدراسات القرآنية، وأثريت المكتبة القرآنية إثراء كبيرا. ووجدنا أنّ الدارسين شرعوا يطبقون مناهج التحليل الأدبي الحديثة على النظم القرآني، منطلقين من أنّه الأرقى - بلا ريب - بلاغيا ومعنويا وأسلوبياً، وينبغي أن نستخدم إزاء شموخه الأسلوبي ما يتاح لنا من وسائل التحليل المتعددة، للوقوف على مكامن الإبداع، وأسرار الجمال، فيه.

ومن تلك المناهج التي استخدمت في تحليل النظم القرآني المنهج الأسلوبي، الذي يأخذ بمعطيات علم اللغة العام، ويفيد من المعطيات الجمالية والتركيبية اللغوية، ويوظّف أدوات اللغة كلّها في تحليل النصوص، للكشف عن جوانب الإبداع فيها، وللوقوف على خصائصها الأسلوبية، التي تميزها من غيرها. وقد وقفت على مجموعة من الدراسات الأسلوبية، منها ما تناول سوراً قرآنية بعينها، كدراسة تناولت سورة "الكهف"، وأخرى تناولت سورة "مريم". ومنها ما تناول مجموعة من السور التي تنتظمها سمات أسلوبية واحدة، كالدراسة التي تناولت السور المدنية. ومجموعة من الدراسات التي تناولت "جزء عمّ". وهي: "دراسات قرآنية في جزء عم"، لمحمود نحلة. و"تأويل القرآن الكريم (جزء عم)" لمحمد أمين شيخو، ورسالة ماجستير بعنوان "جزء عمّ دراسة أسلوبية"، لإبراهيم عقلة الحجاج، مقدمة في جامعة مؤتة. وقد أفدت من هذه الدراسات جميعا. ولكنّي رغبت في التوسّع في تحليل النظم القرآني في "جزء عمّ". ذلك إن دراسة إبراهيم الحجاج أغفلت كثيرا من الجوانب الأسلوبية في "جزء عم". ودراسة محمود نحلة كانت - في رأيي - موسعة وجيدة وأفدت منها كثيراً، إلا إنها لم تتناول المستوى الدلالي بما يروي الظمأ. ودراسة "شيخو" تركز على التأويل. ومن هنا جاءت فكرة هذه الدراسة، إذ ستكون مكملة لتلك الدراسات، وإضافة متواضعة إلى هذا المجال القرآني المبارك.

وستتناول الدراسة آخر الأجزاء القرآنية كاملاً وهو "جزء عمّ"، حيث سيكون المادة الرئيسية للدراسة، إلى جانب بعض ما يدور في فلكه من نصوص تفسيرية، ودراسات تناولته في المستويات المختلفة، الدلالية منها، والنحوية، والتصويرية، والإيقاعية، والبلاغية، وغيرها.

وستركّز الدراسة في المقام الأول على الجانب التطبيقي في المنهج الأسلوبي، حيث سيكون النظم في الجزء القرآني المعني مجالاً واسعا لتطبيق المنهج عليه، وسيكون اختباراً حقيقيا يظهر إلى أي مدى يصلح هذا المنهج لتناول جانب من النظم القرآني بالتحليل، وذلك بعد أن طُبّق المنهج على نصوص أدبية، شعرية ونثرية، وحظي بالقبول من كثير من الدارسين، لما يتسم به من الشمولية والإحاطة؛ تتمثل باستيعابه لمستويات متعددة من التحليل في تناول النص الأدبي. مع الإدراك الكامل أن النظم القرآني هو كلام الله المنزّل، وأما النصوص الأدبية سواء أكانت شعرية أم نثرية هي من كلام البشر. ولكن صفة الشمولية التي يتميز بها هذا المنهج تجعله - فيما أظن - جديراً بأن ينال شرف المحاولة لتحليل النظم القرآني الكريم.

ولن تغفل الدراسة بطبيعة الحال الجانب النظري للمنهج الأسلوبي، حيث ستوطئ به، وتسوقه مقدمات موضحة للجانب التطبيقي، وستنثره أحيانا في ثنايا التطبيق، حيثما استدعى المقام ذلك. وبما أنّ الجانب النظري ليس هو المستهدف من هذه الدراسة، فسيكون حضوره بالقدر الملائم لتطبيقه.

وسيغلب على هذه الدراسة المنهج الوصفي، وهو أحد مناهج التحليل داخل الأسلوبية، يدرس العلاقة بين اللغة والفكر، ويهتم بالأبنية اللغوية، ووظائفها المختلفة، ويسمّى أسلوبية التعبير[1]. وقد اعتمدنا هذا المنهج بالذات لأنه هو الذي يتضمن أدوات للتحليل تتسم بالشمولية والإحاطة من كل المستويات، حيث إن الدراسات الوصفية تقوم على وصف ظواهر النظام اللغوي من خلال دراسة المستويات اللغوية كلها، وهي تدرس النصوص الأدبية من الخارج، انطلاقاً من أنّ السلوك اللغوي هو الكاشف للمكنون العاطفي والتعبيري الذي ينطوي عليه النص. ومن هنا ستركز هذه الدراسة على مفردات الوصفية الأسلوبية في سعيها لتحليل آيات "جزء عمّ"، وهي الأسلوبيات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية.

---

[1] يوسف أبو العدوس: **الأسلوبية: الرؤية والتطبيق**، دار المسيرة، عمّان، 2007، ص91.

وغلبة المنهج الوصفي في التحليل الأسلوبي على هذه الدراسة لايعني عدم حضور مناهج أسلوبية أخرى فيها أحياناً، ففي تناولنا الدلالي لـ"جزء عم" استخدمنا الأسلوبية الدلالية بوصفها مقدمة للأسلوبية الوصفية؛ المنهج الرئيس في هذا التحليل. ولكنّا استأنسنا كذلك بمنهج "الدائرة الفيلولوجية"[1]، وهو منهج أسلوبي ثان، يهتم بدراسة علاقة التعبير بمبدعه. وهو مرتبط بالنقد الأدبي، ويطلق عليه أسلوبية الكاتب، أو الأسلوبية الفردية. وأفادنا هذا المنهج في استجلاء السمات الأسلوبية المكررة في "جزء عم".

وأفدنا كذلك من المنهج الأسلوبي الوظيفي في مستواه التواصلي الذي يهتم بالبنيتين السطحية والعميقة للنص، ويُعنى كذلك بالجانب الدلالي للكلمات وعلاقاتها، وأثر هذه العلاقات السياقية في تكوين البنية الشكلية للنص[2]. وأبرز ما أفدنا منه في هذا المنهج نظريات "ريفاتير" فيما يتعلق بمصطلحه "القارئ-الجمع" وهو مجموع الانفعالات التي يثيرها النص في قارئه، ومختلف التحليلات الأسلوبية، والترجمات، وقراءات الأجيال المختلفة... وبما أنه مجموع قراءات فلا يخضع التحليل لذاتية القارئ الفرد[3]. وهذا ينسجم مع واقع تناولنا للنظم القرآني الذي تناولته قراءات لا متناهية عبر الأجيال. وما اعتمادنا اللافت على مجموعة من كتب التفسير، وكتب البلاغة القرآنية، قديما وحديثاً، ودراسات مختلفة حول النظم القرآني في "جزء عم" إلاّ تكريس لمصطلح "القارئ -الجمع".

وأفدنا كذلك من نظرية "السياق" لـ"ريفاتير"، التي جاءت مكملة لمصطلحه السابق "القارئ-الجمع". حيث يكون السياق معياراً، والأسلوب إنما يتحقق بانحراف ما عن هذا المعيار، وهو ما يقود إلى ما سمّاه "ريفاتير" "المنبّه الأسلوبي"[4]. وسوف نلحظ الإفادة من مصطلح "ريفاتير" عند تناولنا لمجازات القرآن الكريم وكناياته وصوره في "جزء عم".

ويجدر بالذكر أن الدراسة لم تفد من المنهج الأسلوبي الإحصائي إلاّ قليلا، وقُصر ذلك على إحصاء السور في "جزء عم"، وعدد آياتها، والموازنة العددية بين السور. والمنهج الإحصائي هو

---

(1) في اللغة الإنجليزية: philologue، وترجمتها: فقيه لغوي. عن كتاب: **دليل الدراسات الأسلوبية**، جوزيف ميشال شريم، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1984. ص159.

(2) بيير جيرو: **الأسلوبية**، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط2، 1994،ص54-55.

(3) صمود، حمادي: **الوجه والقفا في تلازم الحداثة والتراث**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1988م، ص171-172.

(4) صلاح فضل، **علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته**، الهيئة المصرية للكتاب، ط2، 1985،ص171،166

الذي يُعنى بإحصاء عدد الأفعال والأسماء والصفات والضمائر والظروف وحروف الجر وغيرها، بغية تحديد الملامح الأساسية للأساليب، أو تمييز ما يعتبر خواص أسلوبية مما ورد عشوائيا في النص[1]. وجاء عدم الاهتمام الكافي بهذا المنهج الإحصائي من قناعة متواضعة لدى الباحث بأنّ شيوع النزعة الرقمية والإحصاء في التحليل ربما يؤثر سلباً على الصبغة اللغوية المتماسكة والجميلة للنظم. وهاهو "بيير جيرو" نفسه مؤسس الأسلوبية الإحصائية يقول: "يخلط الإحصائيون غالباً بين الكم والنوع، ولم ينجحوا حتى يومنا هذا في تحديد العلاقة الوظيفية بين المستويين. ولهذا السبب، شكلت تحليلاتهم عموما جداول حزينة من العوامل والانزياحات العددية لا يظهر معناها، وإذا ظهر كان مفرطاً وساذجاً في نظر كل أولئك الذين يكرهون أن يقننوا القيم الجمالية في مجرد علاقات كمية"[2]. ثم يستدرك "جيرو" مبينا جدوى الإحصاء إذا كان معالَجاً معالجة ملائمة، وهو يرى أن الإحصاء أداة فعالة في دراسة الأسلوب، إلاّ أن تطبيقاته لم تثبت هذه الفعالية لغاية الآن[3]. ويظهر لي أنه ليس بالإمكان أن أقوم بتلك المعالجة الإحصائية الملائمة التي أشار إليها "جيرو"، لذلك نأيت بنفسي عن ذلك.

تتوزع هذه الدراسة على خمسة فصول، بناء على مستويات التحليل الأسلوبي الوصفي، ويسبق هذه الفصول تمهيد ناقشت فيه قضايا تتعلق بالقرآن الكريم بعامة، وبـ"جزء عمّ" بخاصة، لما لها من مساس بطبيعة الدراسة، نحو ترتيب سور الجزء، وقضية المكي والمدني، بالإضافة إلى خصائص السور المكية، وتحققها في الجزء بوصفه جزءاً مكياً تقريبا كما سيتبيّن، ثمّ خصائص الجزء التي ينفرد بها وتميزه من باقي القسم المكي.

وستتناول الدراسة في فصلها الأول المستوى الدلالي في "جزء عمّ" أناقش فيه مجالين، أولهما: القيامة والحساب. وثانيهما: نعم الله – مظاهر قدرته. والفصل الثاني للاستعمال الصرفي، أدرس فيه سبعة موضوعات، هي: إحلال صيغٍ محلّ أخرى. تعدّد الصيغ. الحذف في الصيغ. اختيار الصيغ. الصيغ المركّبة. المغايرة في الصيغ.

وفي الفصل الثالث من هذه الدراسة سأتناول المستوى الصوتي في الجزء، وضمن أربعة عنوانات هي: جرس الألفاظ. التكرار الصوتي. المقاطع الصوتية. وأخيراً الفاصلة القرآنية. أمّا

---

(1) يوسف أبو العدوس: **الأسلوبية: الرؤية والتطبيق**، دار المسيرة عمّان، 2007،ص152.

(2) بيير جيرو: **الأسلوبية**، ص134.

(3) السابق، ص135.

الفصل الثالث فسيكون من نصيب المستوى التركيبي البلاغي، وسيتركز على أربع ثنائيات هي: التقديم والتأخير. الحذف والذكر. التنكير والتعريف. ثمّ الفصل والوصل.

والدراسة في فصلها الرابع والأخير ستركز على المستوى البلاغي بقسميه التصويري واللفظي. القسم التصويري سيتشعب إلى عنوانات ثلاثة: الصور الحسية. الانزياح. وأخيراً المشاهد. أمّا القسم اللفظي، ففيه ثلاثة موضوعات: التكرار اللفظي. التقابل والتماثل. ثم الإجمال والتفصيل. ثم تنتهي الدراسة بخاتمة سوف تلخّص واقع التناول التحليلي في كل المستويات المذكورة، وتخرج ببعض الاستنتاجات التي تمخضت عنها الدراسة، وبعض التوصيات.

ولا يفوتني في ختام هذا التقديم أن أحمد الله تعالى على توفيقه لي في استكمال هذا الموضوع. كما لا يفوتني أن أشكر أستاذي الدكتور "نايف العجلوني" المشرف على هذه الدراسة، وأثمّن توجيهاته القيّمة، وملحوظاته الدقيقة المهمة، في مراحل الدراسة كافة. كما وأشكر كل من ساعدني في رحلة كتابتي لهذه الرسالة، وأزجي لهم عظيم التقدير والعرفان، وأسأل الله للجميع ولنفسي دوام التسديد والتوفيق والرشاد في الطريق الذي يرتضيه رب العباد.

تمهيد

سور "جزء عمّ" وتركيبها

"جزء عمّ" هو الجزء الأخير من أجزاء القرآن الكريم الثلاثين، ويتكوّن من سبع وثلاثين سورة، تمتاز كلّها بالقِصَر قياسا بمعظم سور القرآن الكريم في أجزائه التسعة والعشرين الأخرى، خصوصا إذا ما قارناها بسور مثل "البقرة" و"آل عمران" وغيرها من طوال السور. غير أن سور هذا الجزء نفسها تتفاوت فيما بينها من حيث الطول والقصر، فبعضها يتألف من ست وأربعين آية، مثل سورة "النازعات" التي هي الأولى في الجزء في عدد الآيات، إذ تتوزع آياتها القصيرة على صفحة ونصف الصفحة تقريبا من صفحات المصحف الموسوم بالمصحف العثماني، المطبوع في بلاد الحرمين، وبعضها القصير جدا؛ تتكون من ثلاث آيات قصار، مكتوبة على سطر ونصف السطر تقريبا من أسطر المصحف المذكور.

و سورة "النازعات" كما ذكرت هي الأولى من حيث عدد الآيات في "جزء عمّ"، بالرغم من أنها ليست السورة الأولى من حيث الترتيب فيه، إذ تسبقها سورة "النبأ" التي أخذ الجزء مسمّاه من أول كلمة فيها "عمّ"، وتتكون من أربعين آية قصيرة. و ليست هي وحدها التي تسبق سورة "النبأ" في عدد آياتها، بل إن سورة "عبس" ذات الاثنتين وأربعين آية قصيرة هي كذلك تسبق سورة "النبأ"، وهي التي تحتل المرتبة الثالثة في ترتيب سور الجزء.

ولا ضير من إجراء مقارنة توضيحية بين ترتيب السور في "جزء عمّ" بحسب عدد آياتها، وترتيبها بحسب ما هي مرتبة في المصحف العثماني، وسنجد أن ترتيب السور بحسب ترتيبها في المصحف هو الآتي: النبأ، النازعات، عبس، التكوير، الانفطار، المطففين، الانشقاق، البروج، الطارق، الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الشرح، التين، العلق، القدر، البيّنة، الزلزلة، العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، الهُمزة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، النصر، المسد، الإخلاص، الفلق، الناس.

وأمّا ترتيب السور بحسب عدد الآيات فيها – وعدد الآيات مثبت بمحاذاة اسم كل سورة – فهو كالآتي: "النازعات" (46)، "عبس" (42)، "النبأ" (40)، "المطففين" (36)، "الفجر" (30)، "التكوير"(29)، "الغاشية" (26)، "الانشقاق" (25)، "البروج" (22)، الليل (21)، "البلد" (20)، "الانفطار"

(19)، "الأعلى" (19)، "العلق" (19)، "الطارق" (17)، الشمس (15)، "الضحى" (11)، "العاديات" (11)، القارعة (11)، "الهمزة" (9)، "الشرح" (8)، "التين" (8)، "البيّنة" (8)، "الزلزلة" (8)، "التكاثر" (8)، "الماعون" (7)، الكافرون (6)، الناس (6)، "القدر" (5)، الفيل (5)، المسد (5)، الفلق (5)، قريش (4)،الإخلاص (4)،العصر (3)، النصر (3)، الكوثر (3).

وممّا ينبغي ذكره حين التطرق إلى موضوع عدد الآيات في سور القرآن أن هنالك من علماء القرآن من يذهب إلى القول إن البسملة هي آية من كل سورة ماعدا سورة "التوبة"، ومن أولئك الشافعية[1]. حيث يستدل أصحاب هذا القول بما روي عن ابن عباس: "ما كنا نعلم انقضاء السورة إلا بنزول بسم الله الرحمن الرحيم في أول غيرها"[2]، ولن أخوض في هذه المسألة الخلافية، فليس هاهنا محلها، وإنما أشرت إليها إشارة عابرة وجدتها جديرة بالتنويه إليها لمّا عمدت إلى ترتيب سور "جزء عم" بحسب عدد الآيات، لأنه وفقا للقول الذي أوردناه من أن البسملة هي آية من كل سورة عدا التوبة، فينبغي أن تزاد البسملة على أعداد آيات السور التي رتبناها. إلاّ أننا لم نتبع هذا الرأي في هذه الدراسة، بل انتهجنا ما عليه المصحف العثماني الذي لم يثبت البسملة آيةً من كل سورة، وهو الشائع بين المسلمين.

وفي ترتيب القرآن بحسب ما هو مثبت في المصحف الشريف المتداول بين الناس في أيامنا ثلاثة مذاهب؛ أوّلها: أن الترتيب لم يكن بتوقيف من النبيّ صلى الله عليه وآله سلم، إنّما كان باجتهاد من الصحابة، وقد استدلوا على ذلك بأن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور فيها قبل جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان، حيث اختلف كل من مصاحف أبيّ بن كعب وعبدالله بن مسعود والإمام علي ابن أبي طالب في ترتيب السور فيها بحسب ما أثبتت الروايات[3].

وثاني المذاهب في ترتيب سور القرآن هو: أن هذا الترتيب كله توقيفي بتعليم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كترتيب الآيات. واستدل أصحاب هذا الرأي بإجماع الصحابة على مصحف عثمان بدون أن يشذّ منهم أحد، الأمر الذي ما كان ليحدث لو أن الترتيب كان بالاجتهاد، إذ كان سيتمسك أصحاب المصاحف المخالفة لهذا الترتيب بمخالفتهم. بل الأمر أنهم قد

---

(1) المقدسي، شهاب الدين أبو محمد، **كتاب البسملة**، تحقيق: عدنان بن عبدالرزاق الحموي، منشورات المجمع الثقافي في أبوظبي،2004،ص112.

(2) السابق،ص115.

(3) محمد عبدالعظيم الزرقاني: **مناهل العرفان**،ج1 دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1995، ص249.

عدلوا عن مصاحفهم فأحرقوها. واحتج أصحاب هذا الرأي كذلك بأنّ السور المتجانسة في القرآن نحو سور المسبحات – أي التي تبدأ بسبح لله أو يسبح لله – لم يلتزم فيها الترتيب و الولاء، وهذا على حد قولهم يبطل الرأي القائل باجتهاد الترتيب[1].

وأمّا ثالث هذه المذاهب في ترتيب سور القرآن الكريم فهو القائل بأنّ ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وترتيب بعضها الآخر كان باجتهاد من الصحابة. ويرى مؤلف كتاب "مناهل العرفان" أن هذا الرأي هو أمثل الآراء، ويحتج على ذلك بوجود أحاديث تفيد ترتيب بعض السور توقيفا، وأحاديث خلت مما يفيد التوقيف، بل إنه يشير إلى آثار صرّحت بأنّ الترتيب في بعضها كان عن اجتهاد، ولكنّه يذكر أنّ الاختلاف وقع بين مؤيدي هذا القول في السور التي توقف في ترتيبها والسور التي اجتهد في ترتيبها، وقد أورد الآراء المتضاربة لمؤيدي هذا المذهب من أمثال القاضي أبي محمّد بن عطية، وأبي جعفر بن الزبير، والسيوطي[2].

غير أنّ الزركشي في "برهانه" يجعل الخلاف من أساسه لفظيا، ذلك أنّه نقل عن الإمام مالك بن أنس أنّ الصحابة ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ ترتيب السور كان باجتهاد منهم، فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولي، أو بمجرد إسناد فعلي، فيبقى لهم فيه مجال للنظر[3].

وأراني أميل إلى الرأي الثاني الذي يقول بالتوقيف في ترتيب سور القرآن الكريم، إذ لو كان الترتيب بالاجتهاد لما وجدنا أن سور "جزء عم" – وهو موضوع هذه الدراسة – ستكون على ما هي عليه الآن من الترتيب، حيث لاحظنا من خلال المقارنة بين الترتيب بناء على عدد الآيات والترتيب بحسب ما هو مثبت في المصحف الشريف أنه لو كان الترتيب بالاجتهاد فإنه كان سيراعي عدد الآيات وأحجام السور، كما نجدها قد روعيت في ترتيب السور الطوال في القرآن نحو "البقرة" و"آل عمران" وغيرها. بيد أن ذلك لم يحدث، بل نجد أن سورة "الفجر" ذات الثلاثين آية قد تقدمت عليها سورة "الطارق" ذات السبع عشرة آية، والأمر ذاته مع سورتي "الشمس" و"الليل"، فتقدمت الأولى على الثانية، مع أن عدد آيات سورة "الليل" إحدى وعشرون، وآيات سورة "الشمس" هي خمس عشرة، لا بل نجد أن "الكوثر" وهي أقل سور القرآن آيات، وتشترك مع سورتي "العصر" و"النصر" في ثلاث

---

(1) الزرقاني: **مناهل العرفان**،ج1، ص25-26.

(2) السابق: ص251-252.

(3) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله: **البرهان في علو القرآن**، ج1، دارالمعرفة، بيروت،1972،ص35.

آيات لكل منها- نجدها قد تقدمت على سور نحو 'الناس' و'الكافرون' ذات الست آيات.

أمّا ما أشار إليه مؤلف 'مناهل العرفان' من أنّ هنالك روايات وأحاديث أثبتت الرأي الثالث القائل بأنّ بعض السور قد رتبت توقيفا، وبعضها رتب اجتهادا، فنقول لو أنّ هذه الروايات صحّت وتواترت لكانت وصلت و بلغت أصحاب المذهب الثاني القائل بالتوقيف في ترتيب السور كلها، ولكان هؤلاء أخذوا بتلك الروايات، وعدلوا عن رأيهم، أو ما كان لهم مثل هذا الرأي أصلا، وفيهم علماء كبار من أمثال 'أبي جعفر النحاس' الذي قال: 'المختار أنّ تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ لحديث واثلة: أعطيت مكان التوراة السبع الطوال'[1]. وفيهم 'أبو بكر الأنباري' الذي يقول: 'أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ثمّ فرّقه في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر، ويقف 'جبريل' النبي ﷺ على موضع السورة والآيات والحروف. كله من النبي ﷺ فمن قدّم سورة أو أخّرها أفسد نظم القرآن'[2].

وإذ وقفنا على هذه القضية المتعلقة بترتيب سور القرآن الكريم، فلأنا نرى أن ترتيب سور 'جزء عمّ' حسبما هي مثبتة في المصحف يمسّ موضوع هذه الدراسة الأسلوبية التي ستتناول الجزء القرآني بوصفه وحدة واحدة تجمعها قواسم دلالية ولغوية وصوتية مشتركة، ولأن الدراسة ستتناول سور الجزء بوصفها لبنات جزئية ضمن بناء متماسك محكم متناغم. فإن ترتيب هذه 'اللبنات - السور' سيكون مهماً في تحقق هذا التناغم المفترض في الجزء القرآني الأخير. وما يدعونا إلى هذا الافتراض هو التوقيف في ترتيب السور الذي هو رأي قوي كما لاحظنا، والذي جعل 'الأنباري' يعتقد أن الإخلال فيه هو إخلال وإفساد للنظم القرآني كما مرّ، وهذا جليّ الإشارة إلى ما افترضته من تناغم أسلوبي بين سور 'جزء عمّ' بناء على معطيات كثيرة منها ترتيب السور الترتيب المعروف.

المكي والمدني في 'جزء عمّ'

ومن القضايا التي لها صلة أساسية بموضوع هذا البحث كذلك قضية 'المكي والمدني'؛ إذ إنّ السور المدنية - كما ثبت بالبحث والدرس - لها خصائص أسلوبية ولغوية تميزها من السور المكية،

---

(1) الزرقاني: **مناهل العرفان**،ج1،ص251. وقد نقله من كتاب '**الإتقان في علوم القرآن**' لجلال الدين السيوطي، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق مصطفى شيخ مصطفى، ص138. والحديث رواه الإمام أحمد في المسند، مج4، ص107، طبعة دار الفكر،بيروت.

(2) نقله جلال الدين السيوطي: **الإتقان في علوم القرآن**، ص137. وكذلك الزرقاني: **مناهل العرفان**،ج1،ص251.

كما أن للسور المكية بدورها خصائص تميّزها من السور المدنية[1]. وبما أن هذه الدراسة تتناول النظم في جزء كامل من القرآن الكريم يشتمل على سور مكية وأخرى مدنية، فلا بدّ لنا من التعرض لهذه القضية ومناقشتها، لنبيّن ما الذي اتفق على ما هو مكيّ في هذا الجزء، وما هو مدنيّ، وأيها وقع فيه الاختلاف بين أهل الاختصاص في هذا المجال.

وقد ذهب العلماء المسلمون في تحديد المكي والمدني من السور ثلاثة مذاهب: فالأول يرى أنّ المكي: ما نزل قبل الهجرة. والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة[2]. والقول الثاني: أن المكي: ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني: ما نزل بالمدينة[3]. أما القول الثالث: إنّ المكي: ما وقع خطابا لأهل مكة والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة[4]. ونلحظ أنه في هذا النوع الأخير قد روعي المخاطبون. في حين روعي المكان في الرأي الثاني. واعتمد الرأي الأول على الترتيب الزمني في مراحل الدعوة الإسلامية. وأراني أميل إلى القول الأول، لأنه يتيح لقارئ القرآن المتذوق تلمّس فرق الأسلوب في التنزيل القرآني قبل الهجرة وبعدها.

والخوض في هذه القضية سيبيّن لنا ما إذا كان المكي أو المدني هو النوع الذي غلب على "جزء عمّ"، وسيساعدنا ذلك في استجلاء خصائص أسلوبية واضحة ومحددة لهذا الجزء القرآني. وسيبيّن لنا كذلك ما إذا كانت السور المدنية والمكية تجمعها صفات مشتركة، انطلاقا من فرضية سنعمد إلى إثباتها في هذا البحث، مفادها أن لـ"جزء عمّ" خصائص أسلوبية تميّزه من باقي أجزاء القرآن، الأمر الذي سيجعل المكي والمدني فيه يشتركان في هذه الخصائص، مع استقلال كل منهما ببعض المزايا التي مكّنت العلماء من التثبت من مكية السورة أو مدنيتها. ولكنْ بما أنها في جزء واحد فنفترض اشتراكها في خصيصة أسلوبية واحدة ميّزت هذا الجزء من غيره.

وقضية المكي والمدني هي قضية ذات أبعاد عميقة، وقد خاض فيها العلماء المختصون قديما وحديثا، بحيث لا نجد كتابا في علوم القرآن إلا وقف عليها بشكل مسهب. وسنقف عليها بما يخدم موضوع البحث، وهو – بالتحديد – تبيان السور المكية والمدنية في "جزء عمّ"، وأثر ذلك على

---

(1) عهود عبدالواحد: السور المدنية: دراسة أسلوبية وبلاغية،، دار الفكر، عمان، ط 1، 1999، ص233-236.

(2) بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي: البرهان في علو القرآن،ص187.

(3) جلال الدين السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد: الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1987م، ج1، ص28.

(4) السابق، ص28.

أسلوبية هذا الجزء، لمعرفة ما إذا كان توزّع الجزء بين مكيّ ومدني قد جعله متنوع الأسلوب. وبتحديد أدق، لمعرفة ما إذا كانت السور المدنية والمكية قد انصهرت في بوتقة أسلوبية واحدة ميّزت الجزء، أم لا، بحيث كانت خصائصها كسور مدنية أو مكية أبرز بوصفها سوراً تشترك في إطار أسلوبي واحد.

ما يخدمنا في هذا البحث - كما مرّ- هو أن نعرف ما أجمع العلماء على مدنيته وما أجمعوا على مكيّته في "جزء عمّ"، ثمّ ما كان محلّ اختلاف بينهم. وقد وجدنا أنّ السورة الوحيدة المجمع على مدنيتها هي سورة "النصر" بحسب ما ورد في كتاب "مناهل العرفان"[1]. أمّا المجمع على مكيته فهو تسع وعشرون سورة، يشمل معظم سور الجزء، وهي: النبأ، النازعات، عبس، التكوير، الانفطار، الانشقاق، البروج، الطارق، الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الشرح، التين، العلق، العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، الهُمزة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، المسد[2].

و المختلف فيه هي السور الآتية: القدر، البيّنة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، الناس. بيد إنّ "الزركشي" قطع بمكية ثلاث من السور المختلف فيها، وهي: الإخلاص والعلق والناس، حيث قال: "أول ما نزل من القرآن بمكة: اقرأ باسم ربّك، ثمّ ن والقلم... ثمّ قل يا أيها الكافرون ثمّ سورة الفيل ثمّ الفلق، ثم الناس، ثمّ قل هو الله أحد، ثمّ والنجم إذا هوى...."[3]. وموضوع كل من هذه السور الثلاث يؤكّد ما ذهب إليه "الزركشي"، حيث تدور كلها حول حمد الله وتوحيده وبيان صفاته والاستعاذة به، وهذا كله من خصائص السور المكية. وأسلوبها يؤكّد ذلك أيضا، حيث تحكمها موسيقا لغوية رائعة، مؤتلفة، متناسبة كأنها قطعة واحدة، وفقراتها قصيرة، وفواصلها متماثلة.

وأمّا سورة "الزلزلة" المختلف فيها أيضا، فقد ذهب "ابن كثير" من القدماء، و"سيّد قطب" من المحدثين إلى القول بمكيّتها، مع أنّ العلماء كادوا يجمعون على مدنيتها، وما دفع "قطب" إلى تبني هذا الرأي هو موضوع السورة المنصب على قيام الساعة وأهواله[4]. وإلى جانب الموضوع فهناك الأسلوب أيضا، فهو يعزز الرأي بمكية السورة. إذ إنّها "قصيرة الفقرات، متماثلة الفواصل، وآياتها

---

(1) الزرقاني: **مناهل العرفان**، ج1، ص201.

(2) السابق، ص201.

(3) السابق، ص194.

(4) سيد قطب: **تفسير في ظلال القرآن**،،دار الشروق، بيروت والقاهرة، ط 10، 1982، مج6، ص3954.

متناسبة الطول تقريبا، وعلى صعيد التصوير فيها فقد ازدحمت بالصور المتحركة بسرعة وبقوة، فهي مشاهد متتابعة تجعل ذلك الموقف الرهيب ماثلا للعيان مما تختص بأمثاله السور المكية، ويكثر فيها، وبخاصة التي تبتدئ بـ إذا[1].

وسورة القدر هي مكية على الأرجح أيضا، نظراً لطبيعة موضوع السورة وأسلوبها، حيث إنّ الموضوع يتناول ليلة نزول القرآن، ومن المقطوع به أنّ هذا حدث في مكة. أمّا من حيث الأسلوب فهي قصيرة، ذات فواصل قصيرة رائية فقط[2].

والأمر نفسه مع سورة المطففين، للأسباب نفسها، فهي مكية الموضوع والأسلوب. وهناك من يرى أنّ صدر هذه السورة قد يكون نزل بالمدينة، وهو ما يشير إلى المتلاعبين بالموازين المطففين، أمّا بقية الآيات فهي تندرج تحت الموضوعات المكية. من قبيل تبيان آمال الفجار وصحائف الأبرار وحال استهزاء المجرمين وتغامزهم[3].

أما سورة البيّنة فعلى الأرجح أنها مدنية. استناداً على قاعدتي الموضوع والأسلوب، فموضوع السورة يأخذ منحى محاجّة أهل الكتاب، وبيان مصير الكافرين منهم، ثم ينتقل إلى ذكر الجنة والنار بوصفه جزاء للأعمال. ولم تقف السورة على ذكر أهوال النار. وهذا كله يندرج تحت الأسلوب المدني في القرآن الكريم. وهو ما ذهب إليه ابن كثير من القدماء، إذ جزم بمدنية السورة معتمدا على حديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل[4].

والخلاصة هي أنّ جزء عمّ يكاد يكون مكياً بالكامل، لولا سورتان فيه، إحداهما قُطع بمدنيتها، وهي سورة النصر، والأخرى رُجّحت مدنيتها، وقامت على ذلك براهين تكاد تكون حاسمة، وهي سورة البيّنة. إذن فلدينا خمس وثلاثون سورة مكية من أصل سبع وثلاثين، ومثل هذه النتيجة الجلية تقودنا مبدئيا إلى القول إنّ الأسلوب المكي سائد في هذا الجزء القرآني، حتى إنّ السورتين المدنيتين – وبالأخص سورة النصر – تأثرتا إلى حد ما بهذه الصبغة المكية، وكادتا تتماهيان مع أسلوبية الجزء لولا احتفاظهما بخصائص مدنية يحكمها الموضوع والأسلوب في مستوى من المستويات.

---

(1) عهود عبد الواحد: السور المدنية، ص24.

(2) أحمد عباس البدوي: أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها، دار عمار، عمّان، ط 1، 1999، ص75.

(3) انظر: السابق، ص73-74.

(4) السابق: ص75.

ومثل هذه النتيجة ستجعل هذه الدراسة تنطلق في منحيين، أولهما: تبيان أهم خصائص السور المكية في كامل القرآن، وتتبّع مدى تحقق هذه الخصائص في "جزء عمّ" المكي بالكامل تقريبا، وهذا سيكون في مرحلة أولى. وثانيهما محاولة استجلاء خصائص أسلوبية تميّز ذلك الجزء من سائر القسم المكي في القرآن الكريم. وبعبارة أخرى، ستهدف الدراسة في مرحلتها الأولى إلى تمييز "جزء عمّ" بخصائص تجعله مستقلا بأسلوب خاص عن سائر القسم المكي في القرآن، فضلا على القسم المدني فيه.

وستكون هذه الدراسة في إطار المنهج الأسلوبي الذي يستخدم أدوات اللغة المختلفة لتحليل النصوص واستجلاء خصائصها ومكامن الإبداع فيها، وأرجو أن يوفقنا الله تعالى إلى حسن الوقوف على أسرار الإبداع والجمال في جزء من أجزاء كتابه المجيد.

خصائص السور المكية ومدى تحققها في "جزء عمّ":

خصائص هي جمع للمفردة "خاصة"، وهي لغةً خلاف "العامة"، وخاصة الشيء ما يختص به دون غيره[1]. وقال "الراغب الأصفهاني": التخصيص والاختصاص والخصوصية والتخصص تفرد بعض الشيء بما لا يشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العموم والتعميم[2]. وما ثبت لكل باحث في أسلوب القرآن الكريم أنّ هنالك خصائص تميّز السور المكية من السور المدنية فيه، وتلك الخصائص تتشعب في نوعين، أولهما يتمحور حول الأسلوب، والثاني يندرج في إطار الموضوع.

أوّلا: الخصائص الأسلوبية.

وأهم خصيصتين أسلوبيتين للسور المكية اشترك "جزء عمّ" فيهما مع سائر القسم المكي هما:

1- قصر الآيات:

السور المكية امتازت بقصر الآيات مع جزالة اللفظ، بما يصخ الأذان، ويشتد وقعه على السامع. فقد ناسب قصرها وجزالتها وسرعة إيقاعها المخاطبين بها من أهل مكة والعرب في بدايات

---

(1) **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، القاهرة،، ط 1 ج1، ص297، مادة "خصص".

(2) **معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، دار الفكر، بيروت، ط 1، ص150.

الدعوة، ويناسب كذلك كل مقبل جديد على الإسلام في كل زمان ومكان، إذ تقوم تلك السور أمامه كومضات وإشارات سريعة تهديه إلى الطريق السوي. ثمّ بعد أن تترسخ لديه عقائد التوحيد والمعاد والنبوة والقضاء والقدر، ينتقل إلى معرفة التشريع والأحكام المبثوثة في السور المدنية. أوليس أول ما يتعلمه الأطفال المسلمون من القرآن هو هذه السور المكية القصيرة في "جزء عمّ"؟ حيث تترسخ لديهم عقائد الإيمان منذ نعومة أظفارهم. وهو تماما ما احتاج إليه المسلمون الأوائل، أو بالأحرى ما احتاج إليه الناس في بداية نزول القرآن، إذ جاء خطابا سريعا موجزا، مكثّفا، ذا تأثير عظيم في النفس البشرية. فهو سريع موجز كي يستظهره الناس بسهولة، ومكثف كي يعملوا فكرهم فيه بعد الحفظ، فتنفتح لهم أبواب واسعة تدخلهم بقوة في فضاء الإيمان وساحات اليقين. لا كما احتمل بعض الباحثين من أن ذلك لأنّ المخاطبين، وهم عرب الجزيرة أهل فصاحة، فيناسبهم الإيجاز دون الإطناب. كما أنهم أهل لجاجة ومشاقة فيناسبهم أن يخاطبوا بقوة الألفاظ الزاجرة[1]. وكأنهم بذلك حصروا خطاب القرآن بعرب الجزيرة في تلك المرحلة حسْبُ. والحال أنه للناس جميعا في كل زمان ومكان.

وهذا ما التفت إليه الموروث النقدي والبلاغي العربي، فيقول أبو هلال العسكري: "وتخيّر الألفاظ، وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام، وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كان أحسن له، وأدعى للقلوب إليه. وإن اتفق له أن يكون موقعه في الإطناب والإيجاز أليق بموقعه، وأحق بالمقام والحال، كان جامعا للحسن، بارعا في الفضل، وإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنبيك عن مصادره، وأوله يكشف قناع آخره، كان قد جمع نهاية الحسن، وبلغ أعلى مراتب التمام"[2].

ونجد صدى ذلك في طرح أسلوبي يدعى "الاختيار النفعي" حيث ينبغي لمنشئ النص المبدع أن يكون واعيا لحال المخاطب وظروفه المختلفة ليتسنى له أن يكون مقنعا له ومؤثراً فيه[3]. ومن أبصر وأعرف من الخالق بحال خلقه؟ وتجدر الإشارة إلى أن الاختيار النفعي يرتبط بنوع آخر هو

---

(1) البدوي: **أهم خصائص السور والآيات المكية**، ص35.

(2) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل: **كتاب الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1952م، ص141.

(3) أبو العدوس: **الأسلوبية: الرؤية والتطبيق**، ص168.

الاختيار النحوي الذي يقوم على قواعد اللغة بمفهومها الشامل الصوتية والصرفية والدلالية[1]، وهي المباحث التي ستكون محاور لهذه الدراسة. والارتباط بين هذين الاختيارين يقوم على أنّ طبيعة المقام التي يناسبها اختيار نفعي من نوع ما، هي كذلك تستدعي اختيارا نحويا مناسبا، أي أن الاختيار النفعي سيحكم الاختيار النحوي من حيث اختيار الطبيعة اللغوية التي تناسب ذلك المقام.
ومن الجدير بالذكر أن النقاد يجمعون على أهمية الاختيار في الدراسات الأسلوبية، ويتضح ذلك عند "جاكوبسون"؛ إذ عرّف الوظيفة الشعرية بأنها إسقاط مبدأ التماثل لمحور الاختيار على محور التأليف، فالاختيار ناتج على أساس قاعدة التماثل والمشابهة والمغايرة والترادف والطباق. بينما يعتمد التأليف وبناء المتوالية على المجاورة[2]. كما أنّ لمسألة الاختيار بوصفها قاعدة أسلوبية مساساً بنظرية "التأثير والاتصال" التي قال بها "ولفجانج آيسر" والتي تنص على أن الإبداع القائم على الاختيار مرتبط بالمبدع وبالمتلقي على حد سواء[3]. ومن هنا تتضح أهمية نظرية أسلوبية أخرى هي نظرية "الاستقبال" التي لها ارتباط وثيق بما ذكرنا.

وعوداً إلى خاصية قصر الآيات وجزالتها في السور المكية، وسنجد هذا متحققا كامل التحقق في "جزء عمّ"، حيث تطالعنا سورة "النازعات"، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝﴾ (النازعات 6-9). فالآيات بائنة القصر، لكنها في منتهى الجزالة والتأثير ودقة النظم، وفيها إشارة إلى نفختي الصور[4]. يدل عليهما قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر: 68). وبمقارنة الآيات الثلاث من سورة "النازعات" بالآية السابقة من سورة "الزمر" تتضح لنا خاصيتا القصر والجزالة المؤثرتان في النفس ذلك التأثير السريع والعميق، حيث تكثيف المعنى في إطار إيقاعي سريع يجعل العقل والقلب يعملان، كل واحد منهما في أجوائه، فالعقل للتعمق في المعنى، والقلب للتفاعل مع الإيقاع السريع المؤثر.

كما تتجلّى خاصية قصر الآيات وجزالتها أكثر ما تتجلّى في سورة "التكوير"، وهي السورة

---

(1) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق: ص168.
(2) رومان جاكبسون: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988م،ص33.
(3) محمد العبد: اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1989م، ص38.
(4) محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان،، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط 2، 1974، مج20، ص184.

الرابعة في "جزء عمّ"، حيث يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝﴾ (التكوير: 1-9).
وقصر الآيات هنا واضح جليّ، وجزالتها منقطعة النظير، وتأثيرها عظيم من حيث تصويرها المكثف لمشاهد متلاحقة من يوم القيامة والبعث ضمن إيقاع سريع يعكس سرعة وقوع تلك الأحداث، ولكن في الوقت نفسه تعكس الألفاظ بقوتها وإيحاءاتها المخيفة مدى شدة ذلك اليوم وأهواله.

وإذا استعرضنا سورة من وسط الجزء الكريم، فستقابلنا سورة "الشمس"، وهي ذات إيقاع سريع، وفواصل متقاربة جدا، حيث الآيات الأولى تتكون من كلمتين حسبُ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝﴾.
وأوضح ما فيها هو سرعة الإيقاع، غير أنها تحمل مضامين واسعة، فهي آيات شديدة التكثيف، فلو أراد عالم أن يوضح للناس مضمون الآية الأولى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ لاحتاج إلى الكثير من الكلام والوقت حول الشمس و خلقها وضوئها و ماهيتها...إلخ.

وفي آخر الجزء تطالعنا سورة "الإخلاص"، وهي السورة العجيبة التي تضمنت التوحيد بكل عظمته ومعانيه وعمقه، وعبرت عنه بعبارات قصيرة سريعة مكثفة قليلة، حيث انحصرت السورة في أربع من الآيات. وعلى قصرها فقد احتاجت من صاحب "التفسير الكبير" إلى اثنتي عشرة صفحة من القطع الكبير لتفسيرها ومتابعة تشعباتها ومراميها العميقة والكثيرة[1]. وكذلك الأمر مع صاحب "تفسير الميزان"، فقد فسّرها في خمس من الصفحات ذات الخط الضئيل[2]، وهو قليل من كثير، في حق هذه السورة العظيمة.

---

[1] الرازي، محمد بن ضياء الدين عمر، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، د.ت.ج 32، ص 174-185.

[2] انظر: الطباطبائي: الميزان، مج20،ص387-391.

2- كثرة القسم:

وهو متحقق بوفرة في "جزء عم"، خصوصا في استهلالات السور. نحو: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝﴾ (النازعات:1-3). ونحو: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝﴾(البروج:1-3). وكذلك كل من سور: الطارق، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر. وجاء القسم في أواسط كل من سور "التكوير": ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝﴾(التكوير 17-20)، و"الانشقاق": ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝﴾(الانشقاق 16-19).

ويلحظ أن القسم جاء بأسلوبين، الأول: القسم بحرف القسم الواو، وهو الأكثر شيوعا كما مر معنا في كل من "النازعات" و"البروج" و"الطارق" و"الفجر" و"الشمس" و"الليل"... حيث جاء القسم بالواو للفت الانتباه إلى عظمة المقسم به، ذلك أنّ بعض ما أقسم به المولى يمثل نعمة من نعمه العظيمة على عباده، كالشمس والليل والخنّس وهي النجوم. وبعضه يمثّل موجودا له دور في حياة الإنسان نحو "النازعات" وهي – بحسب بعض الأقوال – الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد، وقيل هو الموت ينزع الأرواح من الأبدان نزعا بالغا[1]. وسواء أكان المراد هو الملائكة، أم الموت، فلهما دور كبير في حياة الإنسان.

وبعض ما أقسم الله به مثّل قيمة زمانية للإنسان، وينطوي على تنبيه له للالتفات إلى تلك القيمة والإفادة منها، نحو ما نجده في القسم الذي استهل فيه الباري - جلّ وعلا- كل من سور "الفجر والعصر والضحى والليل والبروج" حيث جاء القسم باليوم الموعود وبالشاهد والمشهود في سورة البروج. واليوم الموعود هو يوم القيامة، والشاهد كما ذهب بعض التفاسير هو يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة على اختلاف كبير في تفسيرهما. وقد يكون الشاهد هو يوم النحر والمشهود يوم عرفة، أو الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم القيامة، وللمفسرين فيهما أقاويل كثيرة وصلت إلى ثلاثين قولا بحسب ما أورد صاحب "الميزان"[2]. لكن وإن اختلفت تفاسيرها فهي تشير إلى قيم زمانية

(1) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20 ص179.

(2) السابق، ص249.

اكتسبتها هذه الأيام. ولعلّ هذا الاختلاف بين المفسرين - فيما أرى - كان مبعثه القسم ذاته الذي يدل على العظمة والقيمة الكبيرة، فجاء الاختلاف مرتكزا على محاولاتهم تحديد أعظم الأيام وأهمها للإنسان.

والنوع الثاني من القسم هو القسم بصيغة "لا أقسم" بدخول "لا النافية" قبل القسم. وفائدتها توكيد القسم لا نفيه. و كان هذا شائعا على لسان العرب، أي لا يقسم بالأمر المراد إلا تعظيما له[1]. ونجده في "جزء عمّ" في ثلاثة مواضع، فقد استهلت به سورة "البلد": ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾(البلد:1-4). وجاء متوسطا في سورتي "التكوير": ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾(التكوير 17-20). و"الانشقاق": ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾(الانشقاق 16-19).

والملحظ الأسلوبي في القَسم هو أنه ينطوي على إيحائية تثري المعنى المراد معنويا، وتلفت الانتباه إليه، وتحث على التأمل في قيمة وجوده، سواء أكان هذا الشيء مادياً أم معنوياً. فالقسم يكون أسلوباً يناسب النص الدعوي والخطاب الذي يدعو إلى التغيير، وإلى التفكر في قيمة الأشياء، وإلى تحرر العقل من جموده وغفلته.

ثانيا: الخصائص الموضوعية

الخصائص الموضوعية هي التي تتخذ من موضوع السورة ومضمونها ركيزة لتحديد انتمائها إلى أحد القسمين القرآنيين المكي والمدني، حيث يكون ذلك الموضوع مطروقا بوفرة في أحد القسمين، ولا يعدم وجوده في القسم الآخر، لكن يكون وجودا قليلا لا يشكل ميّزة واضحة. وأهم خصيصتين موضوعيتين في الجزء هما:

---

[1] عزيزة يونس بشير: **النحو في ظلال القرآن الكريم**، دار مجدلاوي، عمّان، ط1، 1998م، ص179.

1- تناول قصص الأنبياء والأمم السابقة[1].

وقد تحققت هذه الخاصية في "جزء عمّ" في خمس من سوره، هي: "النازعات والبروج والفجر والشمس والفيل". ففي "النازعات" نجد ذكرا لقصة النبي موسى ﷺ مع فرعون، وانحصرت في الآيات 15-25 من السورة.

وأما في سورة "البروج" فهناك إشارة إلى قصة أصحاب الأخدود، وهي القصة التي لم تطرق إلا في هذه السورة، حيث تضمنتها الآيات 4-10. والقصة "هي قصة الجبابرة الذين خدّوا أخدودا وأضرموا فيها النار وأمروا المؤمنين بدخولها فأحرقوهم عن آخرهم نقما منهم لإيمانهم"[2].

وتطالعنا قصة ثمود في سورة "الشمس": ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝﴾(الشمس: 11- 15).وفي سورة "الفجر" هنالك إشارات سريعة لأقوام عاد وثمود وفرعون[3].

وحظيت سورة "الفيل" بقصة أصحاب الفيل المعروفة والمبثوثة مفصلة في كل كتب التفسير، نحو "التفسير الكبير"[4]، وهذه القصة لم تذكر إلا في هذه السورة، شأنها شأن قصة الأخدود التي استأثرت بها سورة "البروج" كما مرّ معنا، وشأن قصة يوسف ﷺ التي انفردت بنقلها السورة المسماة باسمه "يوسف".

وقد ظهر الإيجاز في قصص الأنبياء والأمم السابقة في "جزء عمّ" جليا بما يتناسب وطبيعة الجزء. وهو الأمر الذي سيتمّ بحثه لاحقا بشيء من التفصيل إن شاء الله.

---

(1) البدوي: **أهم خصائص السور والآيات المكية**، ص37.

(2) الطباطبائي: تفسير**الميزان**، ج 20، ص251.

(3) انظر: سورة "الفجر"، 6-13.

(4) انظر: الفخر الرازي: "**التفسير الكبير**"، ج32، ص96.

2- الدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر والتذكير بزوال الدنيا وحتمية يوم الحساب[1].

وهي متحققة تحققاً بارزا في 'جزء عمّ' ونجد ذلك في سور كثيرة من الجزء، بل في معظم سوره. فتزخر سورة 'النبأ' بتصوير يوم الحساب ومصائر الكافرين والمؤمنين فيه، في آياتها 17-40. كذلك اشتملت سورة 'النازعات' على نصيب وافر من ذكر يوم الحساب، تمثل في مرحلتين: المرحلة الأولى تتمثل في الآيات 6 الى 9. والمرحلة الثانية تمثلها الآيات 34 – 46. وعليه فقد استحوذ هذا الموضوع على خمس عشرة آية من ست وأربعين هو مجموع آيات سورة 'النازعات'، أي ما يعادل ثلث السورة.

وكانت الآيات العشر الخاتمة في سورة 'عبس' منصبة كذلك على موضوع يوم القيامة والحساب. في حين ابتدأت سورة 'التكوير' بذكر يوم القيامة ذكرا قويا، في أربع عشرة آية من مجموع آياتها التسع والعشرين، أي ما يعادل نصف السورة تقريبا. والأمر نفسه في سورة 'الانشقاق' حيث ابتدأت السورة وختمت في الحديث عن يوم القيامة. وكذلك كل من سور 'المطففين' والتي فيها ذكر كثير ليوم القيامة. و'الغاشية' التي تزخر بالحديث عن ذلك اليوم. وكل من 'الفجر، البلد، الليل، البيّنة، الزلزلة، العاديات، القارعة، التكاثر، والهُمزة'، كلها أتت على ذكر يوم القيامة والحساب، بتفاوت في ما بينها إذ كان الموضوع الرئيسي في بعضها مثل 'الزلزلة' و'القارعة'، أو كان ذكره مكمّلاً لموضوع ابتدأت به السورة، على نحو ما نجد في سورة 'البلد'، التي ختمت بإشارة الى النار المؤصدة بوصفها جزاء أصحاب المشأمة الكافرين الذين سبق الحديث عنهم في وسط السورة. وكذلك في سورة 'الفجر' التي وردت فيها إشارة إلى مشاهد القيامة من اصطفاف الملائكة وسوق جهنم وعذاب الكافرين، فكانت هذه خاتمة مناسبة للحديث السابق عن عدم إكرام اليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين، وحب الدنيا والمال. وهي الأمور التي مبعثها عدم الإيمان بيوم الحساب الذي يتحقق فيه العدل الإلهي، ويقتص فيه من الظالمين.

والأمر نفسه نجده في سور 'الليل، البينة، العاديات، والتكاثر'. إذ كان ذكر يوم القيامة أو الإشارة اليه مكمّلاً لموضوع سابق متعلق به، وغالبا هو موضوع حب الدنيا، والتعلق بها وطول الأمل فيها. فكان من الملائم أن تنتهي تلك السور بما يقطع على الغافل أمله، وعلى الظالم تماديه، وعلى الكافر كفره بذلك اليوم الحق الذي لا مفر منه.

---

[1] عهود عبد الواحد: السور المدنية، ص27.

ويبدو لي أن تناول سور وآيات "جزء عم" ليوم القيامة قد تعددت أساليبه من حيث الطول والقصر، وتنوعت ألفاظه من حيث الشدة والتوسط، وتفاوتت إيقاعاته من حيث التأثير والسرعة. فما ورد في سورة "القارعة" على سبيل المثال يختلف عمّا ورد في سورة "العاديات"؛ ففي الوقت الذي نلحظ فيه الشدة والإيقاع المدوّي والألفاظ التي تقرع القلب قرعا في سورة "القارعة"، كما سوف تقرع تلك القارعة قلوب الناس، نجد أن الأمر يختلف في سورة "العاديات"، حيث تنتهي السورة بآيات ثلاث: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝﴾، ففيها هدوء الجرس والدعوة الى التأمل والتفكر في ذلك اليوم المحتوم والتحذير منه. وقد ركزت الآيات الثلاث على مشهدين من مشاهد يوم القيامة يُعدان هادئين بالمقارنه مع الأهوال العنيفة في ذلك اليوم، وهما مشهد الخروج من القبور، ومشهد كشف النوايا والحساب أمام العليم بذات الصدور.

والأمر نفسه سنكتشفه لو عقدنا المقارنة نفسها بين سورتي "الزلزلة" و"التكاثر"، وبين "الغاشية" و"البلد". والخلاصة أن السور التي كان موضوعها الرئيسي هو يوم القيامة ظهرت فيها شدة الألفاظ وقوة الإيقاع والتصوير المخيف لأهوال ذلك اليوم، في حين أن السور التي لم يكن موضوعها الرئيسي هو يوم القيامة، بل كان مكملاً لموضوع رئيسي أو جزءاً من نسيج متعدد للسورة، فقد كان فيها التصوير ليوم القيامة أقل شدة، وأميل للتوسط، وأكثر دعوة للتأمل والتفكر والحذر منه، من أن يكون إخافة تصويرية إيقاعية. ويعزز ذلك ما أشار إليه "سيد قطب" في معرض تفسيره لسورة "النازعات" من التباين في الإيقاع بين الشدة والهدوء داخل السورة الواحدة، تبعاً لتباين الموضوع المعني[1].

كان ذلك رصداً لما توافر في "جزء عم" من أهم خصائص السور المكية بشقيها الأسلوبي والموضوعي، وقد رأينا كيف أن الجزء قد مثل الطبيعة القرآنية المكية خير تمثيل. غير أن "جزء عم" كذلك خصائص ينفرد بها، تميزه من سائر القرآن المكي ذاته، فضلاً على القرآن المدني. وسأعرض فيما يأتي أهم هذه الخصائص التي تميز بها الجزء أسلوبياً وموضوعياً والتي استخلصتها من خلال مقارنات قمت بها بين سور الجزء وسائر السور المكية.

---

[1] سيد قطب: **في ظلال القرآن**، مج6، ص3811.

خصائص "جزء عم":

1- تكثيف المعنى:

ويكون ضمن عبارات موجزة وإيقاع سريع في كثير من مواضع الجزء، ولم ينفرد "جزء عم" بقصر الآيات وإيجاز العبارات وسرعة الإيقاع، فقد أشبهته في ذلك كثير من سور القرآن المكية في غيره من الأجزاء، نحو سور "الصافات، الواقعة" في الجزء الثالث والعشرين، ونحو سور "الطور والنجم والواقعة والرحمن" الواقعات في الجزء السابع والعشرين، وغيرها الكثير. وأمّا التكثيف – أي تضمين العبارة القصيرة المعنى الواسع– والاختصار فهما ميّزتان في الجزء. فلو قارنّا قصة موسى الواردة في سورة "النازعات" – السورة الثانية في "جزء عم"– بالقصة نفسها الواردة في سورة "طه"، وهي سورة مكية واقعة في الجزء السادس عشر من القرآن الكريم، لوجدنا الفرق واضحا ولافتا للنظر من حيث حجم الاهتمام بالتفاصيل والجزئيات، ففي "النازعات" نلحظ أنّ الحدث الذي يمكن أن نعنونه بـ"تكليم الله لموسى" قد حظي بآية واحدة في تلك السورة، وهي الآية 16: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. في حين حظي الحدث نفسه في سورة "طه" بثلاث عشرة آية، وهي الآيات 11-23: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۝ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۝ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۝ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۝ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۝ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ۝ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ۝﴾(طه: 11-23). حيث التكثيف جليّ في "النازعات"، وفي المقابل نجد التفصيل واضحا في سورة "طه".

ونجد أن حدثا آخر في القصة نفسها، وهو ما يمكن أن نسميه "تكليف الرب لموسى" قد انحصر في آيات ثلاث في سورة "النازعات"، وهي الآيات 17-19: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾. في حين حظي الحدث نفسه بأربع وعشرين آية من آيات سورة "طه"، وهي الآيات 24 – 48. وكذلك نلحظ أنّ حدث "محاورة موسى لفرعون ودعوته"، والذي انحصر في آيتين حسبُ من آيات سورة "النازعات"، نجده قد استحوذ على عشر آيات في سورة "طه"، وهي الآيات 49-59.

والأمر نفسه مع حدث "جمع السحرة" حيث اختصر في سورة "النازعات" بآية واحدة، بل نستطيع القول أنه انحصر بكلمة واحدة هي "حشر" في الآية 23 من السورة: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾. في حين تمدّد هذا الحدث في سورة "طه" فاستحوذ على ست عشرة آية هي الآيات 60 – 76. وحين نأتي إلى حدث "إهلاك فرعون وجنوده بالإغراق"، ستطالعنا آية واحدة حسبُ في سورة "النازعات" أشارت إلى هذا الحدث إشارة شديدة التكثيف، حيث لم تذكر الآية كيفية الإهلاك، بل عبّرت عنه بـ"الأخذ"، وبينت علة هذا الأخذ بترميز احتاج من المفسرين أن يقفوا عنده متأملين، حين قال المولى عز وجلّ في الآية الخامسة والعشرين من السورة: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾. حيث ذكر صاحب "التفسير الكبير" أنّ لهاتين الكلمتين – أي الآخرة والأولى – وجوها للتفسير، منها أنه قصد بالأولى قول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾(القصص:38). والأخرى قصد بها قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1]. وساق أقوالا أخرى ليس هنا محلها. وغاية ما يهمنا في هذا المجال هو أن نلحظ كيف أن التكثيف في هذه الآية وصل إلى درجة الترميز، في الوقت الذي نجد فيه أنّ سورة "طه" أوضحت نهاية فرعون وبعض تفاصيل إهلاكه في آيتين هما: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾. فاتضح في الآيتين أن فرعون قد تبع موسى وقومه نحو البحر، ثم أغرقه الله عز وجلّ بحسب ما هو معروف.

---

[1] الفخر الرازي: "التفسير الكبير"، ج31، ص24-43.

والمشهد نفسه لإهلاك فرعون بالغرق، نجده حظي بآيات كثيرة في غير سورة "طه" من السور المكية، نحو سورة "الدخان" في آيتيها 23-24، وكذلك في سورة "الإسراء" في الآية 103 وغيرها. وكلها توضح طبيعة الإهلاك وبعض التفاصيل المحيطة به، بخلاف ما رأينا من تكثيف وترميز في سورة "النازعات".

2- قصر سوره:

وقد سبقت الإشارة إلى هذه الخصيصة على نحو الإيجاز، "فجزء عم" بحق هو جزء قصار السور، ذلك إنّ أقصر سور القرآن موجودة فيه، نحو سور: "الكوثر والعصر والنصر"، لثلاث آيات لكل منها. وهنالك سورتا "الإخلاص وقريش" ذات الأربع آيات. ويكفي أن نقول أنّ ثلثي سور الجزء لم تتجاوز في عدد آيات كل منها الخمس عشرة آية، وأنّ نصف سوره لم تتجاوز العشر آيات، وقصر السور في "جزء عمّ" ميزة واضحة له انفرد بها بين سائر أجزاء القرآن الكريم.

3- كثرة القسَم فيه:

فقد أحصينا سبعة وثلاثين موضعا للقسَم في هذا الجزء، سواء ما كان منها باستعمال "واو القسم"، أم ما كان باستعمال " لا أقسم". وهذا العدد من مواضع القسم في هذا الجزء لا نجد نصفه في الأجزاء الأخرى، لا بل لا نجد ثلثه، فالجزء الذي يأتي تاليا بعد "جزء عمّ" من حيث عدد مواضع القسم فيه هو الجزء التاسع والعشرون " جزء تبارك" الذي يتضمن ثمانية مواضع للقسم حسبُ. وربما تشير كثرة القسم في الجزء إلى عظم وأهمية المعاني الواردة فيه، مما يستدعي القسم عليها للفت الأذهان إلى عظمتها تلك.

4- انفراده بفواصل منتهية بحروف لم تتكرر في غيره من الأجزاء:

نحو الفاصلة السينية في سورة "الناس"، والفاصلة ذات الهاء المقرونة بالألف في سورتي "الزلزلة" و"الشمس"، وفاصلة الحاء المقرونة بالألف في "العاديات"، والكاف في سورتي "الانفطار" و"الشرح"، والتاء في كل من "التكوير" و"الانفطار" و"الانشقاق".

الفصل الأول

المستوى الدلالي "المجالات الدلالية لـ"جزء عمّ"

توطئة:

التحليل اللغوي للنصوص الأدبية هو من الأمور التي اهتمت بها الدراسات النقدية الحديثة، إذ يكون النص ولغته هما محور الدراسة، ذلك أنّ لغة النص هي التي توضّح ما فيه من ثراء ينبع من داخله، ولا يفرض عليه من الخارج.

وإحدى تطورات الأسلوبية الدلالية هي عمليات التحويل الدلالي التي قال بها "كوهين"، والتي تجري بين عناصر الكلام وفق مستويين، هما: "الاختيار والتوزيع". الأول منهما يتصل بدراسة التعبير اللغوي بمعزل عن التعابير اللغوية الأخرى في النص. أما "التوزيع" فيتناول التعبير اللغوي من واقع ارتباطه بالوحدات اللغوية الأخرى في النص. ويطلق على "الاختيار" مصطلح "الأسلوبية التفكيكية". أما "التوزيع" فيطلق عليه مصطلح "الأسلوبية البنيوية"[1]. وفي تناولنا للمستوى الدلالي سنستأنس بهذين الأسلوبين، حيث سندرس طائفة من ألفاظ الجزء كل واحدة على حدة، ثم نضمها جميعا في علائق دلالية، تشكل نسيجا متكاملا، تتبلور فيه فكرة عامة، ربما هدف القرآن الكريم إلى إيصالها بالطريقة التي سمّيت فيما بعد بالتوزيع. ويجدر بالذكر أن ما سنقوم به من تحليل باستخدام تلك الأدوات الأسلوبية، في هذا المستوى وفي غيره، ستمليه علينا طبيعة النظم القرآني المتميزة، وستدور تلك الأدوات في فلك ذلك النظم العظيم المتفرد، لا العكس، فحاشا أن يكون القرآن مقوداً لا قائدا. لذلك عمدت إلى استعمال كلمة "استئناس" بالمنهج لا "تطبيق" المنهج فيما يختص بهذا النظم القرآني المتفرد.

وبما أن "جزء عمّ" ثريّ بحشد من الألفاظ المتقاربة في المعنى والمتضافرة لتقديم دلالات واحدة، فضلا عن كثير من الألفاظ المتضادة أيضا، فإنّ الأسلوبية الوصفية ستكون مناسبة جدا طريقةً للتحليل فيه، ذلك أن المنهج الأسلوبي الوصفي غرضه الأساس دراسة القيم التعبيرية

---

(1) أبو العدوس: **الأسلوبية: الرؤية والتطبيق**، ص107.

القائمة على متغيرات أسلوبية، أي أشكال مختلفة للتعبير مثل الترادف والتضاد وغيرها[1]. وكذلك ستكون الأسلوبية الوصفية مناسبة للتحليل هنا من جهة أنها تهتم بالمحتوى العاطفي إلى جانب المحتوى الفكري وهو الأبرز، متجاوزة الدراسات البلاغية القديمة القائمة على الأنماط والصور التقليدية[2]. إذ إن التوافق بين استعمال الأشكال اللغوية والبنى النحوية يحدث أثرا فكريا وعاطفيا لدى الجماعة اللغوية، ويجعل التعبير اللغوي يرقى إلى مستوى الأسلوب اللغوي، وهو مادة البحث في الدراسات الأسلوبية[3].

وسنفيد في هذه الدراسة لبعض ألفاظ جزء عمّ منزعين من التناول اللفظي للنصوص الأدبية، أولهما ما أسماه عبد الملك مرتاض المعجم الفني[4]. والمقصود به: ما يتشكل للأديب من انفراد لفظي يميزه من غيره من الأدباء، ومعجم خاص به يتوضّح ويظهر جليا عند تحليل نصوصه الإبداعية، وتصنيفها تحت مجموعة من المجالات اللفظية الفنية[5].

وثاني المنزعين: هو دراسة الحقول الدلالية. والمجال الدلالي أو الحقل الدلالي هو: عبارة عن مجموعة من الكلمات التي ترتبط دلالاتها وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها، مثال ذلك كلمات الألوان، في اللغة العربية، فهي تقع تحت المصطلح العام لون، وتضمّ ألفاظا مثل: أحمر – ازرق – اصفر – أخضر – أبيض...الخ[6]. وهو في نظر ستيفن أولمان: قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبر عن مجال معين من الخبرة[7]. ويهدف إلى جمع كل الكلمات التي تخص حقلا معينا لكشف صلاتها الواحد منها بالآخر، وصلاتها بالمصطلح العام[8]، بدون إغفال سياقها الذي ترد فيه، فهو يصفيها ويخلصها من كل الدلالات الماضية التي تواطأت معها الذاكرة، وأتاحت لها أن

---

(1) جيرو: **الأسلوبية**، ص53.

(2) السابق: ص52.

(3) أبو العدوس: **الأسلوبية الرؤية والتطبيق**، ص93.

(4) انظر: عبدالملك مرتاض: **بنية الخطاب الشعري: دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية**،، دار الحداثة، بيروت، ط 1، 1986، ص241 ومابعدها، وانظر كذلك: أبا عثمان عمرو بن بحرالجاحظ: **البيان والتبيين**، تح: عبدالسلام هارون، المجمع العلمي الإسلامي،بيروت ط4،د.ت، ج2 ص61، وانظر: محمد العبد: **اللغة والإبداع الأدبي**، دار الفكر للدرااسات والنشر، ط 1، 1989م،،ص73.

(5) انظر: مرتاض: **بنية الخطاب الشعري**، ص241.

(6) أحمد مختار عمر: **علم الدلالة**،، مكتبة دار العروبة،الكويت، ط 1، 1982 م،،ص79.

(7) السابق: ص79.

(8) السابق، ص80.

تحتشد فوقها، وهو بذلك يبعث لها قيمة حضورية جديدة. غير أنّ الكلمة توجد مستقلة في الذهن عن جميع استعمالاتها، ولديها القابلية لتشكّل جديد حسبما تقتضيه الظروف[1]. وهو ما يسمّى تفجير الطاقة المخزنة في الكلمات، وهو الوجه الحقيقي للإبداع[2]. ومع إدراكنا الكامل لتفرد النظم القرآني، إلا أنه يشترك مع النصوص الأدبية في أنه يتكون من ألفاظ عربية مؤتلفة تؤدي معاني معينة، وعليه فيمكن دراسة هذه الألفاظ، والسعي قدر الإمكان إلى تحري علاقاتها الدقيقة، وتوزيعها تبعا للمعاني المنشودة، ومراميها الواسعة، وتنوعاتها، وهذا كله تمليه علينا عظمة القرآن الكريم، واتساعه وإعجازه وتفرده.

وألفاظ القرآن الكريم بالذات لديها تلك القابلية الكبيرة المتميزة لتشكلات جديدة دائمة، بما تمتلك من طاقة كامنة، وهو ما عُبّر عنه بمقولة أن القرآن يبقى غضّا على مرّ الزمان. ونحن نرى براهين ذلك ماثلة أمامنا تتمثل بما يخرج علينا بين الفترة والأخرى من دراسات وكتب تجلّي جوانب جديدة في بلاغة ودلالات وأسلوب القرآن الكريم لم تكن معروفة من قبل. وتقوم هذه القراءات الجديدة للنص القرآني على قاعدة أنّ الذات القارئة هي في حركة تجديدية دائمة لا تنتهي مع النص، وهو ما ظهر عند "سبيتزر" باسم القراءة الإبداعية التي هي علاقة متبادلة ومستمرة بين الذات والموضوع[3].

وسيكون تناولنا للواقع الدلالي في "جزء عمّ" مستأنساً إلى حد كبير بالمنهج التواصلي في إطار التحليل الأسلوبي، إذ إن هذا المنهج يهتم جدا بالصبغة الدلالية للكلمات وعلاقاتها، وأثر هذه العلاقات السياقية في تكوين البنية الشكلية للنص. وتكون مهمة الدارس الأسلوبي هنا هي كشف التفاعل الخلّاق بين الجانبين الشكلي والدلالي في النص[4]. وهو الأمر الذي يأمرنا به القرآن الكريم حين يدعونا إلى تدبّر آياته والتعمق فيها: "أفلا يتدبرون القرآن"، أي التوصل إلى ما ترمي إليه الألفاظ من معان دقيقة ربما تتجاوز الاستعمال البشري المألوف الذي تعوزه الدقة في كثير من الأحيان.

---

(1) ج فندريس: اللغة، تعريب عبدالحميد الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة االأنجلو المصرية،لجنة البيان العربي، القاهرة، 1950 م، ص231-232.

(2) انظر: محمد عبدالمطلب: البلاغة و الأسلوبية، القاهرة،1984م، د.ن، ص228-234.

(3) جيرو: الأسلوبية: ص79.

(4) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص137.

وبالنظر إلى ما قاله "جاكوبسون" في حديثه عن الوظيفة الشعرية حول جدولي "الاختيار والتوزيع" اللذين يطابقان مصطلحي العلاقات الرأسية والعلاقات الأفقية عند "دي سوسير"، فسنلحظ أن ما قالاه هو بمثابة صدى للواقع اللغوي لألفاظ "جزء عم" وتوزيعاتها الدلالية. إذ إن الحدث الألسني عند "جاكوبسون" ينطوي على عمليتين متواليتين في الزمن، ومتوافقتين في الوظيفة، هما: اختيار المتكلم لأدواته التعبيرية من الرصيد المعجمي للغة، ثم تركيبه لها تركيبا تقتضي بعضه قوانين النحو، وتسمح ببعضه سبل التصرف في الاستعمال. فالعمل الأدبي هو تطابق لجدول الاختيار على جدول التوزيع. وهذا يؤدي إلى التناغم بين العلاقات الاستبدالية "الغيبية"، أي التي يتحدد الحاضر منها بالغائب، والعلاقات الركنية "الحضورية" التي تمثل تواصل سلسلة الخطاب وفق أنماط بعيدة عن العفوية والاعتباط. فتحليل العمل الأدبي يعتمد على السياق، إذ إن كل إشارة لغوية لها وظيفة ضمن النص الذي تكون فيه، والوظائف بمجموعها تدرس في سياق العمل الفني[1]. وهذا ما سنلحظه فعلا في أثناء تناولنا الدلالي لـ"جزء عم" فيما سيأتي. مع إدراكنا بطبيعة الحال للفارق الجوهري بين العمل الأدبي البشري والنص القرآني المنزل.

إذاً نحن جمعنا في تناولنا الأسلوبي للمستوى الدلالي في "جزء عم" بين أدوات للتحليل تنتمي كلها إلى المنهج الأسلوبي، ولكنها تندرج ضمن مناهج أو اتجاهات فرعية ضمن ذلك المنهج العام. أولها تندرج في إطار المنهج الوظيفي أو الأسلوبية التواصلية، وهي نظرية "القارئ-الجمع" التي جاء بها "ريفاتير"، ضمن ما سمي بالأسلوبية البنيوية، والتي تأخذ بالاعتبار كل الآراء والتحليلات المتراكمة حول نص بعينه. وثانيها هي "الاختيار والتوزيع" التي جاء بها "جاكبسون" وهي تندرج في الأسلوبية التواصلية كذلك. وعليه فإنّ دراستنا لهذا المستوى ستكون بمثابة استئناس بالأسلوبية من أطرافها المتعددة، وهو ما قد يثري التحليل لنظم ثري ولا ريب. مع إدراكنا بأن لكل منهج من هذه المناهج رؤيته وأسلوبه وأدواته في التحليل، والتي تتنافر وتتضارب تبعا للأساس الذي قامت عليه. ولكنها على أقل التقادير تندرج داخل نسيج التحليل الأسلوبي العام الذي يهتم بمختلف جوانب النص، الداخلية والخارجية، السطحية والعميقة.

وغنيٌّ عن البيان أنّ نقادنا القدامى وعلى رأسهم "عبد القاهر الجرجاني" التفتوا إلى مسائل دقيقة في أدوات التحليل الأسلوبي. يقول الجرجاني: إنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ

---

[1] الهادي الجطلاوي: مدخل إلى الأسلوبية تنظيرا وتطبيقا، مكتبة عيون، الدار البيضاء، 1992م، ج1، ص41 ومابعدها.

مجرّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنّ الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ما أشبه ذلك مما لا تعلّق له بصريح اللفظ"[1]. وهو ما عرف بنظرية النظم التي ارتبطت به، وسبق معاصريه بها، تلك النظرية التي حظيت باهتمام المحدثين من نقاد الأدب، حين هضموها وزادوا عليها، مع اعترافهم بالأسبقية له، وخصوصا حينما اطلعوا على فكرة "العدول" التي صرّح بها "نوم تشومسكي"، ولاحظوا ما بين الفكرتين - أي النظم والعدول - من تقارب على تباعد زمنيهما[2]. ويبدو لي أن "تشومسكي" ربما اطلع على نظرية النظم عند "الجرجاني" وأفاد منها، وقدمها بصيغة عصرية، وهو ما يدعونا إلى ضرورة الاهتمام بموروثنا النقدي التحليلي اهتماماً أكبر، والبناء عليه وتطويره، لا التنكر له وإسقاطه في إزاء النظريات المعاصرة، بذريعة معاصرتها حسبُ، وأحيانا بدون تعمق فيها واستجلاء لسلبياتها والقصور فيها.

وعوداً إلى المجالات الدلالية، فالسور المكية لها مجالاتها الدلالية التي تميزها من السور المدنية - كما أوردنا سابقا - ذلك أنّ السور المدنية توجهت في غالب آياتها إلى الحديث عن "الحقائق الشرعية في العبادات والمعاملات، والحلال والحرام، والأحوال الشخصية، والقوانين الدولية، وشؤون السياسة والاقتصاد، وأحوال السلم والحرب، ووقائع المعارك والغزوات"[3]. أمّا السور المكية فهي غالبا ما طرقت موضوع الدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر، وحتمية يوم الحساب، وزوال الدنيا، والتأكيد على مبدأ وحدانية الله، ووصف يوم الجزاء والثواب والعقاب، وذكر قصص الأمم السابقة وأنبيائهم وما آل إليه مصيرهم[4].

وبما أنّ "جزء عمّ" في غالبه مكيّ - كما مرّ معنا - وتتجلّى فيه الطبيعة المكية موضوعيا وأسلوبيا، فستكون مجالاته الدلالية - ولا شك - منسجمة ومتناغمة مع المجالات الدلالية للسور المكية عامة. غير أنّ "جزء عمّ" تفرّد عن باقي القسْم المكي في تناوله لبعض تلك المجالات طولا وقصرا. فمثلا يكاد موضوع قصص الأنبياء والأمم السابقة يكون الموضوع الأكثر تناولا في الآيات المكية بشكل عام، ولكن ليس في "جزء عمّ" بشكل خاص، بالرغم من كونه مكيا، لذلك لا يمكن أن ندرس هذا الموضوع بوصفه مجالا دلاليا في الجزء، في حين أنّ هناك مواضيع تشكل بقوة مجالات

---

(1) عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز**،،دار المعرفة،بيروت، 1978م، ص38.

(2) انظر: محمد عبدالمطلب: **بحث النحو بين عبدالقاهر الجرجاني وتشومسكي**، مجلة فصول، مج 5/ع1:ص32.

(3) صبحي الصالح: **مباحث في علوم القرآن**،، دار العلم للملايين، بيروت، ط 8، 1974م، 231.

(4) عهود عبد الواحد: السور المدنية، ص17.

دلالية واضحة في "جزء عمّ"، فقد اتضح لنا بعد استقراء شامل للآيات ومضامينها أنّ ثلاثة مجالات دلالية استحوذت على "جزء عمّ"، وهي:

أوّلا: يوم القيامة وما يتضمنه من مشاهد وأحداث وحساب: وقد حظي بمئة وإحدى عشرة "111" آية من مجموع آيات الجزء التي بلغت خمسمئة وخمسا وستين "565" آية.

ثانيا: الجزاء: والمقصود به مصائر الناس في الآخرة إلى جنة أو إلى نار، وتفاصيل ذلك الجزاء بشقيه. وقد حظي هذا الموضوع بمئة وثلاث آيات "103" من مجموع آيات الجزء.

ثالثا: نعم الله تعالى: ونقصد بها النعم المادية والمعنوية التي امتنّ بها المولى عز وجلّ على عباده، والتي هي كذلك مظاهر قدرة باهرة، وحكمة بالغة للرب العظيم. وقد استحوذ هذا الموضوع على أربع وتسعين "94" آية من مجموع آيات الجزء.

وأمّا ما تبقى من الآيات في غير هذه الموضوعات الثلاثة، والتي تبلغ مئتين وسبعا وخمسين "257" آية، فقد تناولت موضوعات شتّى، لا تشكل في حجمها الكمي مجالات دلالية واسعة.

المجال الدلالي الأوّل: القيامة والحساب.

وهو أكبر الحقول الدلالية في "جزء عمّ". والقيامة: "يوم البعث يقوم فيه الخلق بين يدي الحي القيوم. قيل أصله مصدر قام الخلق من قبورهم قياما وقيامة. ويقال: هو تعريب قيما بالسريانية بهذا المعنى"[1].

والحساب: هو محاسبة الله الناس يوم القيامة، فقد جاء في "تاج العروس": "إنما سمى الحساب في المعاملات حساباً لأنه يعلم به ما فيه كفاية ليس فيها زيادة على المقدار ولا نقصان"[2]. وهو "اسم مصدر، وقوله تعالى: والله سريع الحساب، أي حسابه واقع لا محالة، وكل واقع فهو سريع"[3].

وقد جمعنا بين القيامة والحساب في حقل دلالي واحد لأن القيامة بوصفها مصطلحاً إسلامياً عقائدياً يتضمن، في ما يتضمن، محاسبة الله الخلقَ على أعمالهم، ثم تقرير مصيرهم إلى جنة أو إلى نار. ومن المعلوم أن من أسماء يوم القيامة يوم الحساب، وكأنهما شيء واحد.

---

(1) محمد مرتضى الزبيدي: معجم تاج العروس من جواهر القاموس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، مج 9، ص37،مادة "قيَم".

(2) الزبيدي: معجم تاج العروس،مج 1، ص210، مادة "حسَب".

(3) السابق.

والسور التي اشتملت على ألفاظ القيامة والحساب في جزء عمّ هي: النبأ، النازعات، عبس، التكوير، الانفطار، المطففين، الانشقاق، البروج، الطارق، الغاشية،الفجر، العلق، الزلزلة، العاديات، القارعة، وأخيراً التكاثر. فهي ست عشرة سورة من أصل سبع وثلاثين، معظمها من السور الكبار في الجزء، تشكل أكثر من ثلثيه، وبتعداد الصفحات فهي تشكل ما يرقى إلى الخمس عشرة صفحة من مجموع صفحات الجزء البالغة اثنتين وعشرين صفحة حسب المصحف العثماني. لهذا فقد جاءت الآيات التي تناولت موضوع القيامة والحساب هي الأكثر؟إذ بلغت مئة وإحدى عشرة آية، كما مر آنفاً.

وقد وجدنا أن الألفاظ التي تنتمي الى حقل القيامة والحساب الدلالي تتشعب إلى أربع شعب، وسنتناولها كلاً على حدة في ما يأتي:

1- ألفاظ النفخة الأولى وآثارها.

النفخ في الصور كما ورد في التفسير الكبير فيه قولان أحدهما أن الصور جمع الصُوَر فالنفخ في الصور عبارة عن نفخ الأرواح في الأجساد والثاني أن الصور عبارة عن قرن ينفخ فيه[1]. والنفخ مرتان: نفخة أولى، ونفخة ثانية. أما النفخة الأولى، فلا توجد لفظة صريحة لها في جزء عمّ كتلك الموجودة مثلا في سورة الزمر الآية 68: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾. ولكن توجد ألفاظ كثيرة تشير إلى ما سيحدث بعد هذه النفخة وما يمكن أن نسميه آثار النفخة الأولى، والألفاظ هي: - ترجف الراجفة: في سورة النازعات: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ (النازعات:6). قال الفخر الرازي أن الرجفة في اللغة تحتمل وجهين أحدهما الحركة لقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ (المزمل: 14). الثاني الهدة المنكرة والصوت الهائل من قولهم رجف الرعد يرجف رجفاً ورجيف[2]. ويخلص الى القول: الراجفة صيحة عظيمة فيها هول وشدة كالرعد[3].وينقل القول المشهور بين الجمهور أن

---

(1) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص10.

(2) السابق، ص34.

(3) السابق.

الراجفة هي النفخة الأولى[1]، أوهي: 'الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال، وهي النفخة الأولى، وصفت بما يحدث بحدوثها[2]. وهذا يؤكد ما رأيناه من أن الراجفة هي أثر من الآثار المترتبة على النفخة الأولى.

- 'دكّت': تشبه الراجفة في المعنى، وتستدعي اسما افتراضيا، هو' الداكّة' مقابل 'الراجفة'، لكن المصرح به هو الفعل 'دكت' في الآية 21 من سورة 'الفجر': ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾. ومعناها: إذا رُجت الأرض وزلزلت زلزالا وحركت تحريكا بعد تحريك[3].
- 'زلزلت': تقدم المعنى نفسه الذي قدمته اللفظتان السابقتان. ووردت في سورة 'الزلزلة' في آيتها الأولى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، أي: 'تزلزل الأرض عند قيام الساعة وترج رجّا'[4].

ونلحظ أنّ القرآن قد استعمل ثلاثة من الألفاظ التي تحمل معنى الاضطراب والرج والتحريك الشديد، وهذا يدل على التنوع اللفظي والغنى الدلالي، إذ لا بدّ أن لكل لفظة من هذه الألفاظ معنى خاصا يميزها من الأخريات، وإن اجتمعت كلها تحت سقف معنى واحد رئيسي. وربما تنوّعت الألفاظ للمعنى الواحد تبعا لتنوع الفاصلة القرآنية، فعلى سبيل المثال ناسبت لفظة 'الراجفة' الفاصلة القرآنية في سورة 'النازعات' المنتهية بالتاء المربوطة المسبوقة بالفاء، وكذلك ناسبت 'دكا' الفاصلة المتوازنة في سورة 'الفجر' التي هي على وزن 'فعْلا'.

- 'كُوّرت': لفظة مسندة إلى الشمس في مستهل سورة 'التكوير': ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، حيث جاء مسمّى السورة مشتقا من هذا الفعل. وللتكوير وجهان للتفسير نقلهما 'الطبري' في تفسيره، أحدهما أن تكوير الشمس يعني: ذهاب ضوئها، والآخر يرى أن معناه: رُمي بها[5]. وقد رجّح 'الطبري' القولين، ذلك أنّ 'التكوير هو جمع بعض الشيء إلى بعض فمعنى

---

(1) الفخر الرازي: **'التفسير الكبير'** ج 31، ص10.

(2) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج4، ص212.

(3) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**،، دار القلم، دمشق والدار الشامية، بيروت، مج7، ص628.

(4) السابق: ص628.

(5) السابق: ص552.

تكوير العمامة لفها على الرأس. فتكوير الشمس هو جمع بعضها إلى بعض ولفها ثم الرمي بها[1]. ويبدو لي أن ما قاله "الطبري" من الأخذ بالقولين معا هو الصحيح، إذ إن الآية (9) من سورة "القيامة": ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ قد بينت هذا المعنى. فجمع الشمس والقمر يستدعي ذهاب ضوئها لما فيه من معنى المزج والإطفاء، ويستدعي الرمي كذلك لما فيه من تحريكها من مكانها لغاية جمعها مع القمر. وربما لهذا السبب وجدنا غير مفسر قد أورد المعنيين السابقين تفسيراً للتكوير[2].

- "انكدرت": المسندة إلى النجوم في سورة "التكوير" نفسها الآية2: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ تشير كذلك إلى أثر من آثار النفخة الأولى، وانكدرت من الانكدار، و"انكدار الطائر من الهواء انقضاضه نحو الأرض، وعليه فالمراد سقوط النجوم... ويمكن أن يكون الانكدار بمعنى التغيّر وقبول الكدورة فيكون المراد به ذهاب ضوئها"[3]. والمعنى الأول، وهو التساقط، ذهب إليه كذلك صاحب "التفسير الكبير"[4].
- "سُيّرت": دائمة الارتباط بالجبال في القرآن الكريم، وقد وردت مرتين: أولاهما في سورة "النبأ" الآية 20: "وسُيرت الجبال فكانت سرابا"، وفي سورة "التكوير" الآية 3: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾، ومعناها: "وإذا سيّرت عن وجه الأرض كقول الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾، أو في الهواء كقوله تعالى: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾"[5]. وفي إطار المعنى نفسه، ولكن بصيغة مختلفة، استعمل فيها التصوير والتشبيه ما ورد في الآية 5 من سورة "القارعة": ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾، والعهن هو الصوف ذو الألوان، وحيث إن الجبال مختلفة الألوان. فقد جاء هذا التشبيه دقيقا ومناسبا، ولعلّه ربط هذه الآية بما قبلها: ﴿يَوۡمَ

---

(1) الطبري: ج7، ص552.

(2) انظر: الطباطبائي: **تفسير الميزان**، مج20، ص213، وكذلك: سيد قطب: **في ظلال القرآن**، مج6، ص3838.

(3) الطباطبائي: **تفسير الميزان**، ج 20، ص213.

(4) انظر: الرازي: **"التفسير الكبير"**، ج 31، ص67.

(5) السابق.

يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾، وربما أُريد إظهار أثر القارعة على الجبال، إذ تجعلها كالصوف المنفوش المتفرّق، وهي الجبال الصلدة الضخمة، فكيف إذاً سيكون تأثيرها على الناس الضعفاء الذين هم من لحم ودم؟![1].

- عُطّلت: التي أسندت إلى العشار في الآية 4 من سورة التكوير: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾، هي كذلك من الألفاظ التي تشير إلى أثر من آثار النفخة الأولى، والعشار هي: جمع عشراء، كالنفاس في جمع نفساء، وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة[2]. أمّا معنى عطلت فقد قال ابن عباس: أي أهملها أهلها لما جاءهم من أهوال يوم القيامة[3]. وأورد الفخر الرازي معنى آخر لهذه الآية، هو أنّ العشار كناية عن السحاب، تعطّلت عمّا فيها من الماء[4]. وعلى أية حال، فالآية تشير إلى أثر من آثار النفخة الأولى.

- حشرت: التي أسندت إلى لفظة الوحوش في الآية 5 من سورة التكوير: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾. ومعنى الوحش وهو مفرد الوحوش: كل شيء من دواب البر مما لا يستأنس[5]. وحشرت: جُمعت من كلّ ناحية[6]. وسبب جمعها أنه يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص، كما نقل صاحب التفسير الكبير عن قتادة أنّ الله تعالى يحشر الوحوش كلها فيقتص للجمّاء من القرناء، ثم يقال لها موتي فتموت[7]. كما ورد أنّ الحشر هنا بمعنى الموت[8].

- سُجّرت: المرتبطة بالبحار في القرآن، حيث وردت في الآية 6 من التكوير: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، وقرئت بالتخفيف والتشديد، وأورد الفخر الرازي في تبيان معناها وجوها، منها:

---

(1) الرازي: التفسير الكبير، ج 31، ص72.
(2) السابق: ص67.
(3) السابق.
(4) السابق.
(5) السابق.
(6) الزمخشري: الكشاف، ج4، ص222.
(7) السابق.
(8) السابق، ص68.

"أنّ أصل الكلمة من سجّرت التنور إذا أوقدتها، والشيء إذا أوقد فيه نشف ما فيه من الرطوبة، فحينئذ لا يبقى من البحار شيء من المياه البتة"[1]. ومنها أن تكون "سجّرت" بمعنى "فجّرت"، وذلك أنّ بين البحار حاجزا على ما قال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝﴾، فإذا رفع الله ذلك الحاجز فاض البعض في البعض، وصارت البحار بحرا واحدا"[2]. والمستفاد مما أورده "الفخر الرازي" من وجوه لتفسير هذه الآية هو أنّ البحار تتغيّر ولا تعود كما كانت، سواء بالجفاف التام الذي مبعثه الإحراق والتسجير، أو بسبب اتصالها ببعضها، بحيث تصبح بحرا واحدا. وأميل إلى الرأي الأول القائل بالجفاف والزوال حيث هو المنسجم مع أهوال يوم القيامة التي تستوجب زوال الدنيا وانتهاءها. ويجدر بالذكر أن المعنى نفسه ورد في الآية 3 من سورة "الانفطار": ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾، وهو "أن ينفذ بعض البحار في البعض بارتفاع الحاجز الذي جعله الله برزخا، وحينئذ يصير الكل بحرا واحدا، وإنما يرتفع ذلك الحاجز لتزلزل الأرض وتصدعها"[3]. والتفسير نفسه في "الكشاف"[4]. وأرى أنّه ربما كان التفجير عملية سابقة للتسجير، حيث من الممكن أنّ البحار ستصبح بحرا واحدا بتفجير البرزخ بينها، ثمّ تسجّر وتحرق لتجف، وهو على كلّ الأحوال أثر من آثار النفخة الأولى نسوقه في إطار هذا التناول.

- "انشقت" و"انفطرت": المسندتين إلى السماء. حيث وردت "انفطرت" في مستهل سورة "الانفطار": ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، ومنها أخذت السورة مسمّاها. أما لفظة "انشقت" فاستهلت بها سورة "الانشقاق": ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، وهي كذلك أعطت للسورة مسمّاها. واللفظتان بمعنى واحد، حيث جاء في تفسير الميزان: "الفَطْر الشق والانفطار الانشقاق"[5]. والمعنى نفسه أورده "الفخر الرازي" و"الزمخشري" في تفسيريهما[6]. ومن هنا يثار لدينا سؤال بناء على الرأي

---

(1) الرازي: "التفسير الكبير" ج 31، ص68.
(2) السابق.
(3) الرازي: "التفسير الكبير" ج 31، ص76.
(4) الخوارزمي: **الكشاف**، ج4، ص222.
(5) الطباطبائي: **تفسير الميزان**، ج 20، ص223.
(6) الرازي: "التفسير الكبير" ج 31، ص76. وكذلك في **الكشاف**: ج4،ص227.

القائل بأنه لا ترادف كاملا في اللغة العربية، إذ إنّ لكل لفظة معناها الخاص، وإن كانت تدخل تحت مظلة معنى عام واسع. وإذا كان الأمر كذلك فإنه لابد وأن يكون لـ "انفطرت" معنى خاص يميّزها قليلا من "انشقت"، وإن انتمت اللفظتان إلى المعنى العام نفسه. لكنا لم نجد من المفسّرين الذين أتيح لنا الاطلاع على تفاسيرهم – وهي الأبرز – من وقف على هذا الأمر، وذكر معنى خاصا لكل من اللفظتين يميّز إحداهما من الأخرى، فهم جميعا أوردوا اللفظتين بمعنى واحد. غير أنا وجدنا "سيد قطب" قد ألمح بطرف خفي إلى هذه المسألة، ربما لإحساس كان لديه بوجود فرق بين اللفظتين. فوجدناه يقول: "أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به، كما يصعب القول عن هيئة "الانشقاق" التي تكون..."[1]. ولعله احتمل أن السماء ستنشق على مراحل وهيئات، فمرحلة أو هيئة تناسبها لفظة "انشقت"، وأخرى تناسبها "انفطرت". وهذا يدخلنا في فقه اللغة الذي يسعى لتلمس الفروق البسيطة الخفية بين الألفاظ التي يشيع أنها مترادفة تماما. ومما يعزز احتمال وجود الفرق بين اللفظتين هو أنهما تشكلان فاصلة قرآنية متشابهة، من نوع الفاصلة المتوازية كذلك، وهذا ينفي احتمال التنويع تبعا لاختلاف الفاصلة من سورة إلى سورة.

وقد وجدت ما يعزّز الرأي الذي ذهبت إليه من أنّ الترادف المتوهَّم في القرآن هو غير موجود فعلا. فقد جاء في كتاب "الترادف في القرآن الكريم: بين النظرية والتطبيق" لمحمد نورالدين المنجد: "أنّ خلوّ القرآن الكريم من ظاهرة الترادف كان مما تحدّى الله به أرباب البيان العربي، فأعجزهم أن يأتوا بسورة من مثله تختلف ألفاظها وتتقارب بعض معانيها حتى يظن فيها الترادف، وما هي من الترادف في شيء، وإنّما لكل لفظ في نظمه المبين مقام لا يقوم به غيره"[2].

وخلاصة ما انتهى إليه "المنجد" – الذي سبقه فضل حسن عباس في ذلك – أنه لا ترادف في القرآن الكريم. وإنْ هو ساق في كتابه آراء متضاربة في هذا الشأن، منها ما أثبت الترادف وبيّن مواضعه وبماذا يتحقق، وآراء أخرى أنكرت الترادف في ألفاظ القرآن الكريم[3]. وعلى ذلك فيتعزز

---

(1) سيد قطب: **في ظلال القرآن**، مج 6، ص3846.

(2) محمد نور الدين المنجد: **الترادف في القرآن الكريم**: بين النظرية والتطبيق، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1997م، ص226.

(3) انظر: المنجد: **الترادف في القرآن الكريم**، ص109-130.

الرأي بوجود معنى خاص لكل من اللفظتين 'انشقت' و'انفطرت' وإن تُوهم فيهما الترادف، وإن هما كذلك استعملتا في التعبير عن الحدث نفسه، لكن لا يمكن لإحداهما أن تقوم مقام الأخرى وتحقق ذات المعنى الخاص الذي أراده القرآن، وأراد من خلاله أن يتحدّى أرباب اللغة في أن يأتوا بمثله من حيث تحريه للمعنى الخاص الدقيق جدا من اللفظة، وتميّزها من لفظة أخرى يُظنّ ترادفها معها، كما سبق أن ذكر 'المنجد'.

غير أنّ 'المنجد' وقد نفى وجود الترادف في ألفاظ القرآن الكريم، فإنه لم يبحث في المعاني الخاصة الدقيقة لكل لفظة من تلك الألفاظ التي ظُنّ فيها الترادف، ولا بحث في معظمها جلّ أهل التفسير ممن أتيح لي الاطلاع على تصانيفهم، نحو ما رأينا في 'انفطرت وانشقت'.

ووجدت فكرة خصوصية الألفاظ التي يتوهم فيها الترداف في بحوث الأسلوبيين، حيث يشيرون إلى أن أمام المبدع كلمات كثيرة يمكن أن يوظف منها ما يريد، في إطار ما سماه 'جاكوبسون' بعملية 'الانتقاء' وهي الأولى بين عمليتي إنتاج (النص – الرسالة)، أمّا العملية الثانية فهي 'التنسيق' الذي يقوم على مجاورة الألفاظ والعلاقات النحوية والدلالية بينها.[1] وانتقاء المبدع لكلمة ما دون غيرها يبرز إيحاء الكلمة وظلالها الخاص بها، فهناك فروق وإيحاءات تميّز هذه الكلمة من الكلمة الأخرى التي ترادفها. وهي مسألة ترتبط بالوعي لدى المبدع وقصديته حيث يختار كلماته بعناية فائقة[2]. فكيف والمبدع هنا هو المولى القدير العليم؟

ملحوظة حول ألفاظ النفخة الأولى.

يلحظ على عموم ألفاظ آثار النفخة الأولى، أنّ بعضها دلّ على عمومية ما، في حين أنّ بعضها الآخر أشار إلى تفاصيل وجزئيات ضمن تلك العمومية. فمن الألفاظ العمومية 'زلزلت، ترجف، دُكّت'، وقد دلّت على ما سوف يصيب الأرض بعمومها من حركة واضطراب وزلزال. أمّا ما يُعدّ جزئيات وتفاصيل ضمن تلك الحركة العمومية، فقد دلت عليه ألفاظ نحو 'سيّرت' المتعلقة بالجبال، و'عطّلت' المتعلقة بالعشار، و'سجّرت، وفجّرت' المتعلقتين بالبحار.

---

(1) أبو العدوس: الأسلوبية: الرؤية والتطبيق، ص133.

(2) السابق: ص 172،170.

2- ألفاظ النفخة الثانية وآثارها.

النفخة الثانية – عكس النفخة الأولى – وردت صريحة في سورة "النبأ" في الآية 18: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، فقد جاء في "التفسير الكبير" أن "هذا النفخ هو النفخة الأخيرة التي عندها يكون الحشر"[1]. غير أن النفخة الثانية وردت غير صريحة كذلك، فلم ترد تحت مسمى "نفخة" في أكثر من موضع في "جزء عمّ"، أولها في سورة "النازعات"، حيث سماها الله سبحانه "الرادفة" فقال: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ (النازعات:7). وقد نقل صاحب "التفسير الكبير" أن "الرادفة هي قيام الساعة"[2]، والمعنى نفسه أورده "الطبري" و"الزمخشري" في تفسيريهما[3].

وكذلك حملت النفخة الثانية اسم "الصاخة" التي تضمنتها الآيه 33 من سورة "عبس": ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾، فقد جاء في التفسير: "يعني صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة، قال الزجاج: أصل الصخ في اللغة الطعن والصك، يقال صخ رأسه بحجر أي شدخه...فمعنى الصاخة الصاكة بشدة صوتها للآذان"[4].

هذا ما يتعلق بالنفخة الثانية بحد ذاتها، أمّا ما يتعلق بالآثار المترتبة عليها فقد رصدنا في "جزء عمّ" كثيرا من الألفاظ المندرجة تحت هذا العنوان. واللافت أن تلك الألفاظ قد دلت كلها على موضوع البعث من القبور والتوجه إلى المحشر أثراً وحيداً للنفخة الثانية، ولكنه أثر متعدد المشاهد والتفاصيل. وتطالعنا الألفاظ ضمن المواضع القرآنية الآتية:

- ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (النبأ:19). ومعناها في تفسير الطبري: "عندما ينفخ في الصور يبعث الناس من قبورهم، ويأتون إلى أرض المحشر زمرا زمرا وجماعة جماعة"[5].

---

(1) الرازي: "التفسير الكبير"، ج 31، ص10.

(2) السابق: ص33.

(3) الطبري، ج 7، 53. والزمخشري: الكشاف، ج4، ص212.

(4) الرازي: "التفسير الكبير"، ج 31، ص63.

(5) الطبري، مج7، ص516.

- ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝﴾ (النازعات:13-14). وهي إشارة إلى المشهد السابق عينه، ولكن بأسلوب آخر. ومعنى "فإنما هي زجرة واحدة" أي: "إنما هي صيحة واحدة، حيث ينفخ في الصور نفخة البعث الثانية"[1]. والساهرة بمعنى: ظهر الأرض[2]. وزاد "الزمخشري": "هي الأرض البيضاء المستوية، وسميت بذلك لأن السراب يجري فيها، من قولهم: عين ساهرة جارية الماء"[3].
- ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ (الانفطار:4). عبّرت ألفاظها عن الخروج من القبور بشكل صريح.
- ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾(الانشقاق:4). الحديث في الآية عن الأرض، ومعناها "ألقت الأرض ما في بطنها من الموتى إلى ظهرها، وتخلّت منهم إلى الله"[4].
- ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ (الطارق:8). إشارة إلى معنى البعث.
- ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(الزلزلة:2). اي "أخرجت الأرض الأموات الذين في بطنها أحياء"[5]. وفي الكشاف هي الدفائن كلها بما فيها الأموات[6].
- ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ (العاديات:9). وهنا نلحظ المعنى نفسه. ويلحظ أن الفعل "بُعثر" تعلق بما في القبور في هذه الآية، في حين تعلق بالقبور نفسها في آية: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ الآنفة الذكر، وأرى أنّ هذا ينطوي على معنى خاص، وإلاّ لقالت الآية: أفلا يعلم إذا بعثرت القبور، لو كان المعنى المراد هو نفسه في كلتا الآيتين. وربما أريد من "بعثر ما في القبور" أي تبعثر ما فيها من الناس عند خروجهم منها إلى المحشر، وهو ما أشارت إليه الآية 4 من سورة "القارعة": ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾، في حين أريد من "القبور بعثرت" أي بُعثر ترابها. ولكن مما لاشك فيه أن الآية أياً كان معناها فهي مرتبطة بالبعث، وهو ما يهمنا في هذا المجال.

---

(1) الطبري، مج7، ص533.
(2) السابق.
(3) الزمخشري: الكشاف، ج4،ص213.
(4) الطبري، مج7 ص580.
(5) السابق: ص676.
(6) الكشاف: ج4، ص276.

ملحوظات على ألفاظ النفخة الثانية وآثارها:

يلحظ أنّ القرآن الكريم عبّر عن بعث الموتى وهو الأثر المترتب على النفخة الثانية بصور شتّى متنوعة، وبكثرة لافتة في جزء واحد، وهذا التركيز على موضوع واحد وبصور شتّى هو من خصائص السور المكية بشكل عام، وجزء عمّ المكيّ المبكّر بشكل خاص، ذلك أنّ السواد الأعظم من الناس وقت نزول هذه السور كانوا ينكرون البعث. وكذلك فإنّ الإنسان في أول تواصله مع القرآن طفلاً بقراءته لقصار سوره، تكون قضية البعث غير حاضرة في ذهنه، أو غير مستقرة بالمستوى المنشود، لذا نجد أنّ القرآن يكرّر ذكر ذلك اليوم والإشارة إليه بأساليب متنوعة، وبمواضع كثيرة، فهو تارة يشير إلى البعث بوصفه أفواجا، وكأنّ القرآن الكريم يريد أن يبيّن عظمة ذلك اليوم وهيمنته واحتفائيته – إن جاز التعبير – حيث الناس يتوافدون إليه أفواجا أفواجا مسرعين، كما جاء في الآية 19 من سورة النبأ المذكورة. وهو ما عبّرت عنه آية أخرى وبتصوير دقيق حيث قالت: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ (المعارج: 43).

وتارة نجد القرآن يركز على سرعة انتقال الموتى المبعوثين من القبور إلى الأرض: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾. ولا يخفى دور الفاء المقترنة بـ إذا في الدلالة على السرعة وتحقق الأمر بدون تأخير، ويؤكد صاحب تفسير التحرير والتنوير هذا المعنى فيقول: وإذا للمفاجأة أي الحصول دون تأخير[1].

وتارة ثالثة، نجد القرآن يلقي الضوء على حال الأرض عند البعث، إذ كانت تحمل عبئا كبيرا بحملها لأجساد الموتى المثقلين بكثير من الذنوب التي أسخطت الرب تعالى عليهم، وتنتظر الإذن بإلقائهم والتخلّي عنهم بفارغ الصبر، وهي التي ما تركت عليها من دابة لو أذن الله لها بذلك، كما صرح القرآن بذلك في موضع آخر. فنجد القرآن في جزء عمّ يصرح بهذا المعنى في الآية 5 من سورة الانشقاق الواردة سابقا: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾، وهي إشارة جد بديعة ودقيقة إلى كثرة معاصي الناس ومخالفتهم لخالقهم، فهم وجود لا يطاق، حتى الأرض الواسعة الجامدة لا تطيقهم، مع أنهم لم يقترفوا بحقها تلك الفظائع بل اقترفوها بحق ربهم، ومع ذلك كان بهم حليما. والمعنى نفسه قدمته الآية: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ في سورة الزلزلة. ويُلحظ أنّ لفظة أخرجت جاءت

---

(1) محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، ج30، ص72.

أخف من لفظة "ألقت" من حيث المعنى، إذ إن "ألقت" تتضمن معنى الضيق والثقل والرغبة في التخلص، بعكس "أخرجت" التي لا تحمل هذا المعنى بحد ذاتها. ونرى أنّ ما عوّض عن هذا التخفيف في "أخرجت" هو لفظة "أثقالها" التي أعطت المعنى المراد نفسه الذي أعطته "ألقت"، في حين لم ترد لفظة "أثقال" مع الفعل "ألقت"، بل تعلق بها الاسم الموصول "ما"، لأنّ ألقت كما ذكرت تحمل المعنى المراد بدون الحاجة إلى ذكر الأثقال. وعلى ذلك فقد جاءت الآيتان متوازنتين، إحداهما أصابت المعنى المراد بوساطة الفعل "ألقت"، والأخرى أصابت المعنى بوساطة الاسم "أثقال"، وهذا – فيما أرى -من بديع النظم القرآني ودقته.

ومن ملحوظاتنا على آيات البعث في "جزء عمّ" أنها ركزت أحيانا على قدرة الله على البعث، لا على البعث نفسه، كما رأينا في الآية 8 من سورة "الطارق".

والخلاصة هي أنّ الألفاظ التي أشارت إلى البعث في "جزء عمّ" قد رسمت صورا ودلالات متنوعة عن ذلك اليوم المحتوم، حيث اختصت كل صورة بطرف من الأطراف التي لها دور في ذلك اليوم. فمن تبعثر القبور إيذانا بخروج الناس منها ورغبتها في التخلص منهم، ثم توافدهم من القبور على شكل جماعات كثيرة متفرقة، وتأكيد قدرة الله على ذلك، كل هذه التفاصيل توزعت على آيات متفرقة متنوعة مبثوثة في سبعة مواضع من الجزء، وبإيقاعات مختلفة، حققتها فواصل متباينة، وصور مختلفة، ولكنها كلها خدمت الموضوع الرئيس نفسه، وهو البعث من القبور، وجلّت تفاصيله بالطريقة التي توضحت، إمعانا في زيادة التأثير وإثارة التأمل والتفكر في ذلك الأمر المحتوم. وهذه العملية من توزيع الألفاظ واختيارها بهذا الشكل الدقيق لخدمة النسيج العام، ولتقديم دلالة متكاملة على نحو ما أشار إليه "جاكوبسون" وأسماه "الاختيار والتوزيع" كما مرّ بنا في التوطئة لهذا المستوى، وكما سنجده.

والطريقة في التحليل التي تعاملت بها مع ألفاظ البعث، والتي سأتعامل بها مع ألفاظ المجالات الدلالية اللاحقة بكل تفريعاتها، هي محاولة لبيان رسالة هدف إليها المرسل وهو المولى عز وجلّ، فقد حللت الألفاظ إلى معانٍ، وسعيت إلى تحديد الهدف الرئيس من بنائها وفق الشكل الذي رأينا من توزيعها وبثها في مواضع متفرقة. وقد اعتمدت في محاولتي لبيان تلك الرسالة القائمة على آلية التوزيع الدقيقة على اللغة، حيث هي النظام المشترك بين المرسل والمتلقي وهي وسيلة الاتصال. وهذه العملية من التواصل وبيان المعاني المنشودة هي نفسها التي نجد صداها عند "جاكبسون" في

معرض توضيحه لعملية التواصل[1]. ويبدو لي أن "جاكبسون" لو أقام نظريته بالاستناد إلى إيمان بنظم إلهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لوجدناه أكثر ثقة بما يقول، وأكثر دقة، حيث سيكون أمام نظم دقيق هو فوق كلام البشر الذي يعتوره النقص والخلل مهما علا.

3- ألفاظ الحشر والحساب

هنالك مجموعة من الآيات في "جزء عم" ارتبطت بهذا الموضوع وتضمنت ألفاظاً فيها إشارات تفاوتت من حيث تصويرها لذلك المشهد العظيم. ويمكن قسمتها، كما يمكن ترتيبها، بحسب ورودها في الجزء على النحو الآتي:

ألفاظ اصطفاف الملائكة: وتناولته مجموعة آيات في الجزء هي الآتي:

- ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبأ:38). وقد اختلف في تفسير الروح في هذه الآية: فمن قائل هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً، ومن قائل هو "جبريل" عليه السلام، وقائل ثالث أورد أن الروح هو خلق من خلق الله في صورة بني آدم، أو هو بنو آدم أنفسهم، أو أرواحهم، أو هو القرآن[2]. وأورد صاحب تفسير "الميزان" أن الروح هو المخلوق الأمري في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ (الإسراء: 85)[3]. وعلى كل فإن الآية تتضمن معنى اصطفاف الملائكة والروح سواء أكانوا شيئا واحدا أم شيئين مختلفين. وقد استفاد "الطباطبائي" في "الميزان" من مقابلة الروح للملائكة في هذه الآية أن الروح وحده صف، والملائكة جميعاً صف[4].
- ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر:22). وهذه الآية تقدم المشهد نفسه الذي قدمته الآية السابقة من سورة "النبأ". والمقصود بمجيء الرب هنا هو مجيء أمره، ذلك إن " نسبة المجيء

---

(1) فاطمة الطبال بركة: **النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،1993م،ص68 ومابعدها.

(2) انظر: الطبري، مج7، ص525.

(3) الطباطبائي: **تفسير الميزان**، ج 20، ص171، وانظر نفس المصدر ص173، حيث يورد تفصيلا عن الروح في القرآن. وانظر كذلك الرازي: "التفسير الكبير"، ج31، ص173.

(4) الطباطبائي: **تفسير الميزان**، ج 20، ص172.

إليه تعالى من المتشابه الذي يحكمه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾.[1] ويلحظ أن الآية أشارت إلى الملائكة بلفظة "المَلَك" باختلاف عن الآية السابقة في سورة "النبأ" التي عبرت عنه بالملائكة. ووجدنا بعد تتبعنا لاستعمالات لفظة "مَلَك" في القرآن أنها استعملت تسع مرات معبرة عن مفرد الملائكة أي الواحد منهم[2]، فهو ملك واحد، وهم ملائكة للجمع، إلا في موضعين، والآية التي نحن بصددها بسورة "الفجر" هي أحدهما. والموضع الآخر هو الآية 17 من سورة الحاقة: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾، حيث عبر بلفظة "المَلَك" هنا عن مجموع الملائكة، وقد ذكر"الفخر الرازي" في تفسيره أن المـراد مـن: "...والملك صفاً صفا " أي: "تنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والأنس"[3]. والملك هنا اسم جنس وتعريفه تعريف الجنس فيرادفه الاستغراق، أي والملائكة[4]. ونرى أنه ربما استعملت كلمة "الملك" بدل الملائكة في هذا الموضع دلالة على أن الملائكة، بالرغم من تفرقهم في صفوف متباينة، إلا أنهم في طاعتهم لله كأنهم ملك واحد.

ونلحظ كذلك أن الروح لم يذكر في هذه الآية كما ذكر متقدماً على الملائكة في الآية 38 من سورة "النبأ" آنفة الذكر، ولعلّ في هذا تأييداً للقول الذاهب إلى أن الروح هو من جنس الملائكة سواء أكان "جبريل" أم ملكا آخر اسمه الروح، ذلك أنه لو كان من غير جنسهم لذكر في هذه الآية منفصلاً، وإنما ذكر منفصلاً في سورة "النبأ" ومتقدماً مع كونه من جنسهم تكريماً له، من باب ذكر الخاص قبل العام وهو من أساليب البلاغة العربية.

ثم إن هنالك ملحظاً ثالثاً وهو أن كلمة "صفاً" قد تكررت مرتين في هذه الآية بخلاف الآية في سورة "النبأ"، فلم تتكرر فيها اللفظة. وقد جاء في تفسير "التحرير والتنوير" أن "صفاً" الأولى حال من "الملك"، وأما "صفاً" الثانية فقد علق حولها قائلاً:"أن المفسرين لم يختلفوا في أنه من التكرير المراد به الترتيب والتصنيف؛ أي صفا بعد صف، أو خلف صف، أو صنف من الملائكة دون صنف، قيل:

---

(1) الطباطبائي: تفسير الميزان، ج20، ص284. ص284.. وانظر كذلك الرازي: "التفسير الكبير"، ج31، ص173.

(2) هي الآيات الآتية: 8 الأنعام، 5 الأنعام، 12 هود، 31 هود، 31 يوسف، 7 الفرقان، 11 السجدة، 26 النجم، 9 الأنعام، 95 الإسراء.

(3) الرازي: "التفسير الكبير"، ج 31، ص174.

(4) ابن عاشور: "التحرير والتنوير"، مج 15، ص338.

ملائكة كل سماء يكونون صفاً حول الأرض على حدة"[1]. وحسب هذا الرأي أو هذا الإجماع من المفسرين، فتكون "صفاً" التي في سورة "النبأ" حالاً من الملائكة والروح، ولا وجود لـ "صفاً" أخرى تفيد الترتيب والتصنيف. والحال أن الملائكة مصطفون صفوفاً إثر صفوف بحسب أنواعهم أو أماكنهم أو أعمالهم، وهذه من الدقة القرآنية التي تتمثل في وجود آيتين متشابهتين في الإطار العام للمعنى، إلا أن زيادة لفظية في إحداهما أضافت أبعادا جديدة للمعنى تفتح آفاقاً واسعة. وإضافة إلى ذلك فقد ناسبت هذه الزيادة في آية سورة "الفجر" الفاصلة القرآنية قبلها، وهي "دكّا" على وزن "فعْلا"، لتحقق إيقاعا مؤثراً متناغماً، فضلاً على ما حققته من معنى أرحب وأوسع.

ألفاظ إبراز الجحيم، وعرضها، والمرور عليها:

وقد أشارت إلى هذه المعاني أو إلى واحد منها مجموعة من الآيات في "جزء عمّ" هي الآتي:

- ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادًا﴾ (النبأ:21). وفسّرها "الطبري" بقوله: "إنّ جهنم كانت ذات رصَد لأهلها الذين كانوا في الدنيا يكذّبون بها، ترصدهم وترقب من يجتازها منهم"[2]، فهي "كالمنتظرة لقدومهم من قديم الزمان، وكالمستدعية والطالبة لهم"[3]. أو أن المرصاد هو اسم مكان الرصد، وعليه فإن ملائكة العذاب هي التي ترصد لا جهنم نفسها، أو هو بمعنى كثير الرصد، فيكون صيغة مبالغة. ومعنى أن تكون جهنم مرصادا؛ فهي ترصد أعداء الله وتشق عليهم[4]. ونرى أن الكلمة تحتمل كل هذه المعاني، وهو أسلوب قرآني سبق وأشرنا إليه، يقتضي احتمال اللفظة الواحدة كثيرا من المعاني المنتمية إلى إطار واحد، بدون تعارض مخل أو ناقض.
- ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ (النازعات:36). فسّر صاحب تفسير "الميزان" التبريز بالإظهار، ونوّه إلى أن مفعول الفعل "يرى" في الآية معرَض عنه، وقال أن المراد بـ "من يرى": من له بصر يرى به. وعليه فإن معنى الآية العام يكون: أن الجحيم أظهرت بكشف الغطاء عنها لكل ذي

---

(1) ابن عاشور: "التحرير والتنوير" مج 15، ص337.

(2) الطبري: مج7، ص517.

(3) الرازي: "التفسير الكبير" ج31، ص12.

(4) السابق.

بصر، فيشاهدونها مشاهدة عيان[1]. ثم إنه – أي صاحب الميزان – التفت التفاتة جميلة، وهي: أن الجحيم مخلوقة قبل يوم القيامة، وإنما تظهر يومئذ ظهورا بكشف الغطاء عنها[2]. وأقول: إنّ هذا المعنى أكدّ عليه الفعل الناسخ بصيغة الماضي 'كانت' في الآية السابقة من سورة 'النبأ': ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، فهي معدة وكائنة منذ زمن بعيد، فالآيتان متناغمتان تماما في هذا المعنى.

- ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾(الفجر:23). والآية كما هو ملحوظ تعبر عن معنى الإبراز والعرض تعبيرا واضحا، حيث نقل 'الطبري' في تفسيره عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: 'يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها'[3]. غير أن صاحب الميزان لم يستبعد أن يكون المراد بالمجيء بجهنم في هذه الآية أي إبرازها لهم، مستدلا بالآية: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾[4]. ويبدو لي أن فعل المجيء يقتضي الإبراز، ولكن لا يعنيه مطابقةً، بل إن الحديث الشريف الذي ساقه 'الطبري' يؤكد أن جهنم مخلوق يؤتى به ويساق من قبل الملائكة يوم القيامة، وهذا لا يتعارض مع عقيدة المؤمن بأن النار حق، فهي حق سواء أكانت تسحب أم هي ثابتة في مكانها.

وليست مقارنة 'المجيء بجهنم' في هذه الآية، بلفظة 'برزت' في الآية السابقة مسوّغا لنفي إمكانية أن جهنم مخلوق يُسحب وينقل من مكان إلى آخر، بل ربما 'برزت' تؤكد هذا المعنى، حيث إن الفعل 'برز' يعني أنّه كان مختفيا بسبب البعد ثم اقترب فبرز، وهو يستدعي انتقالا من مكان إلى مكان، ومنه قولنا: برز للعيان. أي كان بعيدا بحيث لا يرى ثم اقترب وأمكنت رؤيته. وفي 'تاج العروس': 'برز إليه في الحرب وهما يتبارزان'، سمي بذلك لأن كليهما يخرجان إلى براز من الأرض'[5]. وهذا يتضمّن معنى الانتقال. وأصل وضع الفعل 'برز': 'برز رجل يبرز

---

(1) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص191.

(2) السابق: ص191.

(3) الطبري: مج7، ص628، والحديث أخرجه الإمام مسلم برقم 2482، والترمذي برقم 2573، والحاكم برقم 4/ 596.

(4) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص284.

(5) الزبيدي: تاج العروس، مج4، ص5، مادة 'برز'.

بروزا: خرج إلى البراز للحاجة. وفي التكملة: للغائط أي الفضاء[1]. وهذا يقتضي أيضا معنى الانتقال من مكان إلى مكان. وعليه فليس من المنطق أن نلوي عنق المعنى في 'جيء بجهنم' لنجعله يساوي 'يكشف عنها' معتمدين على 'بُرّزت الجحيم'، في حين أن 'برزت' تقتضي أنه قد جيء بها فعلا، ونقلت من مكان إلى مكان.

- ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ (التكاثر:7). وهي آخر ما تضمنه 'جزء عم' من آيات تتناول مشهد عرض جهنمّ وإبرازها. والضمير 'الهاء' في 'لترونها' عائد إلى الجحيم المصرح بها في الآية السابقة لهذه الآية في السورة: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾. جاء في تفسير الآية التي نحن بصددها: إن اليقين هاهنا هو الموت والبعث والقيامة[2]. ونفى 'الفخر الرازي' أن تكون رؤية الجحيم في الآية 6 معناها الرؤية القلبية الحاصلة بسبب اليقين الكثير لدى المؤمن المتقي المرتقي بالدرجات، محتجاً بأن ترك الظاهر هو خلاف الأصل[3]. وساق لمعنى الرؤيتين أقوالا كثيرة[4]، ويبدو أن 'الفخر الرازي' لم يكن مقنعا حين ردّ معنى الرؤية القلبية، بحجة أن ترك الظاهر هو خلاف الأصل، حيث إن الظاهر لديه هو الرؤية العينية، ولا يجوز أن تُؤوّل إلى الرؤية القلبية، والحال أن القرآن نفسه أشار إلى نوعي الرؤية لدى الإنسان؛ العينية والقلبية، فالرؤية العينية أشارت آيات كثيرة إليها، منها على سبيل المثال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾(الأنعام:77). وكذلك: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾(هود:70). أمّا الرؤية القلبية فنلحظها في الآيـــة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾(الأنعام:46). ومعنى 'أرأيتم' هنا أي تخيلتم وافترضتم. وليس هو المعنى العيني، لسبب بسيط هو أن المطروح في الآية هو فرض لم يقع، ولا يمكن رؤية الفرض رؤية عينية.

---

(1) الزبيدي: تاج العروس، مادة (برز).

(2) الرازي: 'التفسير الكبير'، مج32، ص79.

(3) السابق: ص78.

(4) السابق: ص79.

وفي الآية 13 من آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾، فإضافة "العين" إلى "رأي" بمعنى الرؤية، هو تخصيص وتحديد لنوع الرؤية بأنها رؤية عين، وهذا يستدعي أنّ هنالك نوعا آخر من الرؤية هو رؤية القلب أو الخيال، وإلا لما كان لهذا التخصيص من فائدة ولكان حشوا، والقرآن منزّه عن الحشو. ثمّ إنّ الآيات نفسها في سورة "التكاثر" تؤيد ما نذهب إليه، بالحجة نفسها، وهي أن التخصيص يستدعي التنوع، فالآية: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾، خصّصت الرؤية بأنها رؤية عين، وهذا يقتضي أن الرؤية التي قبلها في آية: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾، هي رؤية قلبية يحققها اليقين الصادق عند من ارتقت لديه درجات الإيمان.

ويجدر أن نذكر أن الآية تشير إلى أول عرض جهنم على الناس، وليس عند دخولها أو المرور فوقها، كما قد يظن بعض الناس، حيث إن المرور والدخول يقتضيان الرؤية بالضرورة، وهذا صحيح، ولكن ما يؤكد أن الآية مختصة بأول الظهور والإبراز، هي الآية التي تليها: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، إذ هي إشارة إلى الحساب، والحساب كما هو معلوم لا يكون بعد الدخول أو المرور، بل يكون قبلهما. ولهذا المعنى التفت "الفخر الرازي" حين ردّ على من قال أن الرؤية الأولى هي عند الورود، والرؤية الثانية عند الدخول. فقال: "وهذا التفسير ليس بحسن لأنه قال لتسألن والسؤال يكون قبل الدخول"[1].

---

(1) الرازي: "التفسير الكبير"، مج32، ص80.

ملحوظة على آيات إبراز الجحيم

نلحظ أن الآيات وإن انتمت إلى إطار واحد، وعبرت عن فكرة واحدة، إلا أنها تفاوتت في أسلوب التعبير، فتارة يكون المراد هو تبيان استعداد وتهيؤ جهنم لاستقبال أهلها، فيأتي القرآن ليقول: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾. وتارة يكون المراد هو تصوير مشهد ظهور النار وإبرازها للناس جميعا، فتعلن ذلك الآية: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾. وثالثا يكون الغرض هو تعريف الناس أن جهنم ليست شيئا ثابتا، بل إنها مخلوق يمكن نقله من مكان إلى مكان، وما يبعده ويقربه من الناس هو أعمالهم ومكتسباتهم، صالحة هي أو سيئة. فتأتي الآية 23 من سورة"الفجر" لتعبر عن هذا المضمون: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، أي يتذكر كل أعماله التي جعلت النار تقترب منه وتفترسه، وكان بإمكانه أن يبقيها بعيدة. فالآية إذاً كشفت، وإنْ كشفاً غير مباشر، عن أثر عمل الإنسان وكدحه في تقرير مصيره الأبدي.

وأحيانا يكون المراد من ذكر رؤية النار وعرضها للناس، هو إثبات أثر اليقين في حياة الإنسان، وذلك أن الإنسان ذا اليقين العالي، والسائر في طريق التقوى والاستقامة، يمكنه أن يرى النار رؤية يقينية قلبية، وتكون مثل هذه الرؤية مانعا له من ارتكاب المعاصي التي تستوجب دخول النار، ثم إنه سوف يرى النار الرؤية اليقينية العينية، وعندها سيدرك كم أن يقينه كان في محله، وكم أنّ رؤيته الأولى خففت عنه أهوال الرؤية الثانية. بعكس الإنسان المنحرف تمام الانحراف عن طريق الله سبحانه، فهو منعدم اليقين وغافل عن مصيره وآخرته، وهذا سيكون وبالا وحسرات عليه عندما تعرض له النار ويراها عين اليقين، وهذا ما عبرت عنه آيتا سورة "التكاثر".

إذن فمجموع آيات "جزء عمّ" التي تتناول مشهد عرض جهنم، تقدم صورة متكاملة لهذا المشهد، وإنْ هي توزعت على مختلف سور الجزء، حيث أسهمت كل آية من تلك الآيات بالتركيز على جزئية مهمة في ذلك المشهد يخدم ذلك التكامل ويحقق الأثر المنشود في نفوس قارئي القرآن وسامعيه، من حيث هو كتاب إنذار ووعيد في جانب كبير من جوانبه. والمشهد المتكامل الذي قدمته آيات عرض النار في "جزء عمّ"، ينص على أن جهنم المتهيئة لاستقبال مستحقيها من الجن والإنس، تساق إلى ساحة المحشر فيراها كل الناس رؤية عينية يقينية، وهي تُسعّر وتشتد حرارتها، إيذانا باقتراب دخول العصاة إليها، فيفرح أهل اليقين، ويتحسّر أهل الغفلة.

ونلحظ من خلال رصد هذا المشهد المتكامل الذي عبرت عنه آيات متفرقة في "جزء عمّ" أسلوب القرآن المعتاد الذي يقوم على توزيع المشهد الواحد أو القصة الواحدة، أو الفكرة الواحدة على مجموعة من الآيات المتفرقة، حيث تنفرد كل واحدة منها بخصوصية إضاءة جانب معين من ذلك المشهد العام أو الفكرة العامة.

3- ألفاظ الخوف والحسرة والذلة:

وتعبّر عن هذه المشاعر كذلك مجموعة من الألفاظ تضمنتها طائفة الآيات الآتية في "جزء عمّ":

- ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ (النبأ:40). أي: "يوم ينظر المرء ما قدمت يداه من خير اكتسبه في الدنيا فيرجو ثوابه في الآخرة، أو شرّعمله فيخاف عقابه في ذلك اليوم،... ولما يلقى الكافر عذاب الله في جهنم، يتمنى أن يكون ترابا، كالبهائم التي جعلت ترابا"[1].
- ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾(النازعات:8-9). معنى "واجفة": "خائفة وجفت مما عاينت يومئذ"[2]. ومعنى: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ أي: أبصار أصحاب تلك القلوب الخائفة ذليلة مما علاها من كآبة وحزن، بسبب الخوف الذي نزل بهم"[3].
- ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ (عبس:33-36). في هذه الآية إشارة واضحة إلى حال الرعب التي تصيب الناس، وهروبهم من أية تبعات قد تلحق بهم من أقرب الناس إليهم. ثمّ في السورة نفسها نلحظ آيتين واضحتين في الدلالة على الذلة والحسرة والخوف، وهما الآيتان 40و41: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾، وتأتي بعدهما مباشرة الآية الأخيرة من السورة،

---

(1) الطبري: مج7، ص526.

(2) السابق: ص531.

(3) السابق: ص531.

مبينةً أصحاب تلك الوجوه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ (عبس:42). ونلحظ أن الآيتين تضمنتا وصفين للوجوه: أحدهما مادي، ورد في الآية الأولى، حيث تعلو هذه الوجوه الغبرة المادية المعروفة، كناية عن الذلة والمهانة. والوصف الآخر معنوي، تأكيد للأول تحمله الآية الثانية: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، والقترة فسّرت بأنها الذلة[1]، وترهقها: تغلب عليها وتعلوها[2].

فتعلو وجوههم الذلة المعنوية، التي تتزامن مع وجود الذلة المادية، وهي الغبرة. ثمّ جاءت الآية الأخيرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾، ويبدو لي أنها جاءت مبينة لأصحاب تلك الوجوه الذليلة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى معللةً لوجود نوعي الذلة المادية والمعنوية على وجوه أولئك الكفار، وذلك أنهم أصحاب كفر معنوي عقائدي في قلوبهم، وفجور مادي ظهر من جوارحهم، وتمثّل على أرض الواقع، بشرب الخمر والزنا، وغيرها من أنواع الفجور. لأن الفجور معناه: المجاهرة بالإثم بين الناس، وهذا المعنى التفت إليه صاحب "التحرير والتنوير"، لكن بدون أن يربط بين نوعي الذلة معنوية ومادية، ونوعي الكسب من كفر وفجور، فقال إنه ذكر وصفيهم الدالين على مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل[3]. والمعنى نفسه التفت إليه صاحب تفسير "الميزان" كذلك[4]. والأخير له التفاتة جميلة في هذا الصدد، فبعد أن فسر الآيتين بشبيه ما ذكرنا، ذكر أنّ بيان الحال كان متجها إلى الوجوه، ذلك أنّ الوجه هو مرآة القلب في سروره ومساءته[5].

- ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ (الانشقاق:11). وفيها إشارة إلى من أوتي كتابه وراء ظهره، أي صاحب المصير السيء. ومعنى "يدعو ثبوراً": أي ينادي الثبور بأن يقول: يا ثبوري أو يا ثبورا، كما يقال: يا ويلي ويا ويلتنا، والثبور: الهلاك وسوء الحال وهي كلمة يقولها من وقع في شقاء وتعس"[6]. ونلحظ أن المشهد هنا بصري وصوتي معا؛ للتأكيد على أحوال الحسرة

---

(1) الطبري، مج7، ص551.

(2) ابن عاشور: "التحرير والتنوير" مج15، ص138.

(3) السابق.

(4) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص210-211.

(5) السابق: ص210.

(6) ابن عاشور: "التحرير والتنوير" مج15، ص224.

والخوف والذلة. ويشابه هذا المشهد في كونه بصريا وصوتيا معا، المشهد الذي تقدمه الآية 24 من سورة الفجر: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾، وفسرها الطبري بقوله: يتلهف ويندم يوم القيامة على تفريطه في الأعمال الصالحة في الدنيا[1].

ملحوظات حول آيات الخوف والحسرة

بالتأمل في الآيات التي تناولت مشاعر الخوف والحسرة وألفاظها، نجد أن الآيات بمجموعها قدمت مشهدا متكاملا عاما لهذه المشاعر في الحشر، ولكن بتفاوت بينها في الأسلوب، وبتفرد كل منها بخصوصية في التعبير عن ذلك الموضوع، ففي الوقت الذي نجد فيه آية ركزت على القلوب الخائفة: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾، ركزت آية أخرى على الوجوه الذليلة ماديا: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾. وآية ثالثة ركزت على الوجوه الذليلة معنويا: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾. وآيات أخر ركزت على الفزع الصوتي والحسرة الكلامية: ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ و﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾و﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾. وهذا التوزيع لجزيئات المشهد وبثها على مختلف سور الجزء، هو تأكيد لما ذكرناه آنفاً، من أنّ الأسلوب القرآني قائم على تجزئة المشهد العام، وتوزيع تفاصيله على السور المختلفة، وكأنها قطع متفرقة، يتم تجميعها في لوحة واحدة كي يتضح المشهد بشكل جليّ، غير أنّ توزيع الجزيئات هكذا مبثوثة متفرقة لا يخلّ أبدا بالمشهد العام، بل يثريه ويجعله مؤثرا أكثر، ويجعله حاضرا دائما في مختلف المواضع القرآنية، من خلال جزيئاته التي تتناسب مع مواضعها، وورودها في ثنايا السور القرآنية، سواء أكان تناسبا موضوعيا، أم تناسبا صوتيا إيقاعيا، أو كليهما في كثير من الأحيان.

4- نشر الصحف وتذكّر الإنسان لأعماله الدنيوية:

أشارت إلى هذا المعنى آيات عدة في جزء عمّ. هي:

- ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ (النبأ:40). والجزء الذي يهمنا هو: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾. وسبق

---

[1] الطبري: مج7، ص628.

وأوردنا تفسيره نقلا عن "الطبري"[1]. والآية تدل بشكل جليّ على نشر الصحف، ومعاينة الإنسان لعمله، خيرا كان أم شرا، وتذكّره له.

- ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ (النازعات:35). فسرها "الفخر الرازي" بقوله: "إذا رأى أعماله مدونة في كتابه تذكرها وكان قد نسيها، كقوله: أحصاه الله ونسوه"[2]. وهي واضحة الدلالة على معنى نشر الصحف وتذكر الأعمال.

- ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير:14). والمراد بـ "ما أحضرت" أي عملها الذي عملته[3]. وذهب صاحب "التفسير الكبير" إلى أنّ المراد به أي ما أحضرته في صحائفها، وما أحضرته عند المحاسبة وعند الميزان من آثار تلك الأعمال[4]. ونراه قد توسّع في إيراد دلالات "ما أحضرت" وساعده على ذلك إطلاق الفعل وعدم تقييده بأي مفعول. ولكن ما يهمنا هو أنّ بين ثنايا تفسيره ما يشير إلى المطلب الذي نبغيه، وهو تذكّر العمل إثر نشر الصحف.

- ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾(الانفطار:5). وهنا حلّ فعلان في هذه الآية "قدمت، أخرت" محلّ الفعل "أحضرت" في الآية السابقة. وقد أسهب صاحب "التفسير الكبير" في بيان معنى ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، فأورد وجوها عدة، أصحها – على حد قوله –: أي يعلم كل أحد في هذا اليوم ماقدم، فلم يقصر فيه، وما أخر فقصر فيه. وفي وجه ثان احتمل أن يكون المعنى هو: أي ما قدمت من عمل أدخله في الوجود، وما أخرت من سنة يستن بها من بعده من خير أو شر. ونقل الفخر عن أبي مسلم: أي ما قدمت من الأعمال في أول عمرها، وما أخرت في آخر عمرها[5]. والوجوه كلها وإن تعددت في تفسير: ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ تركز على أعمال الإنسان التي سوف يتذكرها يوم القيامة بعد أن يلقاها منشورة في الصحائف أمامه.

---

(1) الطبري: مج7، ص527.

(2) الرازي: *التفسير الكبير*، ج31، ص25-26.

(3) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص215.

(4) الرازي: *التفسير الكبير*، ج31،ص70.

(5) السابق: ص77.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ (الانشقاق:6). وجدت أنّ من معاني الملاقاة في هذه الآيـة: "ملاقاة الكتاب الذي فيه بيـان تلـك الأعمـال. ويتأكـد هـذا التأويـل بقوله بعد هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾."[1] وبحسب هذا المعنى فإنّ الآيـة تنتمي إلى الموضوع الذي نحن بصدده. ثم إن الآيات التي تتلو هـذه الآيـة مباشـرة تـشير إلى المعنى نفسه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝﴾، ويهمنا منها لفظة "كتابه" المتكررة مرتين، حيـث دلـت في الأولى علـى كتـاب المـؤمن الـذي يؤتـاه بيمينـه، والثانية دلت على كتاب الكافر الذي يؤتاه وراء ظهره. وقد نقل "الفخر الرازي" وجوها كثيرة لتفسير "وراء ظهره"، منها: أنّ يده اليسرى خلف ظهره، ويمينه مغلولة إلى عنقه. ومنها: أنهـا – أي يده اليسرى – تخلع فتجعـل مـن وراء ظهـره أو يتحـول وجهـه في قفـاه[2]. وعلـى كـل الأحوال، فالآيات واضحة الدلالة على موضوع نشر الصحف.
- ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾(الفجر:23). فُسّرت هذه الآية: أنه في يوم القيامة والحشر يتذكر الإنسان تفريطه وتقصيره في طاعة الله لّما كـان في الدنيا، ولكن هذه الذكرى لن تنفعه[3]. والآية أشارت إلى التذكر بـدون ذكـر لنـشر صـحف الأعمال. والحال أنّ تذكر الإنسان لعمله إنما هو مبني على ما ينشر أمامه من صحائف عملـه الذي نسي معظمه من هول ما مرّ به، فيجد تلك الصحائف مطابقـة تمامـا لمـا فعلـه في دنيـاه فيتذكرها عملا عملا. فالتذكر إذا مبني على نشر الصحف، وهو نتيجة له.
- ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ (الزلزلة:6). وهي آخر الآيات التي تشير إلى معنى نشر الكتب وتذكر الأعمال. وفسّر "الطبري" "أعمالهم" في هذه الآية بقولـه: "يـرى المحسن في الدنيا ثواب إحسانه في الجنة، ويرى المسيء جزاء إساءته في نار جهـنّم"[4]. لكـنْ صـاحب "التفسير الكبير" رجّح أن "أعمالهم" في الآية يقصد بها أعمالهم المكتوبة في الصحائف[5]، ولـيس

---

(1) الرازي: "التفسير الكبير"ج31، ص105.
(2) السابق.
(3) الطبري: مج7، ص628.
(4) السابق: ص677.
(5) الرازي: "التفسير الكبير" ج32، ص30.

جزاء الأعمال كما قال "الطبري". أمّا "الفخر الرازي" فلم يقطع بذلك، بل احتمل ما قال الطبري أيضا. وإذا أخذنا بترجيح الرازي، فإن الآية ستنتمي إلى موضوع نشر الصحف.

ملحوظات حول آيات نشر الصحف

بالتأمل في مجموعة الآيات الدالة على مشهد نشر الصحف وتذكر الأعمال، وما تضمنته من ألفاظ، نلاحظ أن الآيات قد عبرت عن المشهد بطرق متفاوتة، متبعة الأسلوب القرآني نفسه الذي يقوم على تجزئة المشاهد، فوجدنا تلك الآيات تارة تستعمل لفظة "الرؤية"، أي رؤية المكتوب في الصحف من أعمال، تلك الرؤية التي تستدعي التذكر حتما، وهو ما سيؤدي إمّا إلى الفرح، أو الحسرة. نحو ما وجدناه في الآيتين: 40 من "النبأ" و 6 من سورة "الزلزلة" الأنفتي الذكر. وتارة تستعمل فعل "تذكّر" كما رأينا الآيتين: 35 من سورة "النازعات"، و23 من سورة "الفجر". وتارة ثالثة يستعمل الفعل "علم" الذي يشير إلى التذكّر، وهو ما يتأكد عند مقابلة الآيات بعضها لبعض. وهذا النوع مثلته الآيتان: 14 من سورة "التكوير"، و5 من "الانفطار". وقد استعملت "الملاقاة" مرة واحدة، في الآية 6 من سورة "الانشقاق". ووجدنا التركيز ينصب أحيانا على إيتاء الكتب وتسليمها، ولاحظنا هذا المعنى بشكل جليّ في الآيتين:7 و10 "الانشقاق".

وخلاصة ما توصلنا إليه بهذا التأمل أنّ هنالك آيات ركزت على التذكر، الذي يستدعي ربط الآخرة بالدنيا، والذي له دور وعظي وإنذاري لأهل الدنيا التي ما زالت قائمة، حيث يحقق هذا الفعل "يتذكر" عملية انعكاسية، الهدف منها إيقاظ الحس وتوسيع الأفق وتنشيط اليقين. فالآيات التي تضمنت الفعل "يتذكر" تخبر الإنسان وهو في الدنيا أنه سيصير إلى الآخرة ويتذكر الدنيا. وهي ليست مثل نوع آخر من الآيات التي تدعو الإنسان وهو في الدنيا أن يتذكر الآخرة، مثل الآية ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٥٣﴾ (المدثر:53)، فهنا المطلوب تذكر الآخرة. ولكن في آيات تذكّر أعمال الدنيا، فإنها تتميز بأنها تضع الإنسان في صورة الآخرة بقوة، فهي لا تكتفي بتصويره يأخذ كتابه ويقرأ فيه، بل تصوره كذلك وهو يتذكر ما فعل في الدنيا، حتى كأنه ينسى أنه ما زال فيها، والآيات تنتظر منه أن يستيقظ من حلمه التفصيلي بعد ذلك، ليدرك أنه ما زال في دنياه، فيعمد إلى إصلاح عمله، إن كان ذا عقل راجح.

وهنالك الآيات التي تضمنت الفعل 'علم' الذي يفضي إلى معنى التذكر، ويحمل كذلك معنى إضافيا، يشير إلى أن الإنسان سيتذكر أعماله الدنيوية، وكذلك سيعلم حقائق تلك الأعمال التي يقوم بها وهو غافل عن حقيقتها الفعلية، إذ سيجد أنّ الأموال التي كان يجمعها من حرام هي نار في البطون، وأنّ الربا هو أطواق من نار، وإنّ الغيبة هي أكل لحم من اغتيب، وأن الكذب هو نتن له رائحة كريهة جدا، إلى آخره من أعمال لها حقائق ملكوتية لا يدركها كثير من الناس ممن غفلوا عن الآخرة، ولم يهتدوا إلى يقين كاشف.

أما 'الملاقاة' التي استعملت مرة واحدة، وقصد بها 'ملاقاة العمل'، فيبدو لي أنها تقدم معنى جديدا لهذا المشهد، فالآية تريد أن تقول: إن عملك يتحول إلى مصير ستلاقيه، فإنْ خيرا فخير وإن شرا فشرّ، وستتذكر حينها ما عملته مما قد تحوّل بشكل دقيق إلى مصيرك المحتوم.

وأمّا الآيتان اللتان ركزتا على إيتاء 'إعطاء' الكتب، فأرى أنهما أرادتا أن ترسما صورتين متباينتين تماما لهذا الإعطاء وطبيعته، وهما لم تذكرا مضمون الكتب، بل فُهم ما فيها من شكل الإعطاء الذي وقع، فهو إمّا إعطاء باليمين فيقتضي أن الكتاب مليء بالصالحات، وإمّا إعطاء وراء الظهر فالكتاب عندها مليء بالسيئات. وفعل التذكر حتما سيتلو إيتاء الكتب، بيد أنه لم يُصرّح به، بل يفهم ضمنا كما فهم ضمنا في ثنايا الفعل 'علم' في الآية ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

إنّ 'ألفاظ هذا القسم' قد اجتمعت على رسم مشهد متكامل متباين في العمق والدلالة في أجزائه، بتباين الألفاظ التي رسمته تباينا قام على خصوصيات متفردة لكل لفظة، بالرغم من انتمائها إلى الإطار العام للمشهد. وهو الأمر الذي يدخل في تفرّد الأسلوب القرآني الذي أتاح للمتعمّق ولغير المتعمّق أن يفهمه ويتفاعل معه، وهو أمر معجز لا يتأتى إلّا لنص إلهي.

خلاصة المجال الدلالي الأول 'القيامة والحساب':

رأينا كيف أنّ هذا المجال الدلالي الواسع قد ضمّ في ثناياه مجالات دلالية متفرعة منه، هي النفخة الأولى وآثارها والنفخة الثانية وآثارها، والبعث والقدوم إلى الحشر، والحساب وآثاره. ورأينا بعد ذلك أنّ قسما فرعيا هو 'الحساب وآثاره' قد تفرّع منه أقسام دلالية أخرى في مستوى ثالث، فقد ضمّ: اصطفاف الملائكة، وإبراز الجحيم وعرضها، والخوف والحسرة، وأخيرا نشر الصحف وتذكّر الأعمال. والسبب الذي يقف وراء تنظيمنا للمجالات الدلالية على النحو الذي ذكرنا، هو أن المجال الدلالي كما مرّ هو مجموعة الألفاظ والدلالات التي تنتمي إلى موضوع واحد ورئيسي، كما

رأينا في موضوع القيامة والحساب، ولكن هذا الموضوع الرئيسي يضمّ ألفاظا كثيرة جدا دالة عليه، لا يمكن للباحث أن يتناولها بشكل عشوائي متفرق ومتناثر بدون إخضاعها لنظام معيّن، وإلاّ سيعتور البحث نوع من الخلل والاضطراب في التنظيم، وعدم الدقة في التناول، لذا فيعمد الباحث إلى توليد مجالات دلالية فرعية داخل المجال الدلالي الرئيسي، لغاية تنظيم الألفاظ، وذلك من خلال رصدها، ثمّ إلحاقها بألفاظ أخرى قريبة منها، وتكوين مجموعة لهذه الألفاظ التي تشترك في صفات ودلالات معينة. ولكن في الإطار العام فإن كل هذه المجموعات وما تتضمنه من ألفاظ هي خاضعة ومنتمية للمجال الدلالي الرئيسي. وهذا الأمر سيظهر لاحقا كذلك أثناء تناولنا للمجالين الدلاليين؛ الثاني وهو "الجزاء"، والثالث وهو "نعم الله / مظاهر قدرته".

المجال الدلالي الثاني: الجزاء

وأقصد بالجزاء ما سيترتب على عمل الإنسان في الدنيا من مصير في الآخرة، وهو إمّا جزاء حسن يتمثّل بالجنة ونعيمها، وإمّا جزاء سيىء يتمثل بالنار وعذابها.

وهو المجال الدلالي الثاني بعد "يوم القيامة والحساب" وهو كما ذكرت سابقا قد استحوذ على مئة وثلاث "103" آيات في جزء عمّ قد أشارت إليه وكان مضامينها متعلقة بأحد تفاصيله. وسأفرّع هذا المجال إلى ثلاثة فروع رئيسة هي:

- الألفاظ التي أشارت إلى الجزاء المادي.
- الألفاظ التي أشارت إلى الجزاء المعنوي.
- الألفاظ العامة التي شملت المادي والمعنوي.

1- الألفاظ التي أشارت إلى الجزاء المادي.

والجزاء المادي هو الجزاء المتمثّل بالأمور المادية المحسوسة مثل الأنهار والقصور والجنات والطعام للمؤمنين، والنار والعقارب والزقوم وغيرها للكافرين. إذاً هو قسمان: جزاء مادي للمؤمنين، وجزاء مادي للكافرين. وسأتناول كل واحد بالتفصيل فيما يأتي:

أ- الجزاء المادي للمؤمنين

وقد عبّرت عنه وأشارت إليه آيات كثيرة في "جزء عمّ" سأوردها أحيانا على شكل مجموعات إذا وردت في السور مجتمعة متصلة، حيث ستطالعنا مجموعة أولى من هذه الآيات في سورة النبأ، وهي الآيات 32-34 ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ۝ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ۝ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ۝﴾ فالحدائق هي "جمع حديقة، وهي البساتين من النخيل والأعناب، المحوّط عليها حيطان، ولا تسمّى حديقة إلاّ إذا كانت الحيطان محدقة أو محيطة بها"[1] والكواعب الأتراب هنّ: "النواهد في سنّ واحدة"[2]. ونقل عن أبي زيد في تفسير هذه الآية: أي "التي نهدت وكعب ثديها. والأتراب: اللّدات المستويات"[3]، والكأس الدهاق: أي الكأس الملأى المتتابعة على شاربيها بكثرة وامتلاء. حيث أنّ الدهاق من الدهق وهو متابعة الضغط على الإنسان بشدة وعنف[4]. ومنهم من فسّر الدهاق بالصافية، ومنهم من قال إنها المتتابعة ولم يذكر الامتلاء[5].

وهناك الآيات 22-28 من سورة "المطففين" ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝﴾ كلها تشير إلى نعم مادية باستثناء الآية 24. "فالأرائك" جمع أريكة، وهي: "اسم لمجموع سرير ووسادته وحجلة منصوبة عليهما"[6] و"نضرة النعيم" هي حسنه وبريقه وتلألؤه[7]. و"الرحيق المختوم" هو: "الخمر الصرف التي لا غش فيها"[8].

وقد اختلف أهل التأويل في معنى قوله "وختامه مسك" فبعضهم قال أنه يخلط بالمسك، أي الخمر، وآخر قال يكون آخر شرابهم بمسك يجعل فيه، وثالث قال: عاقبته مسك. وتفسير رابع أنّ

---

(1) الطبري: ج7، ص522.

(2) السابق.

(3) السابق.

(4) السابق.

(5) السابق: ص523.

(6) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، مج15، ص204.

(7) الطبري: ج7، ص574.

(8) السابق.

مختوم معناها: مُطيّن، ومعنى "ختامه مسك" أي طينه مسك[1]. وقد رجّح "الطبري" القول الثاني الذاهب إلى أنّ ختامه تعني عاقبته. وقد ساق سبب ترجيحه ذاك في تفسيره ويمكن العودة إليه[2]. والمهم لدينا أنّ الآيات تشير إشارة واضحة إلى الجزاء المادي للمؤمنين.

وتقابلنا الآية 11 من سورة "البروج" ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ حيث تتضمّن الآية لفظين من ألفاظ النعيم المادي للمؤمنين هما "الجنّات، والأنهار" وهي واضحة المعنى لا حاجة معها إلى كتب التفسير.

وتقابلنا مجموعة أخرى من الآيات في هذا الصدد وهي الآيات 8-16 من سورة "الغاشية"، وهي أكثر مجموعة مفصلة ومتنوعة من آيات النعيم المادي للمؤمنين، والآيات هي: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ۝﴾ والآيات كلها تشير إلى النعيم المادي ما عدا الآيتين ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ و ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ فهما دالتان على الجزاء المعنوي. وقد احتوت الآيات المقصودة مجموعة من الألفاظ التي تحتاج إلى تفسير وتبيان، فـ "السرر المرفوعة" هي "السرر المصفوفة بعضها فوق بعض"[3]. و"الأكواب الموضوعة" هي: "الأباريق التي لا آذان لها وهي موضوعة على حافة العين الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها ملأى من الشراب"[4]. و"النمارق المصفوفة" النمارق: هي الوسائد والمرافق ومفردها نمرقة والنمارق مصفوفة بعضها بجانب بعض"[5] و"الزرابيّ المبثوثة": "هي الطنافس والبسط الكثيرة مبثوثة مفروشة"[6].

وتطالعنا الآية 8 من سورة "البيّنة"، وهي آخر آيات الجزاء المادي للمؤمنين، حيث يقول المولى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾وسيكون لي وقفة ثانية مع هذه

---

(1) الطبري: ج7، ص575.

(2) السابق.

(3) السابق: ص614.

(4) السابق.

(5) السابق.

(6) السابق: ص615.

الآية عند الحديث عن الجزاء المعنوي للمؤمنين.

وبالتأمّل في مجموع الآيات السابقة كلها التي تشير إلى الجزاء المادي للمؤمنين، سنلحظ أنها تفاوتت في تصويرها لذلك الجزاء المادي من حيث التفصيل والإجمال، فبعضها جاء مجملا واكتفى بذكر الجنّات عموما مع ذكر الأنهار شيئا جزئيا منها، نحو ما وجدناه في الآيتين 11 من سورة 'البروج' و8 من سورة 'البينة'، وجاء البعض الآخر مفصّلا، بيد أنّ هذا التفصيل هو بدوره تفاوت من موضع إلى آخر، فنجد مجموعة ثرية في تفصيلات الجزاء المادي وهي الآيات 8-16 من 'الغاشية' ماعدا آيتين فيها، حيث احتوت هذه الآيات سبعة من المظاهر المادية لجزاء المؤمنين، هي الوجوه الناعمة والجنة العالية والعين الجارية والسرر المرفوعة والأكواب الموضوعة والنمارق المصفوفة والزرابي المبثوثة. في حين نجد مجموعة أقل ثراء في هذا الصدد؛ هي الآيات 32-34 من 'النبأ'، التي اكتفت بالإشارة إلى أربعة من تلك المظاهر المادية لجزاء المؤمنين؛ هي الحدائق والأعناب والكأس الدهاق والكواعب الأتراب. ومثلها مجموعة الآيات 23-27 من 'المطففين' التي بدورها أبرزت ثلاثة من المظاهر المادية؛ هي الأرائك والوجوه النضرة والرحيق المختوم بالمسك الممزوج من عين تسنيم. وهذا الأخير اشتمل على تفصيل داخل التفصيل، حيث فصّلت الآيات طبيعة ذلك الرحيق وأعطته صفتين؛ فهو مختوم بمسك، وهو ممزوج بتسنيم.

ومن هنا نستنتج أنّ 'جزء عمّ' كان أميل إلى الاختصار في تفصيل الجزاء الماديّ للمؤمنين، ولولا ما وجدناه في آيات سورة الغاشية من ثراء واضح في هذا المجال، وقريب منها ما هو موجود في سورتي 'النبأ' و'المطففين'، لكانت الصبغة العامة لعرض جزاء المؤمنين المادي في 'جزء عمّ' هي صفة الإجمال لا التفصيل.

ومبعث هذا الميل إلى الإجمال هو طبيعة الجزء التي سبق أن أشرت إليها، و هي التكثيف والاختصار والتركيز على نقل الصور العامة السريعة، وإن كانت عميقة يتضح عمقها بالتأمل، لكن هي في الوقت ذاته سريعة، ناسبت الدعوة الإسلامية في باكورتها، حيث كان الهدف إيصال خطوط عريضة عن العقيدة الإسلامية إلى الناس عامة، وترسيخها في نفوس المؤمنين منهم خاصة، بدون الخوض في كثير من التفاصيل. وإن خيض في بعضها فيكون قليلا لا يشكل ظاهرة، ويكون موزعا مبثوثا في مواضع متفرقة، وهذا الأمر ينطبق كما سنلاحظ ليس على المواضيع التي كنا بصددها حسبُ، بل على المواضيع اللاحقة كلها في هذا الفصل.

ب- الآيات التي تضمنت ألفاظا أشارت إلى الجزاء المادي للكافرين:

أول الآيات التي تقابلنا في هذا الصدد هما الآيتان 24-25 من سورة "النبأ" ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝﴾ فالحميم هو "الذي أغلي حتى انتهى حرّه فهو كالمهل يشوي الوجوه"[1]. أمّا الغسّاق فقد اختلف أهل التأويل في تفسيره، وأورد الطبري أقوالا عدة في تفسيره، فمن قائل: هو ما يسيل من صديد أهل النار، ومن قائل: هو الزمهرير شديد البرودة، وآخرون قالوا: هو المنتن، ثمّ إنّ "الطبري" رجّح القول الأول، وهو أنّ الغسّاق هو الصديد، ثمّ وضّح تفسيره بقوله: "هو الشراب السائل المكوّن من الزمهرير والنتن، الذي جمع بين البرد والنتن"[2]. إذاً "فالحميم والغساق" هما جزاءان ماديان يلاقيهما الكافرون في النار.

الآية الثانية التي تتضمن إشارة إلى جزاء مادي للكافرين هي الآية 15 من سورة "الانفطار" ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ إشارة إلى الفجّار وهي تسمية أخرى لأهل النار، والآية تتضمن إشارة واضحة إلى صلي الكافرين بالنار المادية المشتعلة، وإن كان يترتب عليها ألم معنوي كما هو معلوم، لكن يترتب عليها أيضا آثار مادية، نحو حرق الجلد وتغيّر لونه وتبديله كل حين.

وشبيهة بالآية السابقة الآية 16 من سورة "المطففين" ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ حيث الإشارة واضحة كذلك إلى "الصلي" بالنار، وما يترتب عليه من آثار مادية. وآية ثالثة شبيهة بالآيتين السابقتين، نجدها في سورة "الانشقاق" وهي الآية 12 ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ وتتميز منها أنها استعملت لفظة " السعير" بدل "الجحيم". والسعير كما جاء في تفسير الميزان هو النار المؤججة التي لا يوصف عذابها ويقاس حرها[3].

وبتأملي في الآيات الثلاث السابقة خلصت إلى أنّ الجحيم هي مكان يتضمن أنواعا كثيرة من العذاب بدليل قوله ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾وإنّ من أشد وأظهر أنواع العذاب تلك هو ما يُسمّى بالسعير أي النار المؤججة التي لا يوصف عذابها كما مرّ. وتعزّز هذا الاستنتاج الذي توصلت إليه الآية 97 من سورة الإسراء ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ

---

(1) الطبري: ج7، ص519.

(2) السابق: ص519-520.

(3) الطباطبائي: ج2، ص243.

أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَـٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾فجهنم هي المأوى، ومن مظاهر عذابها هو السعير الذي هو صفة للنار عندما تتأجج وتلتهب بشدة متناهية، ومما عزز هذا المعنى أيضا الآية 4 من سورة "الإنسان" ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَاْ وَأَغۡلَـٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ فالسعير في هذه الآية ورد صنفاً من العذاب مع صنفين آخرين؛ هما السلاسل والأغلال، وكلّ هذه الأصناف تتضمنها جهنّم أو الجحيم، بيد أن القرآن في مواضع عديدة عبّر عن النار بالسعير، من باب تسمية الشيء بأميز ما فيه.

وموضوع الإحراق والحريق جزاءً مادياً للكافرين تشير إليه الآية 10 من سورة "البروج" ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ ونقل صاحب "الميزان" عن صاحب مجمع "البيان": "يسأل فيقال: كيف فصل بين عذاب جهنّم وعذاب الحريق وهما واحد؟ أجيب عن ذلك بأنّ المراد لهم أنواع العذاب في جهنّم سوى الإحراق مثل الزقوم والغسلين والمقامع ولهم مع ذلك الإحراق بالنار"[1]. وفي هذا القول تأكيد لما ذهبت إليه من التفريق بين الجحيم والسعير كما مرّ آنفا.

وحول الصلي بالنار أيضا، تطالعنا الآية 12 من سورة "الأعلى" وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ إشارة إلى الأشقى الذي يتجنّب الذكرى كما أوضحته الآية السابقة لهذه الآية، حيث تبرز في الآية المرادة لفظة جديدة هي "الكبرى" صفةً للنار، وجاء في التفسير الكبير جملة من الأقوال في تفسير النار الكبرى، أنها هي نار جهنّم، وتقابلها النار الصغرى وهي نار الدنيا، وأنها أعظم النيران في مقابل نيران أقل، توافقا مع الذنوب والمعاصي المتفاوتة في الشدة والعظم، وكذلك فُسرت النار الكبرى بأنها النار السفلى"[2]، منتزعين هذا المعنى من الآية التي تقول: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ النساء:145. وما يهمنا هنا أنّ في الآية إشارة واضحة إلى الصلي بالنار، وما يترتب عليه من آثار مادية في الجلد واللون وغيره.

---

(1) الطباطبائي: ج20، ص252.

(2) الرازي: التفسير الكبير، ج31، ص145.

بعد ذلك نجد أنفسنا في "جزء عمّ" أمام مجموعة من الآيات في سورة "الغاشية"، تقدم صورا جلية وألفاظا واضحة عن بعض جزاءات الكفار المادية، وهي الآيات 4-7 حيث يقول المولى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝﴾ فقابلت النار الحامية في هذه الآيات لفظة "السعير" آنفة الذكر، ووصف النار بالحامية يستدعي أنها نار شديدة الحرارة وملتهبة، لأنّ لفظة "النار" بذاتها تدل على الحرارة أصلا، ولا توصف بأنها حامية إلاّ إذا بلغت من هذه الحرارة مبلغا متناهيا تجاوز الحد الطبيعي بكثير. و"العين الآنية" هي: "العين التي قد طال أنيُها وحرّها"[1] و"الضريع" هو: "نبات شوكي سام يُسمّى "الشبرق" ويسميه أهل الحجاز "الضريع" إذا يبس"[2] ومعنى ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ أي لا يسمن أهل النار الذين يأكلونه ولا يشبعهم من جوع يصيبهم"[3]. والآيات واضحة الإشارة إلى ثلاثة أنواع من الجزاء المادي للكافرين هي: النار الحامية، والماء شديد الحرارة، والشوك اليابس المسمّى بالضريع.

وفي الآية 26 من سورة "الفجر" وهي قوله تعالى ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ التي قال "الفخر الرازي" في تفسيرها أي لا يعذب أحد في الدنيا عذاب الله الكافر يومئذ، ولا يوثق وثاق الله الكافر يومئذ، والمعنى مثل عذابه ووثاقه في الشدة والمبالغة"[4] وقد أورد الفخر وجوها أخرى للتفسير يمكن الرجوع إليها[5]. على أن ما يهمنا أن في الآية إشارة إلى جزاء ماديّ جديد هو "الوثاق" أي الربط، لكنّ الآية لم توضح وسيلة الربط، أهي حبال كحبال الدنيا، أم هي غير ذلك. لكنها ستكون وسيلة مادية تقتضيها عملية الوثاق ولاشك.

وهناك الآية 20 من سورة "البلد" ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ ومعنى مؤصدة أي مطبقة، أو مغلقة عليهم، فلا ضوء فيها ولا فرج، ولا خروج منها إلى آخر الأبد"[6]. والآية واضحة كذلك في الدلالة على جزاء مادي للكافرين يتمثل بنار مغلقة عليهم لا ضوء فيها ولا فرج.

---

(1) الطبري: ج7، ص612.

(2) السابق.

(3) السابق: ص613.

(4) الرازي: التفسير الكبير، ج31، ص175.

(5) انظر: السابق.

(6) الطبري: ج7، ص638.

ثمّ رجوعا إلى الصلي حيث تطالعنا الآية 15 من سورة الليل ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ وتقدم الحديث عن مثلها. وفي سورة البينة تقابلنا الآية 6 ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ البرية هم الخلق من الفعل برأ فهي بريئة لكن الهمزة حذفت للتسهيل بسبب كثرة الاستعمال[1]. والجديد في الآية أنّ فيها إضافة النار إلى جهنّم، وهي إشارة إلى أنّ الأخيرة مكان للعذاب شامل فيه النار وغير النار.

وفي سورة القارعة تبرز أمامنا الآية 11 وهي الأخيرة ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾جزاء لمن خفّت موازينه، وستكون أمه هاوية، التي فسرها القرآن ذاته بقوله ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ وهي تذكرنا بالآية 4 من سورة الغاشية ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ وهي جزاء مادي واضح. وفي تفسير ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ أورد الفخر أقوالا عدة يمكن الرجوع إليها[2].

أمّا في سورة الهمزة 4-9 ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝﴾ الحطمة تفسرها الآية اللاحقة ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ والحطمة اسم من أسماء النار كما قيل عنها جهنم، وسقر، ولظى. وسميت بذلك لأنها تحطم كل ما يُلقى فيها[3]. ووصف النار بأنها موقدة كوصفها بأنها حامية. وقد مرّ التعليق على هذا الأسلوب من حيث إنه دلالة على الشدة في الحرارة والتلهّب. ومعنى ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾تبلغ القلوب وتصلها[4]. ومؤصدة أي مطبقة مغلقة، وقد مر تفسيرها عند الإشارة إلى الآية في سورة البلد ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ بيد أن المولى في هذا الموضع يبيّن طريقة الإيصاد؛ حيث هي العمد الممددة، وفسرها الطبري بقوله: هي مغلقة عليهم، ممددة بأعمدة، فهم يعذبون بعمد من النار، والله أعلم كيف يكون تعذيبهم بتلك العمد[5] وقال

---

(1) الطبري: ج7، ص675.

(2) انظر: الرازي: التفسير الكبير، ج32، ص74.

(3) السابق، ص692.

(4) السابق.

(5) السابق: ص692.

الفخر في تفسير لفظة "العمود": "هو كل مستطيل من خشب أو حديد"[1] وفسر الآية بوجهين: "الأول بأنها عمد أغلقت بها تلك الأبواب كنحو ما تغلق به الدروب و"في" بمعنى الباء أي أنها عليهم مؤصدة بعمد مُدّت عليها، ولم يقل بعمد لأنها لكثرتها صارت كأن الباب فيها "والقول الثاني" أن يكون المعنى "أنها عليهم مؤصدة" حال كونهم موثقين "في عمد ممددة" مثل المقاطر التي يقطر فيها اللصوص"[2]. إذاً نحن أمام جزاء مادي يتمثل بالعَمد الممددة في النار لإغلاقها على الكافرين.

وآخر الجزاءات المادية للكافرين في النار هو ما ستشير إليه الآيات 3-5 من سورة "المسد" وبينهما الآية 4 تربطهما ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝﴾ "في إشارة إلى "أبي لهب" عم الرسول صلى الله عليه وآله، و"أم جميل" زوجة أبي لهب. وفي الآيات ملاحظ عدة؛ الأول: أن للنار صفة جديدة هنا، لكن متكررة المعنى، فهي هنا "ذات لهب" وهذا إشارة إلى شدة حرارتها وسعيرها، وهذا المعنى يشبه معنى قوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ ومعنى قوله: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ من حيث أنه أراد من جميع تلك الألفاظ أنها نار عظيمة التوقد والحرارة، ولكن تتنوع أساليب وصفها؛ فمرةً ركّز على حرارتها فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ومرة ركز على مظهر حرارتها الخارجية، فقال: ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾وقال: "سعير" وهي كلمة تنطوي على معنى التحول في النار، أي أنها تكون غير مسعرة فتُسعّر، وهذا يذكرنا في الآية في سورة "التكوير" ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ ومعنى التحول في حال النار من عدم التسعير إلى التسعير هو دلالة على تهيئها واستعدادها لاستقبال أهلها من الكافرين، وهو الأمر الذي يبعث الذعر والرعب في نفوسهم وقلوبهم.

ولا يفوتني أن أذكر مدى مناسبة لفظة "لهب" لكنية الشخص المستهدف في الآية وهو "أبو لهب"، وهذا من الإشارات الجميلة في القرآن الكريم، ومثله في المناسبة والتوافق، الجزاء المادي لامرأته، فهي إضافة إلى كونها مع زوجها في نار ذات لهب، ففي جيدها كذلك حبل من مسد، أي: في رقبتها حبل من الليف أو الحديد الذي يكون في البكرة، أو في قول ثالث: هو قلادة من ودع في رقبتها على اختلاف بين المفسّرين، ومهما يكون فهو جزاء ماديّ مناسب للحبل الذي كانت تحتطب

---

(1) الرازي: **التفسير الكبير**، ج32، ص95.

(2) السابق.

فيه حطبا وشوكا ثمّ تضعه أمام الرسول صلى الله عليه وآله، بل إن ابن عباس والضحّاك وابن زيد قالوا: إنّ حبل المسد هو ذات الحبل الذي كانت تحتطب به في الدنيا[1].

أما وقد انتهيت من رصد آيات الجزاء المادي للكافرين في الآخرة فمن المفيد أن أسوق بعض الملاحظات التي استقيتها بعد شيء من التأمل في تلك الآيات وألفاظها، وأول تلك الملاحظات هو أنّ الآيات ركزّت في غالبها على النار والإحراق أو الصلي بها جزاءً ماديا أساسيا للكافرين، حيث وجدت إحدى عشرة آية تشير إلى هذا الموضوع، من مجموع عشرين آية تقريبا أوردتها في هذا القسم، وسائر الآيات أشارت إلى جزاءات مادية متفرقة للكافرين، مثل الحميم والغساق والعين الآنية وهي الحميم ذاتها، وكذلك هناك الضريع والوثاق والعمد الممددة وحبل المسد الخاص بزوجة أبي لهب.

والملاحظة الثانية: أن الأسلوب القرآني قد تنوع وتفاوت في التعبير عن النار التي يُقصد بها هنا ذلك الشيء المحرق، لا النار المأوى. فتارة هي نار حامية، وتارة هي ذات لهب، وثالثة هي سعير، ورابعة هي تطّلع على الأفئدة، وكل هذه الأشكال من التعبير إنما أراد منها معنى واحدا؛ هو أنها نار شديد الحرارة شدة لا يمكن تصورها، لكنّ الأساليب اختلفت باختلاف الشيء المقصود في النار، فمرة أراد حرارتها الداخلية "نار حامية"، ومرة أراد مظهر تلك الحرارة الشديدة "ذات لهب" و"سعير"، ومرة ثالثة أراد فعلها "تطلع على الأفئدة"، ورابعة أراد التركيز على سبب خارجي في زيادة حرارتها، وهي أنها مؤصدة، أي مغلقة مطبقة.

وأرى أن مثل هذا التركيز على النار وذكرها وما يترتب عليها من صلي وإحراق، ربما كان له مبعثان، أولهما: أن طبيعة جزء عمّ باكورةً للسور المكية -وللقرآن عموما- التي خاطبت المشركين المنكرين للبعث وللجزاء من نار وجنة، قد استلزمت أن تُذكر النار مرارا على مسامعهم لتأكيد وجودها في نفس من ينكرها، من باب ما يسمّى "كي الوعي" مصطلحاً سياسيا معاصرا المقصود منه الإلحاح على فكرة ما أمام من ينكرها، حتى تترسّخ لا شعوريا في نفسه، ويتطبع معها، توطئة للتعمق والاقتناع بها في لحظة ما. وثانيهما: منبعث من طبيعة "جزء عمّ" المختصرة، حيث أن النار وخاصية الإحراق والصلي فيها هي أميز وأظهر عذابات "النار المأوى"، حتى أنها أخذت اسمها الأشهر من هذه الخاصية فهي "النار" رغم أنها تحتوي كثيرا من أنواع العذاب غير نار الإحراق، ولذا

---

(1) الطبري: ج7، ص714-715.

فمن الطبيعي لـ"جزء عمّ" الميّال إلى التكثيف والاختصار، أن يكتفي في غالب حديثه عن جزاء الكافرين بذكر النار والإحراق فيها ذكرا سريعا، ولا يقف على تفاصيل عذابات مادية، وذلك عكس ما نلحظه في سور مكية أخرى، فيها تفصيل لجزاءات مادية كثيرة تصيب الكافرين في الآخرة.

2- ألفاظ الجزاء المعنوي في الآخرة:

والمقصود به الجزاء غير المحسوس نحو الرضا للمؤمنين، أو الذلة والحسرة للكافرين، وهو قسمان:

أ- ألفاظ الجزاء المعنوي للمؤمنين:

تطالعنا في هذا المجال جملة من الآيات في "جزء عمّ"، أولها الآية 31 من "النبأ"، وهي قوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي أن للمتقين ظفرا بما طلبوا من الحدائق والأعناب[1] والظفر بمعنى الفوز هو أمر معنوي يشعر به الإنسان داخل نفسه، مع أن له مظاهر خارجية، لكن الشعور به هو أمر معنوي. والآية الأخرى في السورة ذاتها هي الآية 35 ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ أي لا يسمع المتقون في الجنة لغوا ولا باطلا من القول، ولا مكاذبة: أي لايكذب بعضهم بعضا[2]. وهو واضح في الدلالة على جزاء معنوي متمثّل بإكرام أسماعهم عن سماع الباطل والكذب، وتطالعنا الآية 34 من سورة "المطففين" ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ وفيها إشارة بارزة إلى جزاء معنوي هو الضحك، الذي سببه السرور والغبطة بنعيم الجنة، وبإنصاف الله لهم من الكافرين الذين كانوا يستهزئون بهم في دار الدنيا. وفي الآية كذلك إشارة إلى جزاء معنوي للكفار؛ هو الإذلال لهم جراء ضحك المؤمنين منهم، بينما هم -أي المؤمنون – على الأرائك وفي النعيم.

والآية 8 من سورة "الانشقاق" ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾إشارة إلى من يؤتى كتابه بيمينه، وفي الآية دلالة على جزاء معنوي متمثل بالحساب اليسير الذي سيكون محبوبا للمؤمن، وفيه متعة له بلقاء ربه، والذي يدل على ذلك هو الفعل "ينقلب" الوارد في الآية اللاحقة لهذه الآية، حيث

---

(1) الطبري: ج7، ص522.

(2) السابق: ص523.

إن هذا الفعل هو للمطاوعة وهو يستدعي وجود مؤثر لحدوثه، والمقصود أن المؤمن لا يحب أن يترك هذا اللقاء والحساب الممتع إلاّ لسبب يدفعه إلى ذلك، وهذا جزاء يسبق دخول الجنة، حيث إن الجزاء هو لفظة شاملة لما قبل دخول الجنة أو دخول النار، وما بعد دخولهما. وتيسير الحساب أو تعسيره هو من جزاءات ما قبل الدخول إلى الجنة أو إلى النار.

وفي سورة 'الغاشية' في آيتيها 9﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾و 11 ﴿ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ إشارة إلى الوجوه الناعمة في الجنة والمقصود منها المؤمنون، و'اللاغية' هي كلمة اللغو، واللغو هو الباطل[1] وفي التفسير الكبير أقوال عدة في تفسير اللغو؛ منها: أن اللغو هو ما لافائدة منه، أو هو الحلف عند الشراب كما يحلف أهل الدنيا إذا شربوا الخمر. ونقل عن الزجّاج أن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة، واللغو هو خلاف الحكمة[2]. والجزاء المعنوي للمؤمنين هنا متمثل في تكريم سماعهم من سماع الباطل، وهو ذات المعنى الذي ورد في الآية 35 من 'النبأ'، ولكن بإضافة الكذب إلى اللغو في الأخيرة، ربما لأن درجة هؤلاء النفر من أهل الجنة الذين تشير إليهم آية 'الغاشية' أعلى من درجة النفر الذين أشارت إليهم آية 'النبأ'، فكأنه أراد القول أن اللغو عندهم لا يُسمع، فما بالك بالكذب.

وإذ نصل إلى سورة 'الفجر'، تقابلنا آيتها الثامنة والعشرون ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ إشارة إلى النفس المطمئنة، ومعنى 'راضية': 'راضية بالثواب مرضية عنها في الأعمال التي عملتها في الدنيا'[3] وهو جزاء معنوي متمثل برضا النفس بما نالت من النعيم، والرضا عنها من الله تعالى.

وتبرز لنا الآية 7 من سورة 'الليل' ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ إشارة إلى من صدق بالحسنى، وكان مؤمنا، واستنادا إلى تفسيرها بما ورد عند 'الفخر الرازي' من أن إدخال الله إياهم في الجنة بسهولة وإكرام[4] فتكون هذه الآية دالة على جزاء معنوي للمؤمنين، بيد أن الرازي كذلك أورد وجوها عدة لتفسير هذه الآية يمكن الرجوع إليها[5].

---

(1) الطبري: ج7، ص613.

(2) الرازي: التفسير الكبير، ج31، ص154-155.

(3) السابق: ص178.

(4) السابق: ص200.

(5) انظر: السابق، ص199-200.

وفي سورة "البينة" في آيتها الثامنة وهي إشارة إلى المؤمنين، هنالك موضعان في الآية هما: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ حيث أن الخلود في النعيم واستشعاره داخل النفس وما يترتب عليه من فرح دائم واستبشار لا حدود لهما، كل ذلك من الجزاء المعنوي الكبير، بل هو من أحسن الجزاء المعنوي فيما أرى، حيث أن المؤمن في الجنة لا يقتصر نعيمه على ما يراه ويتذوقه وينال منه من أنواع الترفيه والمتع، بل إن ذلك النعيم في جزء منه متمثل بالفرح الغامر الذي يعتري نفسه، لمعرفته بخلود هذا النعيم العظيم ودوامه، لذلك وصفه ربنا عز وجل بقوله "نعيم مقيم" حيث هو متعة بحد ذاته، ومتعة بما أنه مقيم دائم لا انقطاع له. وقد نقل "الفخر الرازي" عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: إن الخلود في الجنة خير من الجنة ورضا الله خير من الجنة"[1].

والجزاء المعنوي الآخر في الآية السابقة هو المتمثل في مقطع ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾حيث ذكر "الفخر الرازي" لطيفة جميلة في معرض تفسيره لهذا المقطع فقال: إن العبد مخلوق من جسد و روح فجنة الجسد هي الجنة الموصوفة وجنة الروح هي رضا الرب... والإنسان في مبتدأ أمره من عالم الجسد، ومنتهى أمره من عالم العقل والروح، فلا جرم ابتدأ بالجنة وجعل المنتهى هو رضا الله ثم أنه قدم ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾على قوله ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ لأن الأزلي هو المؤثر في المحدث، والمحدث لا يؤثر في الأزلي"[2]. والفخر ذاته أورد أوجها عدة في تفسير" ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾منها أنه رضي أعمالهم أو رضي بأن يمدحهم ويعظمهم، وهو رجّح الأخير، وفسر ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾أي رضوا بما جازاهم من النعيم والثواب"[3].

وعلى كل الأحوال فالجزاء المعنوي في هذا المقطع من الآية واضح، حيث هو رضا الله عن المؤمنين، ورضاهم هم بذلك الرضا، بما أوتوا من نعيم مقيم. وهذا المقطع يذكرنا بالآية 28 من "الفجر" ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً﴾ فهي تقابل ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾تماما إلا أنه استعمل في الأولى الاسم "اسم الفاعل واسم المفعول" الدالين على "راضٍ ومرضي" واللذين ينطويان على معنى الاستمرار والدوام، وفي الثانية استعمل الفعل الماضي "رضي، رضوا" الدالين على وقوع

(1) الرازي: **التفسير الكبير**، ج32، ص55.

(2) السابق.

(3) السابق: ص56.

الأمر حتما، وكأنه قد وقع وانتهى، ومعنى الاستمرار الموجود في "راضٍ ومرضي" لا نلحظه في "رضي ورضوا" لذلك عوّض عنه بـ ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ التي سبقت هذا المقطع.

وما زلنا في جو الرضا الذي يغمر المؤمنين في الجنة من حيث هو جزاء معنوي عظيم، فتطالعنا الآية 7 من سورة "القارعة" ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ إشارة إلى من ثقلت موازينه يوم الحساب، ونقل "الفخر الرازي" عن "الزجّاج" في تفسير "راضية": "أي عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها"[1] فهي على ذلك مرضية[2]، ولكنه استعمل اسم الفاعل للدلالة على اسم المفعول.

وفي ختام رصدي لآيات الجزاء المعنوي للمؤمنين في "جزء عمّ" وما اشتملت عليه من ألفاظ، فإن لدي مجموعة من الملحوظات حول تلك الآيات وأسلوب التعبير فيها عن الموضوع المقصود. والملحوظات هي:

1- إن الجزاء المعنوي للمؤمنين تمثل بأوجه عدة هي: الفوز والشعور به، والرضا، والتيسير في الحساب، وتسهيل دخول الجنة، وإكرام السمع من الاستماع إلى اللغو والكذب، وهناك الفرح والاستبشار بسبب النعيم والخلود فيه وبسبب إنصاف الله لهم من الكافرين. وأكثر هذه الوجوه ذكرا هو الرضا، فقد ورد في أربعة مواضع هي الآيات 9 من "الغاشية" و28 من "الفجر" و8 من "البينة" وكذلك 7 من "القارعة"، والتركيز على الرضا جزاءً معنويا أكثر من غيره مبعثه أن الرضا جزاء عام يشمل جزاءات أخرى، من حيث إنه نتيجة نهائية لكل الجزاءات المذكورة.

2- وهذه ملحوظة مقارنة، حيث إن آيات الجزاء المعنوي كانت أقل من آيات الجزاء المادي، فقد استحوذ النوع الأول على عشر آيات، في حين استحوذ الثاني على ست عشرة آية، وذلك - فيما أرى - يرجع إلى طبيعة "جزء عمّ" المعهودة من حيث إنه الجزء المكيّ المبكر والخطاب فيه لأناس جاهليين متعلقين بالماديات، وغافلين عن الروحانيات والمعنويات، فركز لهم القرآن في بواكيره على الماديات ليبيّن لهم أنّ ما يحبونه ويتعلقون به موجود في الآخرة كوجوده في الدنيا، بل بوجه أكثر وأحسن، وهو دائم لا انقطاع له. وفي هذا أسلوب جاذب لهم إلى الإيمان، معتمدا في ذلك على إغراءات الجنة المادية. أما فيما يتعلق بالجزاء المعنوي فقد ساقه القرآن في بواكيره بدرجة أقل، وكان الهدف منه لفت نظر الناس عموما، والعاقلين منهم

---

(1) الرازي: **التفسير الكبير**، ج32، ص73.

(2) السابق.

خصوصا، إلى الروحانيات والمعنويات، التي هي أرقى وأفضل.

3- أنه في الجزاءات التي يكون تحققها أبلغ وأظهر في اجتماع من الناس منه في حال الانفراد، فقد عمد القرآن فيها إلى صيغة الجمع، ومن هذه الجزاءات: الضحك والاستبشار، حيث عبر عنها بصيغة الجمع ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ المطففين:34، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝﴾ عبس:38-39. وجزاء آخر هو الشعور بالفوز استعملت فيه صيغة الجمع كذلك ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ النبأ:31، والجزاء المتمثل بإكرام السمع من اللغو والباطل لا يكون إلا في مجلس واجتماع، فاستعمل صيغة الجمع ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ النبأ:35 والآية ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ الغاشية:11 حيث المسند إليه هنا هو "الوجوه الناعمة" وهي جمع. ولأن معظم الجزاءات هي من هذا النوع الذي يتحقق بشكل أبلغ في اجتماع من الناس فقد شاعت صيغة الجمع في آيات الجزاء المعنوي للمؤمنين، ولم تظهر صيغة المفرد إلا في ثلاثة مواضع هي ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ الليل: 10 و﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ القارعة:7 و﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الانشقاق:8، وطبيعة هذه المواضع الثلاثة هي التي سوّغت استخدام صيغة المفرد فيها، حيث "التيسير لليسرى" وهو توفيق العبد إلى طريق الجنة وإدخاله فيها بسهولة كما ورد في التفاسير وذكرناه سابقا، وهذا التيسير يكون بطرق شتّى تختلف من عبد إلى آخر، فاستخدمت صيغة المفرد للدلالة على خصوصية التيسير عند كل عبد. أمّا الموضعان الآخران فهما مرتبطان بالحساب وهو فردي لا جماعي كما هو معلوم، بدليل قوله تعالى "وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً" (مريم:95)

ب- ألفاظ الجزاء المعنوي للكافرين:

أول ما يقابلنا من الآيات التي تنتمي إلى هذا العنوان هي الآية 23 من سورة النبأ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ إشارة إلى الطاغين الذين لهم مآب إلى جهنم، وفُسرت الآية في وجوه عدة، أولها: أنها تشير إلى الخلود في النار، حيث الأحقاب التي هي جمع حقبة، وهي المدة الزمنية الطويلة، فهذه

الأحقاب لا انقطاع لها. الوجه الثاني: أنها أحقاب محددة في عذاب خاص في جهنّم، فإذا ما انتهت تلك الأحقاب انتهى ذلك العذاب، ونقلوا إلى أصناف جديدة من العذاب في جهنّم[1]. وأنا أميل إلى التفسير الأول الذي ذهب إلى أن المعنى هو الخلود في النار، وأرى أن الآيتين اللاحقتين لهذه الآية تعزّزان هذا القول وهما الآيتان 27 و28 ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾ فهما تبينان صفات أولئك النفر من أهل جهنّم، وتلك الصفات ذاتها من التكذيب بالبعث والحساب وبآيات الله، ساقها القرآن في مواضع أخرى كثيرة سبباً للخلود في النار، منها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾(الأعراف: 36). والآية المرادة هي إشارة إلى جزاء معنوي شديد، هو الخلود في النار، واستشعار الكافرين لذلك يزيدهم عذابا نفسيا فوق ما هم فيه من العذاب المادي، أعاذنا الله الرحيم من ذلك، وتغمدنا برحمته الواسعة.

ونأتي إلى الآية الثانية في هذا القسم وهي الآية 15 من سورة المطففين ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ وقد اختلف أهل التأويل في تفسير هذه الآية، فمنهم من قال: أي محجوبون عن الكرامة عند الله فلا يكرمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم. وقال آخر: الكفار محجوبون عن رؤية الله في الآخرة. وقد رأى الطبري أن الآية شاملة للقولين[2]. ولديّ تحفظ على الرأي الثاني الذي مفاده أن الكفار محجوبون عن رؤية الله في الآخرة، ذلك أن الله سبحانه وتعالى تستحيل رؤيته من جميع الناس مؤمنين كانوا أم كافرين، سواء في الدنيا أو في الآخرة، بدليل قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(الأنعام: 103) فهذه الآية واضحة في الدلالة على استحالة الرؤية، ذلك أن الله سبحانه ليس بمادة، ولا يمكن أن يحدّه حدّ، ولا يمكن أن يتجسد أو يحويه مكان ولا زمان[3]. وعلى كل حال فالآية تشير إلى جزاء معنوي للكافرين يوم القيامة يتمثل بحرمانهم من كرامة القرب والرحمة.

---

(1) الطبري: ج7، ص518.

(2) السابق: ص572.

(3) انظر: الطباطبائي، الميزان، ج7، ص292، وكذلك ج20، ص117 في التعليق على الآية 23 من سورة القيامة ﴿إلى ربها ناظرة﴾.

ثم تبرز لنا الآية 34 من ذات السورة ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ وقد سبقت الإشارة إليها حين الاستشهاد بها إشارةً إلى جزاء معنوي للمؤمنين، وذكرت حينها أنها تنطوي على جزاء معنوي للكافرين، متمثل بالاستهزاء والشماتة بهم من قبل المؤمنين، بعد إنصاف الله لهم وانتقامه من أعدائهم الظالمين.

ونعرّج على سورة "الطارق" وآيتها العاشرة ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ويتضح فيها معنى الضعف والخذلان وانعدام النصير للكافرين، وهذا من الجزاء المعنوي السيئ الذي يلحق بهم، حيث لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير

وفي سورة "الأعلى" تطالعنا الآية 13﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾في إشارة إلى جزاء معنوي للكافرين يتمثّل بهذه الحال المأساوية المترددة بين اللاموت و اللاحياة، وما يترتب عليه من عذابات نفسية معنوية قاسية، إلى جانب الاستشعار بدوام هذه الحال وخلودها.

والآية 7 من سورة "الغاشية" ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ تشير إلى آخر الجزاءات المعنوية للكافرين، متمثلا بدوام الجوع الذي لا يخلصهم منه ذلك الضريع المر اليابس، فهو لا يسمنهم ولا يغنيهم من جوعهم الدائم.

ونلحظ أن الآيات التي مرت معنا تضمنت الجزاءات المعنوية الآتية: الخلود في النار، واستشعار الكافرين به، وما يترتب على ذلك من عذاب نفسي عظيم، وهناك الحجب عن رحمة الله وكرامته، والاستهزاء والتشفي بهم من قبل المؤمنين، ثم الضعف والخذلان وانعدام الناصر، واستشعارهم حال اللاموت واللاحياة في النار، وما ينطوي عليه من يأس وضيق شديد لا يوصف، وهناك أيضا الجوع الدائم الذي لا يذهبه أي طعام أو شراب.

ونلحظ كذلك أن هذه الجزاءات المعنوية ارتبطت بالجزاءات المادية وإن كانت أقل منها في ورودها في "جزء عمّ"، فاستشعار الخلود مرتبط بمكان الخلود وهو النار، وهذا ما يجعله شعورا غاية في السوء. والاستهزاء بهم مرتبط بالمستهزئ وهم المؤمنون أي أعداؤهم وخصومهم في الدنيا، وهذا يجعل التشفي والاستهزاء أبلغ وأكثر أثرا، والضعف والخذلان وقعا في الوقت الذي هم فيه بأمس الحاجة لقوتهم وناصريهم، حتى يكون الشعور بفقد ذلك في غاية السوء. والجوع ودوامه مرتبط بوجود الطعام الذي لا يغني من جوع، وهذا أبلغ في التعذيب المعنوي، وإحلال اليأس والقنوط في النفس. أما استشعار حال اللاموت واللاحياة في النار إنما هو مرتبط برغبة شديدة في النجاة، سواء

أكانت نجاة بالفناء وانقطاع الإحساس بالألم، أم هي نجاة بالخلاص من العذاب والخروج من الجحيم إلى النعيم والراحة، وهما أمران لا يمكن أن يقعا وقد حق على أولئك كلمة العذاب، فيكون ذلك الإحساس باللاحياة واللاموت في قمته وغايته مع انعدام الأمرين معا.

الآيات التي تضمنت ألفاظا تنطوي على الجزاءين المادي والمعنوي معا:

وهذا النوع لن أتوقف عنده طويلا لأن فيه كثيرَ تكرارٍ، وسأكتفي بسوق بعض الأمثلة وتوضيحها، ومنها الآية 39 من سورة 'النازعات' ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾حيث أن الآية تنطوي على جزاءات مادية ومعنوية، فكلمة 'المأوى' كلمة عامة تتضمن الحسي واللاحسي، حيث سيتضمن ذلك المأوى للكافرين العذاب الحسي من إحراق ومقامع وعقارب وغيرها، وسيتضمن العذاب المعنوي من ذلة و قهر ويأس وجوع وعطش..الخ.

ومثلها الآية 14 من سورة 'الانفطار' ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ والكلام ذاته يقال عن هذه الآية. والأمر ذاته في الآية 10 من سورة 'البروج': ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ حيث يشمل هذا العذاب المادي والمعنوي معا.

وكذلك في الآية 30 من سورة 'الفجر' ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ ففي الجنة النعيم المادي والمعنوي كما هو معلوم.

المجال الدلالي الثالث: نعم الله تعالى 'دلائل قدرته'.

وهي النعم التي منّ بها الله على عباده لتسيير أمور حياتهم، ولابتلائهم بها، ولتكون في الوقت ذاته دلائل على وجوده، وقدرته سبحانه وتعالى، وهي تنقسم إلى نعم مادية وأخرى معنوية. وسنتناول كل قسم من هذين القسمين منفصلا، برصد الآيات المنتمية إلى كل منهما في 'جزء عمّ'.

أ- النعم المادية:

قابلتنا آيات عديدة تنتمي إلى هذا القسم في 'جزء عمّ'، تضمنت ألفاظا تصب في هذا المجال الدلالي. وسنلجأ أحيانا إلى تناول هذه الآيات على شكل مجموعات، لأنها غالبا ما سترد على شكل آيات متصلة متتالية ضمن مجموعة واحدة. والآيات هي:

- ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝﴾(النبأ: 6-16). نلحظ أن هذه المجموعة تضمنت في معظمها نعما مادية، فقد ورد فيها ثماني نعم مادية في الآيات: 7،6، 8، 12، 13، 14، 15، 16. وثلاث نعم معنوية في الآيات: 9، 10، 11. وستتناول آيات النعم المادية، ونرجئ الأخرى إلى حينها. وتفسير ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾، أي: "جعلنا الأرض مهادا لكم، تمتهدونها وتفترشونها" وقال قتادة: "مهادا: بساطا"[1]. و ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، أي: "وجعلنا الجبال أوتادا للأرض، لئلا تميد بهم، أي تضطرب وتتمايل"[2]. أما قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: "ذكرانا وإناثا، وطوالا وقصارا، جميلين ودميمين"[3]. والمقطع: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، أي: "وسقفنا فوقكم سقفا...والسبع الشداد هي السموات السبع، وهي شداد محكمة لا صدوع فيها ولا فطور، ولا يبليهن مرّ الليالي والأيام"[4]. أمّا ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، فمعناها: "جعلنا الشمس مضيئة متقدة"[5]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾، فقد رجّح "الطبري" أن تكون المعصرات هي السحاب التي تجلب الماء، بعد أن نقل وجهين آخرين للتفسير، هما: أن المعصرات هي الرياح أو السماء[6]. ونفسه في الكشاف[7]. أمّا ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾، فمعناه: "الماء المنصب، الذي يتبع بعضه بعضا، كثج دماء البُدن بمعنى

---

(1) الطبري: مج7، ص512.

(2) السابق: ص513.

(3) السابق.

(4) السابق ص513-514.

(5) السابق: ص514.

(6) السابق.

(7) الكشاف: مج4،ص207-208.



سفكها[1]. وتفسير ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾: يريد ما يتقوت من نحو الحنطة والشعير، وما يعتلف من التبن والحشيش[2]. أمّا ﴿وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا﴾، فالمقصود بها: أشجار البساتين الملتفة المجتمعة[3].

إذاً فلدينا في هذه المجموعة القرآنية حشد من النعم المادية، دلت عليها ألفاظ متنوعة، فمن أرض مهاد إلى جبال أوتاد، إلى الخلق كأزواج إلى سبع سماوات شداد، فيهن سراج وهاج إلى الماء المنصب من المعصرات وهي السحب، وما ينشأ عنه من أنواع الحب الذي يحصد، والنبات الذي يرعى، وأشجار البساتين الملتفة المجتمعة. ونلحظ أن هذه الألفاظ قد توزعت بين صفة وموصوف، ولا أقصد المصطلح النحوي، وإنما إذا نظرنا إلى كل لفظتين مجردتين عن السياق. فالصفة مثل أرض والموصوف مثل مهاداً وهكذا. وفي كلّ الآيات ذكر الصفة والموصوف، إلاّ مع المعصرات فقد اكتفى بإيراد الصفة ولم يذكر الموصوف وهو السحاب، وأشار إليه بقرينة إنزال الماء، وكذلك لم يذكر للحب والنبات صفات، وعوّض عن إيراد الصفة لكل منهما أن جعلهما متتالين متقاربين، وكأنّ كلاً منها عوض للآخر عن صفته. ذلك أن حبا ونباتاً - فيما أرى - كلمتان عامتان تشملان أنواعا كثيرة، ولا يمكن أن تعبر عنهما صفة واحدة، كالتي عبرت عن الأرض أو الجبال.

ونرى أن ذكر الصفة والموصوف معا في معظم الآيات كان بغرض تبيان الفائدة التي تنطوي عليها كل نعمة، فصفتها هي فائدتها وعملها، ففائدة الجبال أنها أوتاد للأرض، وفائدة الأرض أنها مهاد ومستقر للإنسان وهكذا.

- ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ (النازعات:27-32). تتضمن هذه الآيات مجموعة من النعم المادية، وتتخللها نعمتان معنويتان في الآية 29 سنتناولهما في حينه. وتفسير الآيات المعنية التي تحتاج إلى تفسير هو

---

(1) الطبري: مج7، ص515.

(2) الكشاف: مج4،ص208.

(3) الطبري، مج7، ص515.

الآتي: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: "الله بنى السماء ورفعها، وجعلها سقفا للأرض، ثم رفع سمك السماء وبنيانها فسوّاها، فلا شيء أرفع من شيء، ولا شيء أخفض من شيء، ولكنها كلها مستوية الارتفاع والامتداد"[1]. ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، نقل "الطبري" وجوها عدة في تفسير هذه الآية، وبالتحديد في تفسير: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾. ولكنه رجّح قول ابن عباس: "فالله خلق الأرض، وقدّر فيها أقواتها، ولم يدحها، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، ثم دحا الأرض بعد ذلك فأخرج منها ماءها ومرعاها، وأرسى جبالها"[2]. ومعنى "دحاها" أي: بسطها ومدّها"[3]. أمّا قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾، فالمقصود بها: "فجّر فيها أنهارها، وأنبت نباتها"[4]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾، أي: "والجبال أرساها الله وثبتها في الأرض"[5].

ومجمل القول إن الآيات تتضمن النعم المادية الآتية: السماء وبنيانها المستوي المحكم الدقيق. والأرض الممدودة المشتملة على الماء والنبات. فنحن أمام أربع من النعم المادية، واحدة علوية؛ وهي السماء، وثلاث أرضية؛ هي الأرض والماء والنبات. وهي ذاتها العناصر البيئية الأساسية المتعارف عليها في عصرنا هذا، "الماء والهواء والغذاء والتربة" والتي تُنتهك انتهاكات فادحة، يعاني الإنسان منها في هذه الأيام معاناة كبيرة.

ويجدر بنا أن نلحظ أنّ هذه الآيات إلى جانب أنها تتضمن نعماً لله على خلقه، فقد سيقت كذلك بوصفها دلائل على قدرة الله سبحانه على الخلق والإبداع، ردا على منكري البعث، حيث استهلت الآيات بسؤال استنكاري: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾، ولذلك فقد وضعنا لهذا المجال عنوان: نعم الله "دلائل قدرته"، وقصدنا من ذلك أنّ النعم هي ذاتها الدلائل فلا انفصال بينهما. فسبحان الذي بنعمه رحمَ وبرهن واختبر !

---

(1) الطبري: ج7، ص537.

(2) السابق: ص538.

(3) السابق: ص539.

(4) السابق.

(5) السابق.

- ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾(عبس: 24-31). وتفسير الآيات هو الآتي: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾، أي: أنبتنا فيها العنب والقضب، والقضب هو: القت أو الرطبة أو الفصفصة أو البرسيم. قال الحسن: القضب هو العلف"[1]. أما قوله: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾، فالمقصود بها: "البساتين غلاظاً بأشجارها، والغلب: جمع أغلب، والأغلب هو الرجل غليظ الرقبة"[2]. ونقل "الطبري" أنّ بعض المفسرين ذهب إلى أنّ الغلب تعني: الطوال، وأن بعضهم قال: هي النخل الكرام[3]. وأمّا قوله تعالى: ﴿وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، فالفاكهة هي: "ما يأكله الناس من ثمار الأشجار، والأبّ هو ما تاكله البهائم من العشب والنبات"[4]. وهذا التفسير هو ما نقله "الطبري" عن "ابن عباس" وغيره من أوائل المفسّرين، وهو ذاته أورده "الصنعاني" في تفسير غريب القرآن[5]. ويبدو لي أنّ تفسير "أبّاً" بما تأكله الأنعام تؤكّده آية: ﴿مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾(عبس: 32) التي جاءت بعد تلك الآية مباشرة.

يُلحظ على هذه المجموعة من آيات النعم أنها كلها نعم مادية، نحو الطعام وتفريعاته، من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل وحدائق، وفاكهة للناس، وأبّ للأنعام، وكذلك الماء والأرض "التربة" التي هيئت للزراعة. وأنها بدأت بإجمال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، أعقبته بتفصيل قدمته خمس من الآيات 27-31. إلاّ أن هذا التفصيل قد اشتمل على ما يأكله الحيوان، بالرغم من أن الإجمال المذكور قد حصر الدعوة إلى النظر في طعام الإنسان حسبُ، وربما كان تخريج ذلك –فيما أرى – أن الأنعام هي في المحصّلة طعام للإنسان،

---

(1) الطبري: ج7، ص548.

(2) السابق.

(3) السابق: ص548.

(4) السابق.

(5) محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني: تفسير غريب القرآن، تح: محمد صبحي بن حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق، 2000م، ص82.

لحما كانت أو لبنا أو غيرهما، وما تأكله سيكون بطريقة غير مباشرة مندرجا في طعام الإنسان، وهو ما يسمّى في العلوم المعاصرة بالسلسلة الغذائية، لذا فالآية حصرت الطعام بالإنسان. في حين أن الآية التي تلت هذه المجموعة، وهي قوله تعالى: ﴿مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾ (عبس: 32)، قد جعلت المتعة للإنسان وللأنعام، ولم تحصرها في الإنسان حسبُ، وربما كان ذلك لأن شعور الأنعام بلذة تناول طعامها هو لها، في حين أن الفائدة من ذلك الطعام ستؤول إلى الإنسان؛ لأنها مسخرة له.

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾(الانفطار: 6-8). نجد أنفسنا أمام نعمة مجملة، ثم نعمة مفصلة لها. وما يهمنا في هذه المجموعة هما الآيتان 7و8. وتفسيرهما: 'خلق الإنسان بجمع أجزاء وجوده، ثم تسويته بوضع كل عضو فيما يناسبه من الموضع، على ما تقتضيه الحكمة، ثم عدله بعدل بعض أعضائه، وقوّاه بجعل التوازن والتعادل بينهما، فما يضعف عنه عضو يقوى عليه عضو، فيتم به فعله، كما أن الأكل مثلا بالالتقام فهو للفم، ويضعف الفم عن قطع اللقمة ونهشها وطحنها، فيتم ذلك بمختلف الأسنان، ويحتاج ذلك إلى نقل اللقمة من جانب في الفم إلى آخر، وقلبها من حال إلى حال، فجعل ذلك اللسان. ثم الفم يحتاج في فعل الأكل إلى وضع الغذاء فيه، فتوصل إلى ذلك باليد، وثم عملها بالكف، وعملها بالأصابع على اختلاف منافعها، وعملها بالأنامل، وتحتاج اليد ل لأخذ والوضع إلى الانتقال المكاني نحو الغذاء، وعدّل ذلك بالرجل'[1]. أما قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، فهي: 'بيان لقوله: 'عدلك'، ولذا لم يعطف على ما تقدمه. والصورة: ما ينتقش به الأعيان، ويتميّز به الشيء من غيره. و'ما': للتأكيد. والمعنى: في أي صورة شاء أن يركبك – ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة – ركبك، من ذكر وأنثى وأبيض وأسود وطويل وقصير ووسيم ودميم إلى غير ذلك، وكذا الأعضاء المشتركة بين أفراد الإنسان المميزة لها من غيرها، كاليدين والرجلين والعينين والرأس والبدن واستواء القامة ونحوها، وكل ذلك من عدل بعض الأجزاء ببعض في التركيب'[2]. إذن فالآيتان مع ما مرّ لهما من تفسير مفصل دقيق، دالتان بشكل جليّ على

(1) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص225.

(2) السابق.

نعم مادية متعلقة بخلق الإنسان، وتكامل أعضائه واعتداله وتنوّع أشكاله وجنسه ولونه.

- ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ وَٱلَّيۡلِ ۝ وَمَا وَسَقَ وَٱلۡقَمَرِ ۝ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ (الانشقاق: 16-18).

حيث يقسم الله تعالى بهذه النعم. والشفق هو: "الحمرة في الأفق من ناحية المغرب بعد غروب الشمس"[1]. وذكر صاحب "الميزان" أنه: "الحمرة ثم الصفرة ثم البياض التي تحدث بالمغرب أول الليل"[2]. أما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾، فقد "أقسم الله بالليل وما جمع مما سكن وهدأ فيه من كل روح، كان يطير أو يتحرك في النهار"[3]. وهذا إشارة إلى كل نعمه سبحانه وتعالى فالآية شاملة وجامعة. وقوله: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، أي: "اجتمع وانضم بعض نوره إلى بعض فاكتمل نوره وتبدّر"[4].

نلحظ أن الآيات السابقة من سورة الانشقاق تشتمل على نعم مادية، منها ما هو صريح كالشفق، من حيث هو ظاهرة طبيعية مرتبطة بالشمس وغروبها، وهو كذلك توقيت زمني لصلاة العشاء، كما جاء في تفسير "الطبري"[5]. وهناك نعمة الليل، وما فيه من سكون وهدوء يتيح للإنسان الراحة والسكينة، حتى يتسنّى له أن يعيد نشاطه وعمله وإنتاجه، مع بزوغ نهار جديد. والنعمة الثالثة هي نعمة القمر، وما يعطيه من نور للإنسان في لياليه، وما يقدم من زينة في سمائه، حيث إنه وسيلة توقيت زمني للإنسان، ليعرف به ابتداء الشهر العربي وانتهاءه، وحساب السنين القمرية. وعددنا الشفق والليل نعمتين ماديتين، مع أنهما ليستا مادتين محسوستين، ولكنهما ينشأان بفعل الأرض والشمس اللتين هما مادتان محسوستان.

ومما يسترعي الانتباه إلى الآيات السابقة، وما تضمنته من ألفاظ، أنها تشير إلى ظواهر ليلية تنشأ مع غياب الشمس، فالشفق والليل وبزوغ القمر كلها تحدث بعد غياب الشمس، وبشكل تدريجي. وتناغم ذلك مع الآية اللاحقة لهذه الآيات الثلاث وهي قوله: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾، التي فُسّرت بأنها "المرحلة بعد المرحلة يقطعها الإنسان في كدحه إلى ربه،

---

(1) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص283.

(2) السابق: ص245.

(3) الطبري: مج7، ص583-584.

(4) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص245-246.

(5) الطبري: مج7، ص583.

من الحياة الدنيا، ثم الموت، ثم الحياة البرزخية، ثم الانتقال إلى الآخرة، ثم الحياة الآخرة، ثم الحساب والجزاء"[1]. ويبدو لي أن تلك المراحل المحصرت بالموت والبرزخ والآخرة تناسبا مع الشفق والليل والقمر، حيث الموت هو علامة غياب الإنسان، يقابل الشفق الذي هو علامة غياب الشمس. والبرزخ الذي هو مثل غيب وظلام لعدم المعرفة به من قبل الناس، يقابل الليل الذي هو الظلام وعدم الرؤية. والقمر بوضوحه وتجليه، يقابل اليوم الآخر بتقرير المصير فيه، ووضوح اليقين ومعرفة كل الحقائق.

- ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ (البروج:1). في إشارة إلى نعمة السماء وما فيها. والملحوظ هنا استعمال أسلوب القسم للدلالة على عظمة هذه النعمة وأهميتها للإنسان. ونقل "الطبري" أقوالا عدة في تفسير معنى "البروج" في هذه الآية، حيث قال بعضهم: "البروج": القصور. وقال آخرون إنها النجوم. وقول ثالث أن "البروج" بمعنى الرمل والماء، أي السماء ذات الرمل والماء. ورجّح الطبري الرأي القائل بأنها منازل الشمس والقمر. لأن "البروج" جمع برج، وهي منازل عالية عن الأرض[2]. وفي "الميزان" فـ"البروج" هي: "مواضع الكواكب في السماء"[3]. والآيتان 1 و11 من سورة "الطارق" تشيران إلى السماء كذلك، وتشتملان على القسم بتلك النعمة المادية العظيمة أيضا. وفي الآية الاولى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾أضيف "الطارق" إلى السماء، و"الطارق" هو: "النجم الذي يطلع بالليل"[4]. أمّا الآية 11 وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾، فقد نقل "الطباطبائي" أقوالا عدة في تفسيرها، منها: أن الرجع هو الرجوع إلى الله في القيامة. أو ما يظهر للحسّ من سيرها بطلوع الكواكب بعد غروبها، وغروبها بعد طلوعها. أو أن رجعها بمعنى أمطارها[5]. وفسرها "الزمخشري" بأنها ترجع بالماء كل عام[6].

- ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ (الطارق:12). تتضمن هذه الآية نعمة مادية متمثلة بالأرض

---

(1) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص246.

(2) الطبري: مج7، ص587.

(3) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص249.

(4) السابق: ص258.

(5) السابق: ص260-261.

(6) الكشاف ج4،ص242.

التي تصدع بالنبات[1]. وقريب منها في سورة "الأعلى" في آيتيها 4-5: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝﴾، تبرز نعمة المرعى والنبات المادية كذلك. وجاء عند "الطبري" أن المرعى هو: "النبات من الأحمر والأصفر والأبيض"[2]. وأورد أنّ ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ معناها: أن الله جعله هشيما يابسا متغيرا إلى الحوّة، وهي السواد من شدة اليبس بعد أن كان أخضر"[3].

- ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝﴾ (الغاشية:17-20). في هذه المجموعة من الآيات مجموعة من النعم، أشارت إليها ألفاظ لا نجد بدّا من إحالتها على أحد كتب التفسير. وسنجد أن معنى "نصب الجبال" أي: إقامتها منتصبة لا تسقط على الأرض بقدرة الله"[4]. و"سطح الأرض" أي بسطها[5]. وأميز ما في الإبل – كما يبدو لي – هو طريقة خلقها من حيث تناسبها مع البيئة الصحراوية، ومن حيث إمكاناتها وقدراتها. وأميز ما في السماء هو ارتفاعها بهذا الشكل بلا عمد. والجبال أميز ما فيها هو انتصابها بتماسك، فلا تقع ولا تخور، وأن بداية تكوّنها هو حركات في طبقات الأرض خفية لم يعرف الناس عنها إلا حديثا. أما الأرض فأميز ما فيها هو بسطها ومدّها، إذ هي كرة دائرية لا حدّ لها لمن يمشي عليها، وهي تدور وتحقق بدورانها الليل والنهار، والفصول الأربعة. وفي ذلك ما هو معلوم من فائدة عظيمة للإنسان في جوانب حياته كلها.

- ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝﴾ (البلد:8-9) وهي أدوات المعرفة لدى الإنسان، يتوصل بها إلى الحقائق.

- ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝﴾(الشمس:1-6). وهنا يتكرر ذكر كثير من

---

(1) الكشاف ج4، ص242.

(2) الطبري: مج7، ص605.

(3) السابق.

(4) السابق: ص615.

(5) السابق.

النعم التي مرت معنا في آيات سابقة كالشمس والقمر والليل والسماء والأرض.

- وهناك نعمتا "التين" والزيتون ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ في سورة "التين". ونعمة "العاديات" وهي الخيل التي يستعملها الإنسان في معيشته وتنقله وحربه، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ (العاديات:1).

ملحوظات أسلوبية على النعم المادية في "جزء عمّ":

1- تكرر ذكر مجموعة من هذه النعم في أكثر من سورة من سور الجزء، وقد عبرت عنها ألفاظ مختلفة أحيانا. فعلى سبيل المثال تكررت الإشارة إلى نعمة السماء سبع مرات، أحياناً تصريحا بلفظها، وأحياناً بصفة لها، فذكرت في سور: "النازعات، والبروج، والطارق- مرتين -، والغاشية، والشمس، والنبأ" – بذكر صفة سبع شداد مكانها -. والأرض تكرر ذكرها ست مرات، في سور: "النبأ، النازعات، عبس، الطارق، الغاشية، وأخيرا الشمس". وتكرر ذكر الجبال في ثلاثة مواضع. وتكرر كذلك ذكر الأطعمة في مواضع عدة تناولناها في ما سبق.

ولا ريب أن الألفاظ التي تكررت في مجال النعم المادية من قبيل لفظة "السماء" قد عكس تكرارها اللافت أهمية خاصة لها، يتجاوز استعمالها العادي، ذلك أنها تنطوي على دلالات متعددة منها ما يتعلق بالخالق، ومنها ما يتعلق بالسماء نفسها، ومنها ما يتعلق بأمور أخرى مرتبطة بها. وسيأتي توضيح ذلك في النقطة التالية.

2- يبدو لي أنّ الألفاظ الدالة على النعم المادية وإن تكررت بطريقة أو بأخرى، إلا أنها في كل مرة كانت تركز على أمر مختلف، فلفظة السماء مثلا تكررت في ثمانية مواضع كما أسلفنا، ولكنها في كل مرة أسندت إلى لفظة أخرى ميزتها وأعطتها معنى خاصا ومختلفا عما هو موجود في سائر المواضع، ففي سورة "النازعات": ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ (النازعات:27)، كان التركيز على طريقة بناء السماء بدقة وإحكام وإبداع، وهذا ما أفاده تعلق السماء بالفعل "بناها"، وفي سورة "النبأ": ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، كان التركيز على تبيان شدة ذلك البناء وكذلك على كثرة عدد السماوات. وفي "البروج": ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾، فقد ركز على أن للسماء بروجا. أمّا في سورة "الطارق": ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، فالتركيز هنا على علاقة السماء بالنجوم. أمّا علاقتها بالمطر فتمّ التركيز عليه في السورة

نفسها في موضع آخر منها: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾، (الطارق:11). وهكذا مع كل النعم التي سيقت في "جزء عمّ"، فقد اقترنت في كل موضع من مواضعها بلفظة مختلفة أعطتها بعدا خاصا جديدا ومختلفا.

3- إن ألفاظ النعم والقدرة تناولت العالم العلوي المتمثل بالسماء وما فيها، والعالم السفلي المتمثل بالأرض وما فيها، وتناولت كذلك النعم على الإنسان وعلى الحيوان، وتناولت كل عناصر البيئة من نبات ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا﴾، وتراب ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾، وماء ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾، وإنسان ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾، وفضاء ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾. ثمّ إنها تناولت نعم الليل ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ ونعم النهار ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا﴾، وماء السماء: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾(عبس:25)، وماء الأرض: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾(النازعات:31). وتناولت خلق الحي من إنسان وحيوان، وخلق غير الحي من سماء وأرض وغيرها. ومجمل القول إن ألفاظ النعم المادية كانت شاملة لكل مظاهر الحياة الدنيا، حيها وجمادها، ليلها ونهارها، أعلاها وأسفلها.

ب- النعم المعنوية:

وقد عبّرت عنها مجموعة من الألفاظ اشتملت عليها الآيات الآتية:

- ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ (النبأ:9). "السبات": هو إما الراحة والدعة، أو هو قطع التصرفات النفسانية في البدن مما يسبب الراحة، وهو معنى قريب من الأول، أو أن السبات بمعنى الموت[1]. والقول الثاني اعتمده "الزمخشري" كذلك[2]. وقال "الطبري": "السبت والسبات: هو السكون، وسُمّي يوم السبت سبتا، لأنه يوم راحة ودعة"[3]. والنوم وما ينتج عنه من راحة ودعة هو نعمة معنوية أنعم الله بها على خلقه يستعينون بها في معاشهم.

- ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ (عبس:20). اختلف أهل التأويل في السبيل الذي يسره الله له، فقال

(1) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص162.

(2) الكشاف: ج4، ص207.

(3) الطبري: مج7، ص513.

بعضهم هو خروجه من بطن أمه، فالسبيل هو الرحم. وقال آخرون: أي بيّنا له طريق الحق والباطل وسهلنا له العمل بالحق. وقول ثالث: هو سبيل الشقاء والسعادة. وقول رابع: أي هداه الله إلى الإسلام، فالسبيل هنا هو الإسلام[1]. وعلى كل فالتيسير للسبيل سواء كان الرحم أو كان الإسلام أو السعادة فهو نعمة معنوية لله على الإنسان. ونرجّح أن السبيل هنا هو طريق السعادة، الذي يتقاطع مع الإسلام والحق، فالله سبحانه لا ييسّر خلقه للباطل والشقاء.

- ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى:3). "أي جعل الأشياء التي خلقها على مقادير مخصوصة وحدود معينة، في ذواتها وصفاتها وأفعالها لا تتعداها، وجهزها بما يناسب ما قدّر لها، فهداها إلى ما قدّر، فكل يسلك نحو ما قدّر له بهداية ربانية تكوينية، كالطفل يهتدي إلى ثدي أمه والفرخ إلى زق أمه وأبيه والذكر إلى الأنثى، وذي النفع إلى نفعه وعلى هذا القياس"[2]. إذاً فالنعمة المعنوية في هذه الآية تشير إليها لفظة "هدى" التي تمثل الهداية التكوينية من الله للمخلوقات. ونجد نعمة الهداية كذلك في الآية 10 من سورة "البلد": ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، أي: "علمناه طريق الخير وطريق الشرّ بإلهام منا، فهو يعرف الخير ويميّزه من الشر"[3]. والأمر نفسه في الآية 8 من سورة "الشمس": ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، أي: "إفهامها وإعقالها أن أحدهما حسن والآخر قبيح"[4]. والآية أفادت المعنى نفسه الذي أفادته آية: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، فالنجدان هما إمّا الفجور أو التقوى.

- ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ (العلق:4-5). أي: "علّم القراءة أو الكتابة والقراءة بواسطة القلم"[5]. والمعرفة والعلم هي أمور معنوية غير محسوسة يدركها الإنسان بعقله، ويصل إليها من خلال حواسه.

- ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝﴾

---

(1) الطبري: مج7، ص526.

(2) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص265.

(3) السابق: ص292.

(4) الكشاف: ج4، ص258.

(5) الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص324.

(قريش:4). في هذه الآية تبرز نعمة الأمن بوصفها نعمة معنوية، ذلك أن أهل مكة كانوا تجارا يرتحلون للتجارة صيفا وشتاء، فلا يغار على قوافلهم لأنهم أهل الحرم تعظيما لهم. وقيل: أمنهم من الجذام. ورجّح الطبري كل هذه الأقوال، حيث ذكر أن الآية عامة في تأمين الله لهم من كل مخوف يخاف منه[1].

ملحوظات على النعم المعنوية في "جزء عمّ":

1- يلحظ أن النعم المعنوية كانت قليلة في "جزء عمّ" قياسا إلى النعم المادية، فالنعم المعنوية في "جزء عمّ" أربع، هي: النوم والهداية والعلم والأمن. في حين نافت النعم المادية على الخمس عشرة نعمة، بعضها مفصل وبعضها مجمل، وجزء كبير منها تكرر في ثنايا الجزء حتى بلغ التكرار ببعضها إلى سبع مرات كما لاحظنا في نعم السماء والشمس، وذلك إمعانا في الإشارة إليها والتركيز على أهميتها، ودورها في حياة الإنسان والمخلوقات.

ويبدو لي أن قلة ذكر النعم المعنوية في "جزء عمّ"، سببه أن واقع النعم المعنوية على الإنسان هو أقل من ناحية العدد من النعم المادية، وإن كان هو الأكثر أهمية وأثرا في حياته وتقرير مصيره، نحو نعمة الهداية والعلم والعقل، فهي نعم لا تقاس بها أية نعمة مادية، من حيث أهميتها وعظم حضورها في حياة الإنسان. وربما لأن الناس في معظمهم ليس لديهم ذلك الوعي الكافي بالمعنويات، والمعرفة ووسائلها، والدين والعقيدة والغيبيات، بل جل تفاعلهم بالمجردات والمحسوسات المادية التي تقابلهم في حياتهم اليومية، وتشكل أساسيات وضرورات ترتكز عليها معايشهم.

2- إن أكثر النعم المعنوية ذكرا وتكراراً في "جزء عمّ" هي نعمة الهداية للإنسان بشقيها: الهداية التكوينية، وهي إلهام الله تعالى مخلوقاته سبل معايشها وطرائق تحركاتها في الحياة، من قبيل التكاثر والطعام وغيرهما. وهذا النوع عبرت عنه الآية: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى:3). والشق الثاني: هو الهداية التشريعية أو التكليفية، وقصد بها: هداية الله سبحانه لخلقه المكلفين إلى طريقي السعادة والشقاء من خلال تعريفهم كلا الطريقين، وإعطائهم

---

(1) الطبري: مج7، ص700-701.

العقل للتمييز، وتكريمهم بحرية الاختيار[1]. وتكرر ذكر الهداية بشقيها خمس مرات، واحدة منها للهداية التكوينية، وأربع للهداية التشريعية، وهي الآيات: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾. وهذا دلالة واضحة على أهميتها ودورها العظيم في حياة الإنسان، بوصفها نعمة معنوية يتحدد مصيره الأبدي بناء عليها، ليس هذا فحسب، بل تحدد من خلالها معالم حياته الدنيوية، وتحركه فيها إيجابيا كان أو سلبيا.

ونلحظ كيف تنوعت الأساليب والألفاظ في التعبير عن معنى الهداية، إذ استعملت لفظة 'السبيل' تارة للتعبير عن الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الإنسان، أو هو تعبير عن الطريقين: التقوى والفجور. وتارة عبر عن ذلك الطريق نفسه بكلمة 'النجدين'، وتارة ذكر هذين النجدين تصريحا 'فجورها وتقواها'، وقابلت لفظة 'ألهمها' لفظتي 'يسره' و'هديناه' في الآيتين المذكورتين. ومرة كان الحديث عن الإنسان: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ و ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، إذ الضمير في 'يسره' وفي 'هديناه' عائد إلى الإنسان. ومرة أخرى كان الحديث عن الإنسان، ولكن بتعبير 'النفس': ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، إشارة إلى دور النفس في تلقي الإلهام الرباني المتمثل بالفعل المميز والفطرة السليمة، حيث إنَّ النفس هي مجموع اتحاد الروح الإنسانية مع الجسد الإنساني، وهو الاتحاد الذي تصطرع في ثناياه القوى المختلفة من غضب وشهوة وخيال وعقل، ويتحدد نتيجة هذا الصراع مصير الإنسان في آخرته.

---

(1) انظر: الطباطبائي: تفسير الميزان، مج20، ص264، وكذلك ص304-305.

الفصل الثاني

الاستعمال الصرفي في "جزء عمّ"

توطئة:

الأسلوبية الصرفية، التي هي أداة لدراسة التعبير اللغوي في إطار المنهج الوصفي الأسلوبي، تتمحور حول الطاقة التعبيرية الكامنة في الكلمة الواحدة. حيث تتناول هذه الأداة الكلمة من جهة الصياغة والاشتقاق، بشرط أن تكون في سياق أدبي يتيح المجال لفعالية إيحائية تتجاوز الوظيفة الإعلامية، ومعتمدة على تعدد المعنى، وعلى البعد التاريخي للغة الأدبية[1].

وبما أن القرآن المجيد قد نزل بلسان عربي مبين، فهو يتضمّن تشكيلات اللغة العربية كافة؛ نحوية وصرفية وبلاغية، ويتضمن كذلك أدوات التأثير اللغوية ذاتها التي تتضمنها اللغة العربية، ولكن بالشكل الكامل الذي لا يدانيه أي وجود لغوي آخر. فمنشئ لغة القرآن هو الرب العليم الذي يعلم الجهر وأخفى، ويعلم ما يصلح لخلقه من وسائل التأثير والإقناع، لأنه أقرب إليهم من حبل الوريد، ولأنه الخالق الذي أتقن كل شيء صنعا، وهو ما نجده فعلاً في النظم القرآني العظيم.

ومن الناحية الأسلوبية التي هي محور اهتمامنا في هذه الدراسة، فإن التشكيل الصرفي في بعض مستوياته يدخل في نطاق الانزياحات الاستبدالية التي تخرج على قواعد الاختيار للرموز اللغوية، مثل وضع المفرد مكان الجمع، أو الصفة مكان الموصوف[2].

ونجد صدى ذلك في الاستخدام الصرفي للألفاظ في "جزء عمّ". إذ إنّ التشكيلات الصرفية المقصودة في الجزء تؤدي إلى ترسيخ فهم معين في ذهن المتلقي، يهدف إليه القرآن الكريم على أساس أنه كتاب ديني يتضمن التشريع والدعوة والإنذار. وربما يعمد القرآن الكريم إلى فرض احتمالات عديدة للفهم على ذهن المتلقي إذا كان ذلك يخدم هدف القرآن، كما سنرى لاحقا.

وفي دراسة المستوى الصرفي لـ"جزء عمّ" تقابلنا مجموعة من العنوانات الصرفية التي وظّفها القرآن الكريم توظيفاً فنيا رسم معالم واضحة لأسلوبه التعبيري. ومن هذه العنوانات:

---

(1) أبو العدوس: **الأسلوبية:الرؤية والتطبيق**، ص103-104.

(2) السابق: ص188.

أولاً: إحلال صيغ محلّ أخرى:

وهي بدورها تتفرع إلى أربعة عنوانات:

أ- وضع المشتق موضع الجامد.

يعمد القرآن إلى التعبير عن اسم جامد بآخر مشتق لهدف فني أو بلاغي، ذلك أن الاسم المشتق يكون ذا دلالات متعدّدة بعكس الجامد المحدّد الدلالة، وهذا من شأنه أن يثري المعنى ويبعده عن التقريرية المباشرة[1]. ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ (النازعات:1-5)، في هذه الآيات عبّر القرآن عن الجوامد بالمشتقات، وهذا جعل الاحتمالات متعدّدة عند تفسيرها. فالنازعات على سبيل المثال فُسّرت تفسيرات عدّة: منها أنها الملائكة تنزع نفوس بني آدم. أو هي الموت ينزع النفوس. أو النجوم تنزع من أفق إلى أفق. أو القسيّ تنزع بالسهم. أو النفس حين تنزع[2]. والأمر نفسه في تعدّد احتمالات التفسير مع الناشطات والسابحات والسابقات والمدبّرات[3].

هذا في حال كانت المشتقات معارف، والمعرفة كما هو معلوم تدلّ على معيّن، ومع ذلك تعددت احتمالات التفسير كما رأينا، وتتعدّد الاحتمالات أكثر إذا كانت المشتقات نكرات، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ (البروج: 1-3)، حيث شاهد ومشهود هنا لفظتان مشتقتان ونكرتان في آن، لذا فقد كثرت احتمالات تفسيرهما بدرجة لافتة، وقد مرّت معنا أوجه تفسيرهما في موضع سابق من هذا البحث، ولا بأس أن نذكر بعضا منها في هذا المقام، حيث فُسّر شاهد بأنه يوم الجمعة. أو هو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. أو هو الإنسان. أو هو الله تعالى. أو يوم الأضحى. في حين فُسّر مشهود بيوم عرفة. أو القيامة. أو يوم الجمعة[4]. وغيرها من التفسيرات توسّع فيها الفخر الرازي في تفسيره[5]. حيث

---

(1) محمود نحلة: **دراسات قرآنية في جزء عم**، دار العلوم العربية، بيروت، 1989م، ص232.

(2) الطبري: التفسير، مج7، ص528.

(3) السابق: ص529-530.

(4) السابق: ص588.

(5) انظر: الرازي، **التفسير الكبير**، ج31، ص113-115.

وصلت الأقوال فيهما إلى ثلاثين قولا[1]. والذي أدّى إلى تلك الكثرة في احتمالات التفسير هو: "وضع المشتق موضع الجامد ولإضافة التنكير إليه قصدا إلى هذا الغموض الفني الذي يترك للذهن حرية التفكير في استنباط المعنى فيكتسب بذلك هذه الثروة من المعاني أو احتمالاتها"[2].

ب- وضع الجامد موضع المشتق:

بأن يعمد القرآن إلى أسماء المعاني لا أسماء الذوات فيضعها موضع الأسماء المشتقة. إذ إن لأسماء المعاني قدرة للتعبير ليست للمشتقات[3]. قال ابن يعيش: "قالوا: رجل عَدْل ورضا وفضْل، كأنّه لكثرة عدله، والرضا عنه، وفضله، جعلوه نفس العدل والرضا والفضل"[4]. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾(النبأ:21-26). "فالوفاق" هو مصدر "وافق" بمعنى مائل أو ضارَع، وقد عدل القرآن الكريم عن وصف الجزاء باسم مشتق نحو: جزاء موافقاً، إلى وصفه بالمصدر لتأكيد معنى موافقة العقاب لجنس ما كان يعمل أولئك الكافرون. ولعل القرآن أراد أن يقول إنّ العقاب الذي استوجبوه هو الوفاق بعينه لما كانوا يعملون. وهذه اللفظة الدقيقة لا تصلح أن تحل محلها لفظة أخرى مثل "موافقاً" مثلا. وهي قدمت في الوقت ذاته فاصلة موافقة مع الفاصلة التي قبلها في الرويّ. ولم يؤت بها مراعاة للفاصلة كما قد يذهب بعضهم، وسيأتي ذكرهم، بل تطلّبها المعنى الدقيق.

ونجد نحو ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ (النبأ:31-34)، حيث وصفت الكاس هنا باسم المصدر "دهاق" من الفعل "أدهق" أي أترع وملأ بدلا من المفعول "مُدْهَق"، أي بدلا من القول: كأساً مدهَقة، فقد قال: "كأساً دهاقا"، وكأنّها إشارة إلى أنّ هذه الكأس لا تفرغ أو تنقص أبدا، فهي بامتلائها الدائم كأنها الدهاق "الامتلاء" بعينه.

---

(1) الطباطبائي: الميزان، مج20، ص250.

(2) محمود نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص236.

(3) السابق.

(4) موفق الدين بن يعيش النحوي: شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ج3، ص50.

ج- وضع المجرّد موضع المزيد:

كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا﴾(النازعات:1)، فجاء في التفسير أن 'غرقا' هنا بمعنى 'إغراقا'، فيكون معنى الآية: نزعت النفوس بشدّة. وهو مأخوذ من قولهم: 'نزع في القوس فأغرق' يقال أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المدى حتى ينتهي إلى النصل[1]. وقد استخدم القرآن 'غرقا' بدلا من 'إغراقا' للدلالة على منتهى الشدة في النزع. وربما أن 'غرقا' - فيما أرى - هي صفة لمصدر محذوف هو 'نزع'، والتقدير: والنازعات نزعا غرقا، أي نزعا عميقا كناية عن شدته. فهو من شدته كأنه الغرق بعينه. ولا نظن أن ذلك كان مراعاة للفاصلة كما قيل[2].

د- وضع المشتق موضع المشتق:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝﴾(التكوير:19-21). و'أمين' هنا بمعنى 'مؤمن' عُدل عنها لندرة استعمالها، ولإثبات الأمانة صفةً ملازمة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم. إذ إنّ 'أمين' هي صفة مشبهة على وزن 'فعيل' وهي كذلك من أوزان صيغة المبالغة.

ونجد ذلك أيضا في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾(التكوير:25)، أي 'مرجوم'. ولكن 'رجيم' أنسب، إذ هي صفة ملازمة للشيطان. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾(الإخلاص:2). أي 'مصمود' بذاته، إلا أن 'صمد' هي الأنسب لملازمتها للواحد الحي القيوم سبحانه.

ثانيا: تعدد الصيغ "الأوجه" للفظة الواحدة.

يورد القرآن في 'جزء عمّ' مجموعة من الألفاظ تنصرف إلى أكثر من صيغة، 'وهذا من اللبس الحاذق والمقصود، لا يسلم سرّه لكل أحد فهو مما يسمونه 'المطمع الممتنع' إذا رأيته حسبته سهلا، فإذا حاولته عزّ المنال'[3]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾

(1) الرازي: 'التفسير الكبير'، ج31، ص27.

(2) محمود نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص239.

(3) السابق: ص242.

(النبأ: 39)، فـ 'مآب' وزنها الصرفي 'مفعَل'. وهذا الوزن يصلح أن يكون اسم زمان، واسم مكان، ومصدرا ميميا. فإنْ صُرف إلى أنه اسم زمان كان المعنى: من شاء اتخذ إلى ربه وقتا يؤوب فيه. وإنْ صرف إلى أنه اسم مكان فالمعنى: من شاء اتخذ إلى ربه طريقا للتوبة. وإن حُمل على أنه مصدر ميميّ فهو بمعنى 'الرجوع'، أي من شاء اتخذ إلى ربه رجوعا بمعنى توبة. وليس هناك من راجح أو مرجوح. فيؤخذ بهذه الصيغ جميعا. ونرى أن الغرض البلاغي وراء هذا الاتساع في المعنى هو التأكيد على يوم البعث وأحقيته، وضرورة حضوره الدائم في تفكير الإنسان، فهو يوم تقرير المصير، لذلك فالمعنى في لفظة 'مآب' شمل الزمان والمكان، وشمل المصدر.

ونحو ذلك قيل عن 'مفازا' في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾(النبأ: 31)، فهي إما مصدر، وإمّا اسم مكان، وليس من مرجّح. ونحو ذلك أيضا قيل عن 'معاشا' و'ميقاتا' في سورة 'النبأ' و'المرصاد' في سورة 'الفجر' في آيتها 17، فكلها ألفاظ تحتمل أكثر من صيغة، وليس في سياقاتها ما يرجّح صيغة منها على الأخرى[1].

ثالثا: الحذف في الصيغ

الحذف الذي نقصده هنا هو 'عدم الذكر'. وليس أن الكلمة كانت موجودة ثم حذفت. فالقرآن منزه عن ذلك. والحذف في الصيغ المشتمل عليه 'جزء عمّ' نوعان: نوع يقع في أول الصيغة، ونوع يقع في آخرها. فالذي يقع في أوّلها فهو حذف الصامت إذا تلاه صامت مثله، كي لا يتوالى صامتان متماثلان. كحذف 'التاء' الأولى من الفعل 'تتزكى' لتصبح 'تزكّى' في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾(النازعات:18). وربما قصد دعوته إلى التزكية في مرحلتها الأولى على الأقل متمثلة بالفعل المخفف. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾(الفجر: 18)، حيث حذفت 'التاء' الأولى من 'تتحاضون' لتصبح 'تحاضون'. ولعله قصد أنهم مقصرون حتى في الحض الخفيف على الطعام فضلاً عن الحض الكبير الذي قد يمثله وجود التاءين معاً في الفعل. ونحوه في 'تلظّى' في الآية 14 من سورة 'الليل'. وربما قصد أنها تلظى الآن مخففة، قياساً إلى ما ستكون عليه حين ملاقاة الكفار، عندها تتلظى، مصداقا لقوله تعالى: 'وإذا الجحيم سُعّرت' أي زيد في إضرامها. وفي

---

[1] محمود نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص244-245.

الفعل "تنزّل" في سورة "القدر" آية 4. وربما كان هذا التخفيف بعدم ذكر التاء الثانية إشارة إلى أن الملائكة يتنزلون بتؤدة وخفة وخشوع، والفعل "تصدى" في "عبس" آية 6. ربما إشارة إلى لين الرسول وأسلوبه الرفيع في التصدي للناس بالدعوة إلى الله تعالى.

أمّا الحذف في آخر الصيغة فلم يقع في "جزء عمّ" إلا في الكلمات التي تكون فواصل للآيات[1]. كقوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝﴾ (الفجر:1-5)، فحذفت "الياء" من "يسري" وصارت "يسر"، مما دعا بعض الدارسين إلى تعليل ذلك بمراعاة الفاصلة كما مرّ. ونجد ذلك أيضا في قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ (الفجر:9)، فهنا حذفت "الياء" من "الوادي" فصارت "الواد". وحذفت كذلك من "أكرمني" لتصبح "أكرمن" ومن "أهانني" في الآيتين 15-16 من السورة ذاتها. وعُلّل ذلك بتحقيق السلاسة اللفظية بعدما كثرت "المدّات" أو الصوائت الطويلة في السياق[2].

رابعاً: اختيار الصيغ

القرآن الكريم يتميز في اختيار الصيغة وإحلالها محلّها الملائم، حيث لو أريد لصيغة أخرى أن تحلّ محلّها لأخلّ ذلك بجمال التعبير وبدقة المعنى المراد. مثال ذلك صيغة "يتفاعل" الدالة على المشاركة في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝﴾ (النبأ:1-3). و"النبأ" العظيم هو يوم البعث، وقيل القرآن[3]. وما كان أنسب من صيغة "يتفاعل" في هذا السياق للدلالة على ردّة فعل الكفار تجاه القرآن أو تجاه خبر البعث الذي فيه، حيث شرعوا يسائلون بعضهم بعضا متعجبين من هذا الأمر العظيم. وقد جاء هذا التساؤل بعد استهلال السورة بسؤال هو "عمّ" فكان سؤالاً عن تساؤل، وهو أسلوب بديع من مراعاة النظير[4].

---

(1) محمود نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص247.

(2) السابق: ص248.

(3) الطبري: التفسير، مج7، ص511.

(4) ابن عاشور: "التحرير والتنوير"، مج15، ص7.

واختار القرآن في "جزء عم" اسم المرة "زجرة" في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (النازعات:13). ووصفها بـ "واحدة" مؤكداً، ليشير إلى سرعة وقوع نفخة البعث وعدم تكررها. ثم نجد القرآن يعمد إلى صيغة "تفعّل" الدالة على التكلف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾(الانشقاق: 3-4)، حيث تتكلف الأرض إلقاء ما بها، وتقوم بالأمر على أتمّ وجه حتى لا يبقى في بطنها شيء، وذلك استجابة منها للأمر الإلهي القاضي بالبعث والنشور.

وفي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾ (الفجر:27-30). فلنا أن نتأمل في لجوء القرآن الكريم إلى صيغتي اسم المفعول واسم الفاعل "راضية، مرضية"، فهي راضية ومزيدة مما ترضى له، لأنّ المرضي عنه يزاد في إكرامه عن الحد الذي يرضيه[1]. ونتأمل في السياق نفسه فعل المطاوعة "اطمأنّ"، والمطاوعة "تقتضي حدوث الفعل من الداخل إن جاز التعبير أي أن الاطمئنان ليس شيئاً خارجا عن النفس، ولا ممنوحاً لها وإنما هو نابع من داخلها"[2].

خامساً: الصيغ المركّبة.

مثل: "قد كان فعل"، "كان قد فعل"، "كان فعل". وهي صيغ لم تكن موضع اهتمام من قبل النحاة العرب القدماء، بل مروا بها مرور الكرام، ولم يحفلوا بمناقشتها والخوض في دلالات استعمالاتها والغرض من استحداث اللغة لها[3]. وتعاملوا مع صيغة كـ "كان فعل" على أساس أنها مؤلفة من فعلين مستقلين، وربما تناولوها تناولاً نحوياً بدون اعتبار لدلالة اتصال الفعلين، وبدون أن يلحظوا أثر الاستعمال في تلازمهما وجعلهما مركبا له دلالة واحدة ويعبر جزآه معا عن وقوع الحدث، وهو هنا "المشاهدة" في الماضي البعيد[4]. والصيغ "كان فعل، كان قد فعل، قد كان فعل" وما

(1) ابن عاشور: "التحرير والتنوير"، مج15، ص343.

(2) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص251.

(3) السابق: ص227.

(4) مهدي المخزومي: في النحو العربي: نقد وتوجيه على المنهج العلمي الحديث، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ط1966،2، ص148-149.

على مثالهن، تستعمل للتعبير عن وقوع الحدث في الزمان البعيد. أمّا صيغة كان يفعل وما على شاكلتها، فتستعمل للتعبير عن استمرار الحدث في فترة من الزمن الماضي[1].

أمّا سبب تناولنا لهذا الموضوع ضمن المستوى الصرفي فذلك أن هذه الصيغ المركبة من كان - أو إحدى أخواتها - والفعل، تدل بتركيبها على معنى لايتحقق بـ كان وحدها، أو بالفعل وحده[2].

والصيغ المركبة في جزء عمّ انحصرت في خمسة مواضع. وكلها بصيغة كان يفعل. أربعة منها كان فيها المضارع مُثبتاً، وصيغة واحدة نفي فيها المضارع بـ لا، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ (النبأ:27). أما المواضع التي أثبت فيها المضارع فهي قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:14). وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ (المطففين:17). وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾(المطففين:29). وقوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(المطففين:36). ويلحظ أن سورة المطففين استحوذت على معظم هذه الصيغ المركبة في جزء عمّ. وكلّ الصيغ المذكورة دلت على الاستمرار، في إطار توظيف فنيّ يتضح عند تحليل الصيغة بجزئيها كان والفعل، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، نجد أن نفي رجاء الكافرين الحساب على سبيل الاستمرار بيان لفداحة جرمهم وإصرارهم عليه.

والأمر نفسه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ (المطففين:17)، فالتكذيب منهم مستمر متجدد لا ينقطع. وحول الصيغة المركبة في قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:14)، يقول ابن عاشور: والتعبير بفعل الكون في قوله ما كانوا يكسبون دون أن يقال ما كسبوا ليدل على أن الذي ران على قلوبهم هو شيء استقر كسبهم إياه من زمن قديم، والتعبير بالمضارع في قوله: يكسبون للدلالة على تكرار كسبهم ومعاودته، فيحصل من اجتماع معنى الاستقرار والتكرر أن كسبهم إياه متكاثر، وذلك يقتضي أنه قد صار سجية

---

(1) مهدي المخزومي: في النحو العربي، ص156.

(2) لحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص230.

وملكة لهم بحيث يتعسر إقلاعهم عنه، وإذا كان كذلك كان حائلا دون قلوبهم عن العلم بأن آيات الله ليس بأساطير الأولين"[1].

سادساً: البناء للمجهول "المغايرة في الصيغ".

يقول كمال بشر: "من صميم البحوث الصرفية كذلك دراسة المغايرة في الصيغ كما في المغايرة بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول"[2]. ومن هذا المنطلق تناولنا هذا الموضوع في إطار المستوى الصرفي. ويعمد القرآن الكريم في "جزء عم" إلى التعبير بصيغة المبني للمجهول لأغراض عدة منها:

أ- تعلّق الغرض بغير الفاعل:

وغالبا ما يبرز ذلك عند تناول القرآن ليوم القيامة وتصوير الأهوال المتعلقة بها، فلا يُذكر الفاعل لأن الغرض لا يتعلّق به ويبني الفعل للمجهول. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝﴾ (النبأ:18-20)، وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝﴾(التكوير:1-4). وغيرها الكثير. ويعلّق ابن عاشور على الآية الأولى مما ذكرنا فيقول: "وبني ينفخ للمجهول لعدم تعلق الغرض بمعرفة النافخ، وإنما الغرض معرفة هذا الحادث العظيم، وهو دعاء الناس للحضور إلى الفصل"[3]. وربما كان الغرض تعظيم الفاعل.

ب- تعلّق الغرض بالفاعل وإنْ حُذف:

ففي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝﴾(الغاشية: 1-5)، بُني الفعل "تُسقى" للمجهول، ولم يُذكر فاعله مع تعلق الغرض به للدلالة على فعل إرغام الكافرين على شرب ماء شديد الحرارة

---

(1) ابن عاشور: "التحرير والتنوير"، مج15، ص98.

(2) كمال بشر: مفهوم علم الصرف، ص112.

(3) ابن عاشور: "التحرير والتنوير"، مج15، ص31.

يقطّع أمعاءهم لا يمكن أن يبادروا هم إلى شربه مـا لم يجبروا على ذلك، وذلـك إمعانـاً في إهـانتهم وإذلالهم[1].

ويلجأ القرآن الكريم أحيانا إلى عدم ذكر الفاعل بالرغم من تعلّق الغرض به، ومن ثمّ بنـاء الفعل للمجهول في مقام التذكير والحث على التفكّر[2]. كما هو في قوله تعـالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝﴾ (الغاشية:17-20)، فلم يصرّح القرآن بالفاعل في الآيـات الـسابقة، لأن الهدف أن يتفكّر أولئك الكفار المشككون فيه، ويتوصلوا إلى معرفته مـن خـلال آياتـه ومظـاهر قدرته سبحانه.

ج- الدعاء

يستعمل القرآن في معرض هذا الغرض الفعل الماضي للمجهول "قُتِلَ"، كما في قولـه تعـالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾(عبس:17). وقوله تعـالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ (الـبروج: 4). فالآيتان تتضمنان جملتين دعائيتين مفادهما الدعاء على الإنسان الجاحد، وعلى أصـحاب الأخـدود بالقتل. ولكن الغرض منهما التعجّب والإنكار. وهذا أسلوب عربـي صـميم درج عليـه العـرب في لغتهم. يقول "ابن عاشور": "وقُتل: دعاء بالقتل، وهو الموت بفعل فاعل، والعرب يستعملونه في معنـى التعجّب من أمر منكر، وفي معنى إظهار الغضب، كما يستعملون "ويك" و"تربت يمينه" و"ثكلتـه أمـه"[3]. غير أن "ابن عاشور" أورد آراء اخرى، منها انّ جملة ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾قد تكون جواب القسم الذي استهلت به السورة، والتقدير: لقد قتل أصـحاب الأخـدود. أوهـي إنـشاء شـتم لهـم فهـم لم يقتلوا، أي الفعل "قتل" ليس بخبر، بل شتم، نحو قوله تعالى: "قُتل الخراصون" ويفيد الوعيد[4]. وبحسب هذا الرأي ينتفي غرض الدعاء.

---

(1) محمود نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص198.

(2) السابق.

(3) ابن عاشور: "التحرير والتنوير"، مج15، ص236.

(4) السابق.

الفصل الثالث

المستوى الصوتي في "جزء عمّ"

توطئة:

إنّ وفرة موسيقى الألفاظ في لغتنا العربية هي ميزة من مزاياها الكثيرة. فالحروف والأصوات العربية "واسعة الأفق، كاملة في مدرجها الصوتي، حسنة التوزيع للحروف والأصوات في هذا المدرج، متميّزة المخارج والصفات، ثابتة الأصوات عبر القرون، يتوارثها جيل بعد جيل، متنوعة الوظائف في بنية الكلمة. لكل نوع من الحروف والأصوات وظيفة في تكوين المعنى، وتثبيت أصله وقراره، وتنويع شكله وألوانه، مع تناسق بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة، وتوافق بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية المقصودة"[1]. وهي طبيعة قيّضها الله سبحانه للعربية لتقوم سبباً مهمّاً يعزى إليها إعجاز القرآن فيما بعد[2].

والأسلوبية الصوتية هي فرع من فروع المنهج الوصفي في التحليل الأسلوبي، وهي أنموذج تطبيقي قدمه "بالي". فالمادة الصوتية المتمثلة بالتنغيم والإيقاع والتكرار القائم على التردد والهبوط والصعود، هذه المادة تتضمن طاقة تعبيرية كبيرة ببعديها الفكري والعاطفي[3]. وإذا تواءم الصوت مع العاطفة والدلالة فإن ميدان التحليل الأسلوبي سوف يكون واسعا، وسيضم التقويم إلى جانب الوصف[4].

وحدّد "تروبتسكوي" في كتابه "المبادئ الصوتية" صور الأداء الصوتي في الأسلوبية الوصفية، وجعلها ثلاثا هي: الصوتية التمثيلية، التي تدرس الصوائت بوصفها عناصر لغوية موضوعية وقاعدية. والنوع الثاني: الصوتية الندائية، أو الانطباعية، وهي تتناول المتغيرات الصوتية التي تتوخى التأثير على السامع. وأخيرا: الصوتية التعبيرية، وهي تدرس المتغيرات الناجمة عن المزاج، والسلوك

---

(1) محمد محمد المبارك: **خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد**، مطبعة نهضة مصر، 1960م، ص25.

(2) مصطفى صادق الرافعي: **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط6، 1956م، ص243-244.

(3) صلاح فضل: **علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته**، ص22.

(4) أبو العدوس: **الأسلوبية: الرؤية والتطبيق**، ص101.

التلقائي للمتكلم. والنوعان الأخيران هما محور الأسلوبية الصوتية[1].

وتتشكل المتوالية الصوتية من ثلاثة عناصر رئيسية، هي: المقطع، والكلمة، والجملة. وهذه العناصر لا تكتسب الفعالية إلا في سياق لغوي لا يصبح واقعا إلا بالرأي الخاص. والعناصر الأسلوبية تجد مكانا لها بين ذلك الواقع والكلمات المجردة. وهي العملية التي سماها "هومبولت" الشكل الداخلي للغة، ونجدها عند "هوسرل" باسم عملية إعطاء المعنى. والشكل الداخلي للغة يتطابق مع الأسلوب كما يرى "جونتر إبسن"[2].

ويجدر بالذكر أن استئناسنا بالأسلوبية الصوتية هنا ليس الغرض منه اختبار الطاقات التعبيرية العاطفية والشعورية عند الخالق عز وجل منشئ القرآن، كما تهدف الأسلوبية التعبيرية. بل إننا نفيد من أدوات التحليل والمصطلحات المستخدمة في تلك الأسلوبية في تناولنا للجانب الصوتي الإيقاعي القرآني في "جزء عم"، وهو تناول له خصوصيته المستمدة من خصوصية النص القرآني، وليس بالضرورة أن نتتبع معطيات الأسلوبية الصوتية وتطبيقاتها على الأصوات الحية لاستجلاء الأساليب. وإنما نحاول أن نتصور أن الخطاب القرآني هو صوت حي داخل مشاعرنا و تأثراتنا المختلفة يمكننا أن ندرسه ونحلله. ذلك أن النظم القرآني المعجز يتسم "بدقة وضع كلماته وجمله، والدقة في اختيارها وأدائها، والإحكام في سبكها ونسقها، ومتانة اتساق أجزائها مع ما لحروف الكلمة من توزيع حسن، وترتيب دقيق، وإخراج سليم عند النطق"[3]. فالقرآن وحدة تركيبية متراصة متلاحمة في وحدة فنية رائعة[4]. وفي ذلك يقول "محمد المبارك": "... وقد بلغت هذه الخاصية الموسيقية ذروتها في التركيب القرآني الرائع حيث تتناسق المعاني والنغمات والفكرة والجرس أحسن تناسق"[5].

ويقول "أحمد أبو زيد": إنّ للقرآن روعة وإنّ جانبا من تلك الروعة يرجع إلى جمال الإيقاع. ومعلوم أن ذلك الجمال الإيقاعي ينبع من التناسب بين العناصر الصوتية واللفظية أي من

---

(1) أبو العدوس: **الأسلوبية: الرؤية والتطبيق**، ص101.

(2) ليوزف شتريلكا: "الأسلوب الأدبي" من كتاب: **مناهج علم الأدب**، ترجمة مصطفى ماهر، مجلة فصول، مج5،ع1، 1984م،ص78.

(3) مصطفى صادق الرافعي: **تاريخ آداب العرب**، ضبط وتصحيح: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ج2، 1953، ج3، 1954، ج2،ص237.

(4) عمر السلامي: **الإعجاز الفني في القرآن**، مؤسسات عبدالكريم عبدالله، تونس، 1980م، ص225.

(5) محمد المبارك: **خصائص العربية**، ص39.

الأصوات اللغوية والحركات والمقاطع الصوتية، ومن توازن الفقرات والآيات، و من تماثل الفواصل والغايات"[1].

جرس الألفاظ

جرْس: بفتح الجيم وكسرها، يعني الصوت، والنغمة، وجرس الحرف نغمته[2]. والقرآن الكريم بلغ المنتهى في دقة اختيار اللفظ المناسب للمعنى، وبالنظر إلى ما بين الألفاظ من دقيق الفرق ولطيف التميز، فهو يتميّز باستخدام كل لفظ بحيث يحقق المعنى بدقة متناهية، حيث يضع الألفاظ مواضعها التي لا تصلح لها ألفاظ أخرى، فليس من كلمة أخرى تؤدي ما تؤدي أختها من معنى في موضع بعينه ساقها القرآن فيه[3]. وكذلك فإنّ "النظم القرآني يراعي في توزيع الأصوات وتأليفها ما يناسب المعاني والأغراض ونوع التأثير الذي يريد إثارته في نفوس المخاطبين"[4].

ويزيد "مصطفى صادق الرافعي" موضوع النظم الصوتي في القرآن إضاءة، إذ يقول: "إنّ الطريقة التي اتسقت بها ألفاظ القرآن، وتألفت بها حروف هذه الألفاظ إنما هي طريقة يتوخى بها إلى أنواع من المنطق، وصفات من اللهجة، لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، ولكنها ظهرت فيه أول شيء على لسان النبي ﷺ فجعلت المسامع لا تنبو عن شيء من القرآن، ولا تلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن لم يسمعه بد من الاسترسال إليه، والتوفر إلى الإصغاء"[5].

ويضيف "الرافعي": "وأصوات الحروف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلا بد لها مع ذلك من نوع من التركيب، وجهة من التأليف، حتى يمازج بعضها بعضا، ويتألف منها شيء مع شيء، فتتداخل خواصها، وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحن الموسيقي، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضاً على نسب معلومة، ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده"[6].

---

(1) احمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس، المغرب، 1992م، ص289.

(2) الزبيدي: تاج العروس، ج، ص، مادة "جرس".

(3) أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، ط3، 1950م، ص57، 105.

(4) احمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص307.

(5) الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص213.

(6) السابق: ص213.

وأوضح "الرافعي" أن من الخصائص التي انفرد بها القرآن، وباين بها سائر الكلام، أنه لا يخلق على كثرة الردّ، وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة، وقال: "لا وجه لتعليل ذلك إلا إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية، وتساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمدّ والغنّة ونحوها، ثمّ اختلاف ذلك في الآيات بسطاً وإيجازاً، وابتداء ورداً، وإفراداً وتكريراً"[1].

وفي كلام "الرافعي" السابق ما يروي الظمأ في تبيان تميز الأداء الصوتي في القرآن الكريم، والذي هو من مزاياه التي انفرد بها بل استحدثها للعرب، وما كانوا يعرفونها، وكيف أن هذا الإعجاز قام في ما قام على تناسب الحروف والأصوات بعضها مع بعض، بالنظر إلى مخارجها وصفاتها، وما كان العرب يلتفتون إلى ذلك فيما قبل القرآن الكريم.

فإذا نظرنا في تطبيق هذه الظاهرة على ألفاظ بعينها في "جزء عمّ" فإننا نجد أنها ناسبت المعنى الذي وضعت لأجله مناسبة تامة دقيقة، بحيث لا يمكن استبدال كلمات أخرى بها. وسنرصد فيما يأتي مجموعة من الألفاظ القرآنية، بعضها ذات دلالات قوية، تستدعي أن يكون الجرس الصوتي فيها قويا وأحيانا انفجاريا. وبعضها ذات دلالات ليّنة، وهي بالتالي تستدعي جرساً صوتياً ليّناً ناعماً.

أصوات الدلالات القوية:

أ- "ثجّاجا":

في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ (النبأ: 14)، وهي صفة للماء، أي ماء متتابعا أو كثيرا أو منصبا من السماء. ورجّح "الطبري" أن يكون معنى "ثجّاجا" أي منصباً"[2]. ولنا أن ننظر في الأصوات المكوّنة لهذه اللفظة لنرى كيف هي مناسبة لمعنى "الانصباب"، والذي ينطوي على سكون في أوله حيث حركة الماء للأسفل قبل أن يحتك بالأرض، ثمّ يتبعه صوت انفجاريّ لطرق الأرض والسمع، ثمّ صدى لهذا الصوت الانفجاري يستمر ويتتابع. وهذا ما نجده فعلاً في أصوات لفظة "ثجّاجا"؛ حيث صوت "الثاء" صوت مهموس رخو مصمت يخرج من بين أطراف

---

[1] الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص218.

[2] الطبري: مج7، ص515.

اللسان وأطراف الثنايا[1]. وهذه الصفات تناسب المرحلة الأولى من الانصباب وهي المرحلة المندفعة الصامتة النازلة. أمّا صوت 'الجيم' فهو صوت مجهور شديد قوي منفتح، حيث اللسان لا ينطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق به، مستفل، حيث اللسان والصوت لا يستعلي عند النطق به إلى الحنك، بل يستفل اللسان إلى قاع الفم. مقلقل[2]. ولا يخفى مدى مناسبة هذه الصفات الصوتية للمرحلة الثانية من الانصباب، وهي لحظة ملامسة الماء النازل للأرض، وهي اللحظة الانفجارية القوية الطارقة. ثمّ يظهر صوت 'الألف' وهو صوت مدّ ولين؛ حيث تخرج من النطق في لين من غير كلفة على اللسان واللهاة[3]. وهذا من شأنه أن ينسجم مع المرحلة الثالثة للانصباب، وهي مرحلة تلاشي الماء بعد احتكاكه الانفجاري مع الأرض، بشكل عشوائي حر متتابع، من غير تكلّف.

ب- 'غسّاقا':

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾(النبأ: 25). والغسّاق هو: 'الشراب السائل المكوّن من الزمهرير والنتن'[4]. وهذا الخليط العجيب الذي جمع بين ليونة الماء السائل وقسوة الزمهرير ووطأة النتن، كان لا بدّ له من أصوات متناقضة كذلك تعبّر عنه. لذا فقد اجتمع صوت 'الغين' وهو الصوت المجهور الرخوي المستعلي مع صوت 'السين' المهموس الرخوي المستفل الصفيري، ثمّ صوت 'القاف' المجهور الشديد المستعلي[5]. فصوت 'الغين' يناسب وطأة النتن، إذ إنّ النتن ليست شدته في وزنه، بل في أثره المؤذي، وكذلك صوت 'الغين' فهو رخو مجهور مستعل. وناسب صوت 'القاف' الشديد شدة الزمهرير وقسوته. في حين ناسب صوت 'السين' المهموس ليونة السائل. ولا يفوتنا صوت 'الألف' المكرّر مرتين في الوسط والآخر، في تعبيره عن سيولة الماء ولينه، ولكن يكون الإصرار على صبه لأولئك الطاغين.

---

(1) أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص290-291.

(2) السابق. ومعنى مقلقل: أي فيه قلقلة، وهي من أحكام تجويد القرآن. وهي عندما تكون السكون على الحروف (ق،ط،ب،ج،د) فتنطق بطريقة مميزة وكأنك تطرق الحرف.

(3) السابق: ص290-291.

(4) الطبري: مج7، ص520.

(5) أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص290.

ج- زجرة:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (النازعات: 13). والزجرة هي الصيحة[1]. حيث تجمع اللفظة بين ثلاثة أصوات مناسبة في صفاتها لمعنى الصيحة. فصوت الزاي هو صوت مجهور رخوي مستفل صفيري[2]. يناسب المرحلة الأولى من صياح متدرّج، يبدأ بدرجة أقل قوة، ثم يقوى تدريجياً ويتتابع، حيث المرحلة الثانية القوية يناسبها صوت الجيم، وقد مرت صفته من شدة وجهر وقلقلة، ثم إن تتابع هذه الشدّة يعبّر عنها صوت الراء، وهو صوت التكرير.

د- أغطش:

في قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (النازعات: 29). واغطش ليلها أي أظلم ليل السماء[3]. ولا يخفى أنّ الليل يطبق بتراخٍ وتدرّج على الأرض ويتفشّى تدريجياً، وقد عبّرت الأصوات في لفظة أغطش أتمّ التعبير وأبدعه عن هذه المعاني. فصوت الغين بصفاته الآنفة من رخاوة وجهر واستعلاء وإصمات، يناسب ذلك الليل المتدرّج القادم إلى الأرض بهدوء وصمت. وصوت الطاء المجهور الشديد المطبق المستعلي المصمت[4]، يناسب حركة إطباق الليل على الدنيا، وإحكام قبضته عليها. وأخيرا صوت الشين المهموس الرخو المتفشّي[5]، يناسب حركة تفشّي الليل وانتشاره في الآفاق بتدرج وهدوء ورخاوة.

هـ- الصاخة:

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾(عبس: 33). والصاخة: الصوت العظيم، وهو اسم من أسماء يوم القيامة[6]. وهي لفظ ذو جرس عنيف نافذ، يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو

---

(1) الطبري: مج7، ص533.

(2) أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص290-291.

(3) الطبري: مج7، ص537.

(4) أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص290-291.

(5) السابق.

(6) الطبري: مج7، 549.

يشق الهواء شقا، حتى يصل إلى الأذن صاخاً ملحاً[1] وهذا المعنى عبّرت عنه الأصوات التي تتضمنها اللفظة تعبيرا دقيقا ومناسبا. فصوت 'الصاد' المطبق المستعلي الصفيري يناسب هذه القوة في الصوت الذي ستحدثه نفخة القيامة. ويتبعه صوت المد 'الألف' معبّراً عن تتابع هذا الصوت واستمراره لمدة بدون أي عائق، بل واشتداده أكثر. ويأتي صوت 'الخاء' المهموس الرخو المستعلي ليعبّر عن مرحلة تلاشي الصوت وضعفه إيذاناً بتوقفه، فهو يجمع بين الهمس والرخاوة من جهة، والاستعلاء من جهة أخرى.

و- 'سُعِّرت':

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾(التكوير: 12)، أي: أوقدت مرة بعد مرة[2].
والأصوات في هذه اللفظة انسجمت مع هذا المعنى أيّما انسجام، حيث صوت 'السين' الصفيري الذي يعبّر عن صوت زفير النار وأزيزها بسبب شدّة التوقّد. في حين يعبّر صوت 'العين' المجهور القادم من وسط الحلق[3] عن عمق النار وقوة تسعيرها. أمّا صوت 'الراء' وهو صوت التكرير فقد عبّر عن عملية إيقاد تلك النار مرة بعد مرة.

وهذا غيض من فيضِ الألفاظ ذات الدلالات القوية في 'جزء عمّ' التي ناسبتها أصواتها أيما مناسبة.

أصوات الدلالات الليّنة:

أ- 'مهاداً':

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ (النبأ: 6)، أي 'بساطا أو مهادا لكم تمتهدونها وتفترشونها[4]. ويلحظ أنّ اللفظة اشتملت على أصوات انسجمت مع هذا المعنى الذي ينطوي على الليونة والسهولة والراحة، فهناك صوت 'الميم' وهو صوت مستفل مجهور مذلق يأتي من طرف

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج6، ص3834.
(2) الطبري: مج7، ص557.
(3) أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص290.
(4) الطبري: مج7، ص512.

اللسان، وهو من أخف الحروف على اللسان وأحسنها انشراحاً وأكثرها امتزاجا بغيرها[1]. وهناك صوت 'الهاء' وهو صوت مهموس رخو مستفل[2]. وأرى أن هذين الصوتين متناسبان مع معنى المهاد بما يقتضيه من راحة وليونة، ويساعدهما 'الف' المد في التعبير عن تتابع هذه الليونة واستمرارها.

ب- 'ألفافا':

في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾(النبأ: 16). 'والجنّات الألفاف هي أشجار البساتين الملتفة المجتمعة'[3]. ولك أن تلحظ كيف عبّرت الأصوات في لفظة 'ألفافا' عن معنى الالتفاف والاجتماع، حيث 'اللام' صوت يخرج من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان فويق الضاحك[4]، أي في الجزء العلوي للفم، في حين يخرج يخرج صوت 'الفاء' من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا[5]. والانتقال من مخرج الصوت الأول 'اللام' إلى مخرج الصوت الثاني 'الفاء' يتطلب لفّ اللسان بحركة قريبة إلى الدوران، وهذا برأيي يتواءم تماما مع معنى 'ألفافا' المنطوية على حركة لفّ الأشجار على بعضها، ثمّ إن تكرُّر صوت 'الفاء' وتجمّعه في اللفظة، فكأنه عبّر عن اجتماع الأشجار وتزاحمها.

ج- 'رحيق':

في قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾(المطففين: 25)، إشارة إلى أهل الجنة، والرحيق هو 'الخمر الصرف لا غشّ فيه'[6]. وهذا المعنى ينطوي على راحة ونعيم وتكرار لهذا الفعل، وهو شرب الرحيق المختوم بالمسك، أي عاقبته ونهاية شربه[7]. والأصوات في اللفظة جسدت وناسبت هذه المعاني، حيث 'الراء' وهو صوت التكرير، وبالخصوص مع إدغامه مع النون

---

(1) أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص291.

(2) السابق.

(3) الطبري: مج7، ص515.

(4) أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص291.

(5) السابق.

(6) الطبري: مج7، ص574.

(7) السابق: ص575.

الساكنة قبله، أدى معنى تكرار سقي الرحيق للأبرار، وألحاء وهو الصوت المهموس الرخو المستفل عبّر عن حال الراحة والانبساط التي تنتاب الأبرار جرّاء شربهم لهذا الرحيق، وساعد على هذا المعنى صوت المد "الياء" حيث الاسترخاء والاضطجاع للراحة. وصوت "القاف" الشديد المطبق المجهور قد يظنّ لأول وهلة أنه شاذ في هذا المقام، بيد أنه وبعد التأمل نجده قد عبّر عن الختم والانتهاء وكأنه طرقة تؤذن بالختام، وهو متوائم مع صفة هذا الرحيق بأنه مختوم بالمسك كما مرّ، أو مختوم بطين المسك، أي مطبق عليه ومغلق به، فلا يفضّه إلا الأبرار[1].

د- "وسَق":

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (الانشقاق:17). ومعنى "وسق": "جمع ما سكن وهدأ فيه من كل ذي روح كان يطير أو يتحرك في النهار"[2]. فصوت "الواو" الشفوي الذي يستدعي ضمّ وجمع الشفتين عن نطقه نراه عبّر عن معنى الجمع في "وسق". وصوت "السين" المهموس الرخوي عبّر عن الهدوء والهمس الذي يناسب طبيعة الليل. في حين صوت "القاف" الشديد المطبق عن استحواذ الليل على من فيه وإطباقه عليه.

هـ- "نمارق":

في قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٌ﴾(الغاشية: 15)، في إشارة إلى واحدة من متع المؤمنين في الجنة، والنمارق هي: "الوسائد والمرافق. ومفردها نمرقة"[3]. والوسادة تستدعي الراحة واللين والنعومة، وهذا ما عبّرت عنه الأصوات في لفظة "نمارق"، حيث صوتا " النون، الميم" من الأصوات المذلقة وهي من أخف الحروف على اللسان كما مرّ، وأحسنها انشراحاً، ثمّ صوت المدّ "الألف" يعزّز هذا التعبير بما فيه من استرخاء وحرية واستمرار، وصوت "الراء" المرقق هو الصوت المكرر الذي يعبّر عن خفض العيش ودعته ودوامه. وتأمل توالي هذه الأصوات من مخارجها، وتناسقها كيف عبّر عن صفة الترتيب والصف لهذه النمارق، فهي بحق نمارق مصفوفة واقعاً وأصواتاً.

---

(1) الرازي: التفسير الكبير،ج31،ص99.

(2) الطبري: مج7، ص583-584.

(3) السابق: ص614.

و- الكوثر:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾(الكوثر: 1). والكوثر فُسّر بتفسيرات عدة، منها أنه نهر في الجنة، ومنها أنه النبوة أو الخير الكثير[1]. وقيل أن الكوثر هو ذريته الكثيرة صلوات الله عليه وآله وسلم، بدليل أن الآية التي تلتها هي ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾، أي المنقطع نسله[2]، حيث الكوثر بمعنى كثير النسل تقابل الأبتر المعدوم النسل. ومهما يكن فإنّ الكوثر تدل على الكثرة والتتابع والتكرر، سواء أكان ذلك في ماء النهر الجاري، أم في الخير الكثير، أو النبوة، أم في الذرية الكثيرة المتتابعة. ويظهر لي أن الأصوات في اللفظة عبّرت عن معنى الكثرة والتتابع بدقة، حيث صوت الكاف وهو الصوت المهموس الشديد دلّ على اندفاع الخير، فالخير مندفع ولكن ليس ذلك الاندفاع المؤذي، بل هو هامس نافع لأنه خير. والواو، الصوت الشفوي الذي يستدعي ضم الشفتين في نطقه، عبّر عن العناية والإيواء الإلهي لنبيه وتعهده بكل كرامة. وصوت الثاء المهموس الرخو يعبر عن تلك العناية واللين. ويأتي صوت الراء المكرر وهو الصوت الأميز في اللفظة ليعبّر عن الكثرة والتتابع وتكرّر الخير على الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم.

2. التكرار الصوتي

التكرار الصوتي في القرآن الكريم هو جزء من إعجاز النظم فيه، ذلك الإعجاز الذي تتضافر في وجوده مستويات بلاغية ونحوية وصوتية ودلالية، ولهذا الإعجاز في النظم "خصائص موسيقية وأصول مضبوطة من بلاغة النغم بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمدّ والغنّة ونحوها، ثمّ اختلاف ذلك في الآيات بسطاً وإيجازاً، وابتداء وردّاً، وإفراداً وتكريراً"[3].

وللتكرار الصوتي والتوتر الإيقاعي دور مهم في الكشف عن القوة الخفية في الكلمة[4]. والقرآن الكريم خير مثال على ذلك، فهو كلام الله المعجز في كل شيء، وبالخصوص في بيانه وفي انتقائه للكلمات التي تشتمل على التكرار الصوتي، بحيث تنسجم مع الأجواء التي توضع فيها تمام الانسجام.

---

(1) الطبري: مج7، ص705-706.

(2) الطباطبائي: مج20، ص370.

(3) الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص218

(4) أ.ف. تشيتشرين: الأفكار والأسلوب: دراسة في النص الروائي ولغته، ترجمة: حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد (د.ت)، ص50.

وقد رأينا عند تناولنا لموضوع "جرس الألفاظ" كيف ناسبت الأصواتُ المعاني في اللفظة الواحدة، ولكن البحث هنا سيركّز على تكرار الصوت الواحد في نسق كامل، أو في سياق مجتمع، تمثله آية، أو مجموعة آيات تصبّ في موضوع واحد.

ومن أكثر الأصوات تكراراً في "جزء عمّ" صوت "الواو". ومن تمثيلاته اللافتة ما نجده في سورة "الضحى" حيث يقول المولى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ (الضحى:1-11). فقد تكرر صوت "الواو" فيها خمس عشرة مرة: سبع منها كان للعطف، ومرتان للقسم، وست كان فيها حرفا أصليا. أهمها وأبرزها أثرا تلك التي أُستعمل فيها حرفَ عطفٍ وقسم. علماً أن صوت "الألف" تكرر أكثر من صوت "الواو" في هذه الآيات، إلاّ أن "الواو" كما مر "صوت شفوي مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة"[1]، وهي إذا تحركت كانت أقوى كما ورد عن "الخليل بن أحمد" و"ابن جني"[2]. وعليه فهو أكثر بروزا من صوت "الألف". وقد حقق صوت "الواو" في هذه السورة فائدتين: معنوية، وصوتية. فالمعنوية تتمثل في التأكيد على توالي نعم الله سبحانه على رسوله الكريم. والفائدة الصوتية تتمثل بلفت السمع لكل نعمة، وتخصيصها صوتياً كما خصصها معنويا، وهو الصوت الشفوي المجهور الجاذب.

وهناك تكرار صوت "السين" في سورة "الناس" على النحو الآتي: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾(الناس: 1-6). هذا التكرار أعطى دلالة رائعة، حيث "السين" كما مرّ صوت مهموس لثوي احتكاكي، يحدث في نطق كثيرين له أن تلتقي الأسنان السفلى بالأسنان العليا. وجاء اختيار هذا الصوت بصفاته المذكورة منسجما مع طبيعة الوسوسة، وما فيها من خفوت الصوت، سواء أكانت وسوسة الشيطان في صدر الإنسان، أم وسوسة الإنسان للإنسان.

---

(1) مناف مهدي، علم الأصوات اللغوية، ص54.

(2) السابق.

فدلّ صوت "السين" بجرسه الاحتكاكي الهامس على تصوير حال الهمس الخفي، وأعانه على ذلك صوت "الصاد" الذي يشترك معه في كل خصائصه، ويزيد عليه بالإطباق. ويشترك معه كذلك صوت "الفاء" المهموس الشفوي الاحتكاكي، وصوت "الواو" الشفوي الذي اشترك كذلك في تصوير فعل الوسوسة بتجسيده وتصويره لحركة التحريض الهامس على ارتكاب ما لا ينبغي[1].

وفي سورة "النازعات" في آياتها 6-8 وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝﴾، نجد أن تكرار صوت "الراء" الذي تتابع في نطقه طرفا اللسان على اللثة تتابعا سريعا، يصوّر بشكل رائع الرعشة التي تصيب الأرض والسماء بفعل القيامة، يساعده صوت "الفاء" وصوت "الجيم" الصامت المجهور اللثوي الحنكي الانفجاري الاحتكاكي المركب[2]. ويسبقه صوت صائت طويل يبرز تكرار أحرف "الراء" ويعطيها استمرارا أكثر وكثافة موسيقية أغزر. ثمّ ينقطع النفس، وينغلق مجرى الهواء حين النطق بـ"الجيم"، ثمّ ينفتح مرة أخرى ليسمح بنطق "الفاء" الذي يلتقط الصدى من "الراء" ليصوّر بجرسه الاحتكاكي المهموس حال الاهتزاز[3].

وفي الآيات الآتية من سورة "النبأ"، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ۝ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ۝ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝﴾(النبأ: 27-30). فالسياق يندرج في إطار العذاب والتقريع لهؤلاء الكفار الجاحدين والمكذبين بآيات الله. وتكرار صوتيّ "الكاف" و"الباء" لافت للسمع والنظر في سياق الآيات، فقد تكرر كل من الصوتين ست مرات. وإذا علمنا أن كلا الصوتين هو من أصوات الجهر والشدة، فسندرك مدى مناسبة تكرار هذين الصوتين في هذه السياق الذي يشتمل على الشدة والتقريع للكافرين. ومن هذين الصوتين بالإضافة إلى صوت "الذال" يتشكل الجذر اللغوي "كذب"، الذي ينطوي على السبب الرئيسي لتقريع أولئك الجاحدين المكذبين.

---

(1) نحلة: دراسات قرآنية في "جزء عم"، ص161-162.

(2) السعران: علم اللغة، ص198.

(3) نحلة: دراسات قرآنية في "جزء عم"، ص162.

3- المقاطع الصوتية

اختلف اللغويون المحدثون في تعريف المقطع الصوتي. ولعل أهم تعريفاته من الجانب 'الفوناتيكي'[1] هي أنّه: تتابع من الأصوات الكلامية له حد أعلى، أو قمة إسماع، تقع بين حدين اثنين من الإسماع. أو هو: جزء من تيّار الكلام يحوي صوتاً مقطعيا ذا حجم أعظم، محاطاً بجزئين أضعف منه 'أكوستيكيا'[2]. أو أنه: 'وحدة' من عنصر أو أكثر، تصاحبها نبضة صدرية واحدة[3].

أمّا الاتجاه 'الفونولوجي'[4] فيعرّف المقطع داخل كل لغة على حدة، لذا فليس عنده تعريف عام للمقطع، حيث كلّ لغة لها نظامها المقطعيّ المعيّن[5]. وأهمّ تعريفات هذا الاتجاه للمقطع هي أنّه: 'الوحدة' التي يمكن أن تحمل درجة واحدة من النبر في اللغات المنبورة، أو نغمة واحدة في اللغات النغمية. أو – حسب ماعرّفه 'دي سوسير' – هو: الوحدة الأساسية التي يؤدي الفونيم وظيفة داخلها. والتعريف الثالث أنه: وحدة تحتوي على صائت واحد فقط، إمّا وحده، وإمّا مع صوائت بأعداد معينة، وبنظام معيّن[6].

والأصوات، منها ما هو مقطعي، ومنها ما هو غير مقطعي، بحسب السياق[7]. والعربية هي ضمن مجموعة اللغات التي تميّز المقطعي من غير المقطعي تمييزا قاطعا، بغض النظر عن السياق، حيث الأصوات المقطعية هي الصوائت، وغير المقطعية هي الصوامت[8].

والمقاطع نوعان: مفتوحة، وهي التي تنتهي بصوت صائت، ومقفلة، وهي التي تنتهي بصوت صامت. والكلمة العربية لا يمكن أن تزيد مقاطعها على سبعة مقاطع، مهما اتصل لها من سوابق 'prefixes' أو لواحق 'suffixes'[9]. والمقاطع في اللغة العربية، إما قصيرة 'صامت + صائت قصير'، وإمّا طويلة 'صامت +صائت طويل'، أو 'صامت +صائت قصير +صامت'، وإمّا مقاطع زائدة

---

(1) من كلمة: phnetique، اي: علم الصوت. **دليل الدراسات الأسلوبية**، جوزيف شريم، ص156.

(2) من كلمة: Extaseاي: انفعال. المصدر السابق، ص155.

(3) أحمد مختار عمر: **دراسة الصوت اللغوي**، مطبعة سجل العرب، توزيع عالم الكتب، القاهرة، 1976م، ص238.

(4) من كلمةphonostylistique: الأسلوبية الصوتية. **دليل الدراسات الأسلوبية**، جوزيف شريم، ص159.

(5) أحمد مختار عمر: **دراسة الصوت اللغوي**،ص242.

(6) السابق: ص242-243.

(7) السابق: ص249.

(8) السابق: ص250.

(9) إبراهيم انيس، **الأصوات اللغوية**، ص91.

الطول 'صامت + صائت طويل + صامت' نحو 'واذْ بسكون الدال'، أو 'صامت + صائت قصير + صامت + صامت' نحو 'وغدْ بسكون الدال'. ولمّا كانت الكلمات تتكون من مقاطع متتابعة، وكان لكلّ مقطع سماته الصوتية المتميّزة، كان ترتيب هذه المقاطع في الكلمات وتواليها على نسق معيّن ذا أثر كبير في إحداث أنواع من الموسيقى الداخلية تتناسب والأفكار التي تعبّر عنها وتصوّرها. فالمقاطع المقفلة تستغرق في نطقها زمنا أقل من الزمن الذي تستغرقه المقاطع المفتوحة، ومن هنا كان استخدام المقاطع المقفلة يناسب لونا من التعبير لا تؤديه المقاطع المفتوحة، والعكس صحيح[1].

وفي 'جزء عمّ' استعمل القرآن هذه المقاطع الصوتية استعمالاً فنياً. ولنتأمّل هاتين الآيتين من سورة 'الفجر' وهما قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾(الفجر:19-20)، حيث الآيتان تشتملان على تقريع لفئة من الناس تمادت في تعلّقها بالدنيا، واللهث وراء شهواتها، وغالت في حبها للمال، وكسبه بأية طريقة على حساب آخرتها. ثمّ لننظر نظرة مقطعية صوتية إلى تلكما الآيتين لنرى إن كانت المقاطع الصوتية فيها وظفت توظيفا فنيا خدمت المعنى المذكور. والتحليل المقطعي للآيتين هو الآتي: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾. وسيتضح لدينا أنّ المقاطع الطويلة استحوذت على هاتين الآيتين، فقد بلغت سبعة عشر '17' مقطعا من مجموع أربعة وعشرين '24' مقطعا، أي أكثر من الثلثين. واستخدام المقاطع الطويلة بهذه الكثرة اللافتة في الآيتين ناسب معنى التمادي والمبالغة في حبّ المال، وأكل التراث وطول الغفلة عن الآخرة.

في المقابل عبّر القرآن في 'جزء عمّ' بالمقاطع الصوتية المقفلة عن العقاب الشديد الذي لقيته الأقوام السابقة التي جحدت آيات ربها وكذبت رسله، فقال تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: 13). فالمقاطع المقفلة هنا هي 'صبْ – ليْ – هِمْ – ربْ – سَوْ' وانسجمت مع معنى الشدّة والعقاب. ويكاد هذا التقطيع يبرز لنا كيف ينصبّ عليهم العذاب انصباباً في شدّة وعنف وتوالٍ وتكرار[2]. و'جزء عمّ' زاخر بأمثلة لاستخدام المقاطع الصوتية استخداما فنيا بما يناسب المعاني الواردة في السياق.

---

(1) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص171.

(2) السابق: ص175.

4- الفاصلة القرآنية

عرّف 'الرمّاني' الفواصل القرآنية بأنها: "حروف متشابكة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني"[1]. والفاصلة: "هي الكلمة التي تُختم بها الآية من القرآن"[2]. أو هي: "كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر. والتفصيل هو توافق أواخر الآي في حروف الرويّ، أو في الوزن، مما يقتضيه المعنى، وتستريح إليه النفوس"[3]. ودار خلاف بين العلماء حول إمكانية إطلاق مصطلح 'السجع' عليها[4]. والفئة من العلماء التي عارضت ذلك إنما فعلت ذلك بقصد تنزيه القرآن عن السجع، حيث قال 'الرمّاني': "الفواصل بلاغة والأسجاع عيب"[5]. أمّا 'الباقلاني' فقد فرّق بين الفواصل والأسجاع، ونفى وجود السجع نهائيا في القرآن[6]. وخلص إلى القول: "فبان بما قلنا أنّ الحروف التي وقعت في الفواصل متناسبة موقع النظائر التي تقع في الأسجاع، لا يخرجها عن حدّها ولا يدخلها في باب السجع"[7]. و'محمد الحسناوي' أورد هذه القضية الخلافية بشكل مفصّل في كتابه 'الفاصلة في القرآن' وخلص إلى القول: "الحلّ أن يعتبر النص القرآني نثراً من نوع خاص، وأن ندرج سجعاته تحت اسم الفاصلة (وجمعها فواصل)"[8]. وأراني أميل إلى ماذهب إليه 'الباقلاني'، ومن بعده 'الحسناوي'. ذلك أن القرآن نسيج وحده في نظمه، فهو كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾ (الحاقة: 41-43). "ومما يتميّز به القرآن من الشعر، أي شعر، أن الحد الأدنى للشعر هو الكلام الموزون عروضياً المقفى، من حيث الشكل، وأن الشعر من وضع البشر، ثم هو خاضع لما يخضع إليه البشر من غلو

---

[1] الرماني: **النكت في إعجاز القرآن**، ضمن كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1968م، ص89.

[2] أحمد أحمد بدوي: **من بلاغة القرآن**، ص75.

[3] محمد الحسناوي: **الفاصلة في القرآن**، المكتب الإسلامي، بيروت، ودار عمّار، عمّان، ط2، 1986، ص29.

[4] انظر: عبدالفتاح لاشين: **الفاصلة القرآنية**، دار المريخ، الرياض، 1982، ص9-16، وعائشة عبدالرحمن: **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية لغوية وبيانية**، دار المعارف القاهرة، ط2، 1984، ص253 ومابعدها.

[5] الرماني: **النكت**، ص89.

[6] الرافعي: **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص57.

[7] السابق: ص64.

[8] الحسناوي: **الفاصلة في القرآن**، ص92.

في الانفعال والتصوّر. وليس في القرآن شيء من ذلك[1].

وعن غرض الفاصلة القرآنية وأهميتها يقول "عبد الفتاح لاشين": "الفاصلة في القرآن لها ميزة هامة، تربط بما قبلها من الكلام، بحيث تنحدر على الأسماع انحدارا، وكأنّ ما سبقها لم يكن إلاّ تمهيدا لها، بحيث إذا حذفت لاختل المعنى في الآية، ولو سكت عنها القارئ لاستطاع السامع أن يختمه بها انسياقا مع الطبع، والذوق السليم"[2].

ويضيف "لاشين": "ليست فواصل القرآن مجرد توافق ألفاظ وأوزان، بل لها علاقة وثيقة بما قبلها من بقية الآية، ولهذا نجدها مستقرة في أماكنها، مطمئنة في مواضعها، غير قلقة ولا نافرة"[3]. ويقول: "تقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين بها القرآن بقية الكلام، وسميت فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان، حيث إن آخر الآية فصل ما بينها وبين ما بعدها، ولعلّ هذا أخذ من قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: 1)، ولايجوز تسميتها قوافي، إجماعا من العلماء؛ لأن الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضا لأنها منه"[4].

وروى "الجاحظ" في "البيان والتبيين" أنه "قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي لِمَ تُؤْثِرُ السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقَلّ خلافي عليك، ولكنّي أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد"[5].

وعمد القرآن الكريم إلى هذه الوسيلة البلاغية الصوتية فاستخدمها وبخاصة في السور المكية. "وتكاد لا تجد سورة مكية تخلو منه إذ كان الوحي المكيّ يخاطب العاطفة والشعور، ولما كان أكثر سور "جزء عمّ" مكية فقد شاعت فيه هذه الوسيلة البلاغية شيوعا واضحا، وتعددت طرائق استخدامه لها[6]. ويجدر أن نشير هنا إلى أن القرآن بمخاطبته العاطفة والشعور، فهو يهدف إلى

---

(1) الحسناوي: **الفاصلة في القرآن**، ص130.

(2) لاشين: **الفاصلة القرآنية**، ص1.

(3) السابق: ص2.

(4) السابق: ص6.

(5) الجاحظ،أبوعثمان عمرو بن بحر: **ألبيان والتبيين**، مكتبة الجاحظ، بغداد،ط4، 1975م، ج1، ص281-282.

(6) نحلة: **دراسات قرآنية في جزء عم**، ص179-180.

مخاطبة العقل في المقام الأول. ولذلك فهو ينّوع فواصله، ويباين بين أطوالها، فيكسر رتابة التعبير، ويثريه بأنغام موسيقية متنوعة تتحدّر منها موجات النغم، وتتنوّع أصداؤه، وتتصاعد درجاته[1].

وهو لتحقيق ذلك يعمد إلى طريقتين، الأولى: الانتقال ما بين أنواع الآيات التي هي قرائن للفواصل، القصيرة فالمتوسطة فالطويلة، ثمّ عودا إلى القصيرة وهكذا[2]. ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾(النبأ: 6-26). فالمراوحة هنا والانتقال ما بين الآيات قصيرها ومتوسطها وطويلها واضح لا يخفى على ذي أذن موسيقية، أو على متأمل فيها. فلنا أن نلحظ مثلاً التفاوت في الحجم بين كل من الآيات: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾، حيث اشتملت الآية الأولى على سبع كلمات، والآية الثانية على أربع، في حين اكتفت الآية الأخيرة بكلمتين. لكنّ هذا التفاوت لم يُحدث أي نفور صوتي، بل كوّن انسجاماً صوتياً، سببه هذا التدرّج التنازلي في طول الآيات، والذي ربما عكس تدرّجاً في المعنى، من مستوى النفي المشدّد، إلى الاستثناء الأقل تشدّدا، إلى التعليل الهادئ، الذي يأتي إجابة فورية لتساؤل قد ينشأ في ذهن قارئ هذه الآيات حول المسوّغ لمثل هذا العقاب الشديد.

أمّا الطريقة الثانية، فهي: التصاعد النغمي، وهو أن يستهل بفواصل قصيرة، ثمّ يتبعها بفواصل أطول فأطول[3]. نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ

---

(1) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص180.

(2) السابق.

(3) السابق: ص181.

أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾(النبأ: 31-38). فكم هو واضح التصاعد النغمي في هذه الآيات! حيث استهلت بـ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، وانتهت بـ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾. والفرق بينهما واضح من حيث الطول، وقد وقع ما بينهما: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾، حيث هي أطول من الأولى، ولكن أقصر من الثانية. ومثل هذا التدرّج في طول الفواصل خلق تصاعدا نغميا له تأثيره في النفس والسمع ولا ريب، وله إسهامته الدلالية المعنوية البلاغية كذلك. فمثلاً التدرج من الآية: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾المتوسطة الطول، إلى الآية: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ فضلا على ما فيه من تصاعد نغمي، ففيه كذلك -كما يبدو لي - تصاعد دلالي، تمثّل بتوسيع الدلالة لكلمة 'رب' من مجرد رب لفرد 'ربك' إلى رب الكون كله، وإضافة صفة 'الرحمن' إليه، لضم الرحمة إلى الربوبية، وختمت الآية بمقطع ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾الذي أضاف صفة 'الهيبة' إلى الربوبية والرحمة. إلاّ إنه حين يتوازن الإيقاع ويتقارب، وتكون الآيات متساوية الطول تقريبا وقد تشمل سورة بأكملها مثل سورة 'الشرح'، فإنّ ذلك لا يخلق أي نوع من الرتابة، وذلك بسبب تنويع الفواصل من حيث آخر حرف فيها، فتراوح بين 'الكاف' للآيات الأربع الأولى، ثمّ 'الألف' للآيتين اللاحقتين، وأخيرا 'الباء' لآخر آيتين.

أنواع الفواصل القرآنية وتطبيقاتها في 'جزء عمّ'

الفواصل القرآنية أربعة أنواع: المتوازية، والمطرّفة، والمتوازنة، وأخيرا الترسّل. وسنعرض لكل نوع ونسوق بعضا من تطبيقاته في 'جزء عمّ'، ليتبيّن مدى إسهام الفاصلة القرآنية في رفد الجانب الأسلوبي والبلاغي في التعبير فيه.

أ- الفاصلة المتوازية:

وهي الفواصل التي تتفق فيها الكلمتان في الوزن وحرف الروي"[1]. وجزء عمّ يمتاز بغناه بالفواصل القرآنية المتوازية، فيما يزيد على الأربعين موضعا. ذلك إن التوازي يؤدي إلى إثراء التعبير بهذا الرنين الموسيقي المحبّب الذي تنشط له النفس[2]. ومن التوازي في جزء عمّ قوله تعالى في نعيم أهل الجنة: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝﴾ (الغاشية: 13-14). وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝﴾(التكوير: 8-11). ففي الآيات السابقة تبدو الفواصل المتوازية جلية، خلقت إيقاعًا مؤثرًا، وتناغمًا عجيبًا، وانسجاما مع المعاني الواردة جديرا بالتوقف عنده والتأمل فيه. فمن ناحية التناغم فإنّ اتفاق الكلمات "سئلت، قتلت، نشرت، كشطت" في الوزن والروّي قد حقق ذلك بوضوح. ومن ناحية الانسجام المعنوي الموازي للانسجام النغمي، فيظهر لي أن "سئلت" موازية لـ "قتلت" نغما ومعنى، فقد شكلت الكلمتان سبباً ونتيجة، فالموءودة سئلت لأنها قتلت. ونجد المقابلة في المعنى بين "نشرت" و "كشطت" توازت مع التقابل النغمي كذلك، ففي الوقت الذي طويت به صفحة السماء بذهابها وكشطها، فإن صحفاً أخرى نشرت في المقابل هي صحف الأعمال.

وفي سورة "الانشقاق" نلحظ أربعا من الفواصل القرآنية المتوازية، خلقت كذلك إيقاعا متميزا مؤثرا، وهي ضمن الآيات الآتية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝﴾(الانشقاق: 16-19). فالتأثير النغمي يتمثل باتفاق كل من "شفق، وسق، اتسق، طبق" في الوزن والروي، مع خروج طفيف لكلمة "اتسق" من ناحية الوزن. أما التأثير المعنوي الموازي لذلك التأثير النغمي، فيبدو لي أنه يتمثل بالتدرج الزمني من الشفق إلى حلول الليل وإعتامه المعبر عنه بـ "وسق"، ثم ظهور القمر مرحلةً جديدة للنور بعد غياب ضياء النهار. وربما عكس كل ذلك التدرّجِ الزمني تدرّجَ مراحل الإنسان من الحياة الأولى، ثم الموت، ثم الحياة الآخرة.

---

(1) لاشين: الفاصلةالقرآنية، ص19.

(2) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص182.

والقرآن لا يقف عند حد التوازي في بعض مواضعه في "جزء عمّ"، بل يتعداه إلى ما يطلق عليه في الشعر "لزوم ما لا يلزم"[1]، وفي النثر "الالتزام"[2]. وهو "الفاصلة المضاعفة". ويتعدى القرآن التوازي كذلك إلى بعض المحسنات الصوتية، مثل الفواصل الداخلية ونسق التعبير. ومما وردت فيه "الفاصلة المضاعفة" زيادة على التوازي، وأحدث جناسا صوتيا بديعا، قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ (الضحى: 9-10). فلم يُكتفَ هنا بتوافق حرف الرويّ "الراء" في "تقهر، تنهر"، بل توافق الحرف الذي قبله وهو "الهاء"، وهذا غير ملزم عادة على صعيد الشعر، ولكن نجد بعض الشعراء كأبي العلاء المعري صاحب ديوان "اللزوميات"، يلزمون أنفسهم بما لم يلزمهم به قانون الشعر، لذلك سميت هذ الظاهرة بـ"لزوم ما لايلزم"، إلا أن القرآن تنزه عن أن تجري عليه قوانين الشعر، إذ إن لكل استعمال فيه سبباً ودلالة. وربما كانت الدلالة وراء التوافق الكبير بين "تقهر وتنهر" من الناحية الصوتية، هو ما تنطوي عليه اللفظتان من معان سلبية متشابهة تتمثل بالقسوة واللؤم.

ومما برزت فيه الفواصل الداخلية بوصفها محسنات بديعية قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ (البيّنة: 1). فلنا أن نلحظ الجناس الناقص بين "مشركين، منفكين" في ثنايا تلك الآية. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهُمزة: 1). واشتملت أيضاً على جناس ناقص بين "همزة، لمزة". وتظهر الآية أحيانا على نسق آية سابقة في ترتيب الكلمات وعددها مع اتفاق الفواصل فيها، كقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ (الفجر: 19-20)، فـ "تأكلون" تقابل "تحبون"، و"التراث" تقابل "المال"، و"أكلاً" تقابل "حباً"، و"لمّاً" تقابل "جمّاً". ونجد نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾(العاديات:4-5).

---

(1) أحمد الهاشمي: ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، المكتبة التجارية الكبرى، ط16، 1966م، ص140.

(2) طاش كبري زادة: مفتاح السعادة ومصباح الزيادة، تحقيق كامل كامل بكري وعبدالوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، د.ت، ج2،ص518.

ب- الفاصلة المطرّفة:

هي: "أن تتفق الكلمتان في حرف الروي، لا في الوزن"[1]. وقد مثّل لهذا النوع في "جزء عمّ" عدد من الآيات، نحو ما نجده في سورة "الفيل" في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾ (الفيل: 3-5)، حيث تشابه الروي وهو حرف اللام في الفواصل "أبابيل،سجيل، مأكول"، ولكن اختلف الوزن؛ فـ"أبابيل" على وزن "مفاعيل"، و"سجيل" على وزن "فعّيل"، في حين أنّ "مأكول" على وزن "مفعول". ونجده كذلك في سورة "التين" في آياتها الثلاث الأولى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝﴾. ولك أن تلاحظه كذلك في سورة "الطارق"، في آخر آيتين منها: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝﴾ (الطارق: 15-17).

ويلتفت "محمود نحلة"، في موضوع الفاصلة المطرّفة، إلى ما سمّاه "التشابه المقطعي"؛ حيث الفواصل التي لا تتفق في الوزن تتفق في أكثر المقاطع، ويقع التمايز بينها في مقطع واحد غالبا، لتحقيق التنوع النغمي[2]. ويضرب على ذلك مثلا من سورة "النبأ"، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۝﴾ (النبأ: 27-28). فمع أن القرينتين تنتهيان بلفظين مشتركين في الرويّ بدون الوزن، لكنّ هناك نوعا من التناسب والتشابه المقطعي. فـ"حسابا" تتكون من "مقطع قصير +مقطع طويل +مقطع طويل"، أمّا "كذابا" فتتكون من "مقطع طويل +مقطع طويل+ مقطع طويل". فالاختلاف بين الفاصلتين يكون في المقطع الأول فقط، وهو اختلاف طفيف كما يقول "نحلة"، ثمّ يختم ملاحظته بقوله: "ولعلّ هذا يفسّر عدول القرآن الكريم عن استخدام المصدر الشائع للفظة "كذّب" وهو "تكذيب" واستخدام "كذّابا" بدلا منه"[3]. وهذا الرأي الذاهب إلى أنّ القرآن يعدل إلى استعمال لفظ دون آخر، أو يقدم ويؤخر، بغية مراعاة الفاصلة القرآنية، له من يخالفه، بل يحمل عليه بشدّة. وسنتطرق إلى هذه القضية في ختام تناولنا لموضوع الفاصلة القرآنية، ونبين رأينا فيها، لأن لها مساساً كبيرًا وأكيدًا بأسلوب التعبير القرآني، ومدى تفردّه وتميّزه من كلام البشر.

---

(1) لاشين: الفاصلة القرآنية، ص19.

(2) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص185.

(3) السابق: ص185-186.

ج- الفاصلة المتوازنة:

وهي "أن يراعى في مقاطع الكلام الوزن فقط"[1]. والفاصلة المتوازنة لها فائدتها الجمالية، فإذا كان "اتفاق الوزن والرويّ في بعض الفواصل يعطي هذا الثراء الموسيقي الذي أشرنا إليه، فإنّ الاحتفاظ بالوزن والتخلي عن الرويّ في بعض الأحيان يكون له من الحسن مثل سابقه، إذا حدثت المراوحة بينهما"[2]. وقد مثّلت لهذا النوع من الفواصل مجموعة من الآيات في الجزء. منه ما يطالعنا في سورة "الطارق": ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾ (الطارق: 1-4)، إذ تضمنت الآيات 2-4 الفاصلة المتوازنة. فـ "الطارق، الثاقب، حافظ" كلها على وزن واحد هو "فاعل"، ولكن الرويّ "آخر الحروف" فيها مختلف كما هو واضح. ونجد ذلك أيضا في سورة القارعة في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾(القارعة: 4-5).

د- الترسّل:

هو عدم التقيّد بوزن ولا برويّ في الفواصل[3]. وهو أقل السمات ظهورا في "جزء عمّ". ولكن هذا الاختلاف في كل من الوزن والروي معاً يعوّضه التشابه المقطعي الذي ذكره "محمود نحلة". ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ۝٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ۝١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ۝١٢﴾(النبأ: 9-12). ففي أواخر الكلم في هذه الآيات يختلف الوزن والرويّ، ولكن تتشابه المقاطع حيث كل الفواصل "سباتا، لباسا، معاشا، شدادا" تتكون من "مقطع قصير+ مقطع طويل+ مقطع طويل" مع اختلاف الرويّ "ت، س، ش، د" والوزن "فُعالا، فِعالا، فَعالا، فِعالا". ومثل هذا الانضباط في المقاطع أغنى كثيرا عن وحدة الوزن والرويّ كما هو ظاهر.

وخلاصة القول، بعد هذا التناول السريع للفاصلة القرآنية في "جزء عمّ"، إنّ الفاصلة المتوازية التي تتحقق باتفاق في الوزن والروي كانت هي السائدة في هذا الجزء، مما يجعلنا نتوقف عند

(1) لاشين: الفاصلة القرآنية، ص19.

(2) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص183-184.

(3) السابق: ص187.

الأثر الأسلوبي لهذه الفواصل الثلاث، وما لها من تأثير في نفوس السامعين، ومعرفة إلى أي حدّ أسهمت هذه الفواصل، وخاصة المتوازية منها، في تميّز الجزء من الأجزاء القرآنية الأخرى، وتفرده بينها.

علاقة الفاصلة بالسورة والمقطع:

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد، أن للفاصلة علاقة بجو السورة، وهو أنواع، نلحظ منها في "جزء عم" تعلق الفاصلة بمضمون السورة، كما هو في سورة "الكافرون" التي تبرز الفرق بين المؤمنين والكافرين، وأنه لا يمكن الالتقاء ما دام الدين مختلفاً، فكانت الخاتمة الحاسمة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: 6) [1]. وقد تتعلق الفاصلة موسيقيا بجو السورة، وهذا ما نجده في كل من سور "المطففين، الأعلى، الشمس، الليل، التين، الماعون، القدر، العصر، الفيل، الكوثر، الإخلاص، الناس"[2].

أما عن علاقة الفاصلة بالمقطع، فيبدو جليا في سورة "الفجر"، التي تنوعت فواصلها بتنوع المشاهد والمواضيع فيها، فبدأت بخمس آيات تنتهي بحرف "الراء"، ثم تسع آيات تنتهي ثمانية منها بحرف "الدال" وواحدة "بالباء". ثم آيتان تنتهيان بحرف "النون" وقبله متحرك. وهكذا تتنوع فواصل هذه السورة الكريمة. ويقول "سيد قطب" معلقا على هذه الظاهرة: "السورة نموذج واف لهذا الأفق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني، ويبدو فيها تعدد نظام الفواصل، وتغير حروف القوافي، بحسب تنوع المشاهد"[3].

تأثير الفاصلة القرآنية:

للفواصل القرآنية بأنواعها الثلاثة تأثير إيجابي جليّ على صُعد عدة. يقول "عبدالفتاح لاشين": "الفاصلة لها أثر في نسق الكلام، واعتدال المقاطع، وتجعل موقعه حسنا في النفوس، وتؤثر فيه تأثيرا لا ينكر، وتناسب الأطراف، وتماثل الحروف، مما يريح السامع، ويجذب انتباهه"[4]. وكلام

---

(1) الحسناوي: **الفاصلة في القرآن**، ص293.

(2) السابق: ص294.

(3) سيد قطب: **في ظلال القرآن**، مج6، ص3902.

(4) لاشين: **الفاصلة القرآنية**،ص22.

"لاشين" هذا يركز على الفاصلة المتوازية. لكن ماذا عن النوعين الآخرين؟ وما تأثيرهما؟ ونجد إجابة لذلك عند باحث آخر، إذ يقول: "دقات الساعة المتوالية حين تبدأ أو تتكرر الدقات يعيشها السامع، ولما كان تكرار الدقات يتبع نظاما معينا، فإنّ السامع يتوقع أن تتكرر الدقات بذلك النظام نفسه في المستقبل، وقد يكون هذا التوقع أو الانتظار شعوريا، وقد يحتل شبه الشعور، دليل ذلك أنّه إذا توقفت الساعة عن العمل كان توقفها سببا في لفت نظرك إليها، والبحث عن أسباب توقفها، ومعنى ذلك أنّ حدوث الأشياء بنظام مخالف لما نتوقع يحدث في أنفسنا شيئا من الدهشة والاضطراب، وهذا هو عينه التعليل النفساني لما يحدث من ارتياح عند الاستماع إلى الموسيقا الصوتية المنسجمة، أو إلى الشعر الموزون، وإلى النثر المسجوع"[1].

إذاً فهدف الانتقال من الفواصل المتوازية إلى الفواصل المطرّفة والفواصل المتوازنة هو إثارة انتباه السامع، وإخراجه من غفلة استرساله مع الفواصل المنسجمة، تلك التي، مع أنها تريحه وتجذب روحه وعاطفته، إلا إنها قد تقيّد عقله عن تلمس المعاني الكامنة وراء ذلك الانسجام، فتأتي الفواصل المطرّفة والمتوازنة لتخرجه من تلك الحال إلى حال الانتباه ومتابعة المضمون، وعادة ما يكون مضمونا جديدا يستدعي تغييرا في الفاصلة، ذلك أن أغلب مجموعات الفواصل المنسجمة تجدها تتناول موضوعا واحدا، ثمّ تظهر فواصل جديدة بظهور موضوع جديد[2].

إسهام فواصل "جزء عمّ" في تميّزه.

أسهمت فواصل "جزء عم" في تميّزه، إلى حد كبير، وذلك من جوانب عدة، أهمها:

أ- التنوع اللافت للفواصل داخل السورة الواحدة في "جزء عم"، مع قصر السور، وهذا يحقق إيقاعات مختلفة متباينة تعكس تأثيرات متباينة في نفوس السامعين كذلك، مما يجعل "جزء عمّ" بحق ذا تأثير متميّز على النفس، والأذن البشرية، بين سائر الأجزاء؛ وذلك لأنّ معظم سوره تنتمي إلى المرحلة المكية الأولى، التي كانت تتطلب جذب انتباه السامعين، والتأثير فيهم عاطفيا وعقليا عند أول استماع لتلك السور المبكرة، وهذا ما حدث فعلا، وخصوصا لدى أناس عُرفوا بالفصاحة، تؤثر فيهم الكلمة العربية الموزونة، المنسجمة مع غيرها، المنظومة بدقة.

---

(1) حامد عبدالقادر: **دراسة في علم النفس الأدبي**، القاهرة، ص86، د.ن.

(2) انظر لاشين: **الفاصلة القرآنية**، ص48.

ب- التنوع اللافت للفواصل تبعا للانتقال من سورة إلى أخرى، وهذا يحقق الهدف نفسه من توخي شدّ الانتباه، وجعل كلّ سورة في الجزء متميّزة، بالرغم من تماهيها مع الطبيعة العامة للجزء في مستويات عدة، وإسهامها في رسم معالمه المتفردة.

ج- استحواذ نوع الفاصلة المتوازية على الجزء، مع تقارب الفواصل في معظم سوره، جعل منه منظومة إيقاعية متفردة مؤثرة ميزته من سائر الأجزاء القرآنية.

ومما يؤكد تميز "جزء عم" بفواصله القرآنية، وأنها تشكل ملمحا أسلوبيا مهمّا فيه، هو الاهتمام الكبير بها من قبل مفسّر معاصر مثل "سيد قطب" حظي بمكانة كبيرة بين الدارسين، وخصوصا فيما يتعلق بالجانب التصويري والصوتي في القرآن، فنجد "الحسناوي" في معرض تناوله لإسهامات المحدثين في موضوع الفاصلة القرآنية، يذكر أن "قطب" توفّر على الفاصلة أكبر التوفّر في "جزء عم" بالذات، وربط -أي قطب- الفاصلة بسياقها في المقطع والسورة والجزء والقرآن بأسره، لما لها من الأهمية. وتوسّع في تطبيق إيقاعات الفواصل الحسية العنيفة والغامضة والرخية. وأبرزَ ظاهرة التناسق، لا سيما التناسق الموسيقي والنفسي والفكري للفظة الفاصلة، وحروفها، وقرينتها المتنوعة الطول، من خلال ظاهرة التكرار[1]. وهو لم يركز على "جزء عم" بالذات إلا لِما وجد من تميزه بالفاصلة أكثر من غيره من الأجزاء القرآنية الأخرى.

قضية مراعاة الفاصلة:

هذه القضية أثارت جدلاً ونقاشاً كبيرا بين العلماء المختصين بالدراسات القرآنية. ومفادها: هل يغيّر القرآن نسق تعبيره مراعاة للفاصلة القرآنية؟ أي هل يزيد وينقص من ألفاظه، أو يقدّم ويؤخر، أو يؤثر لفظا على لفظ، مراعاة لتناسب وتوافق الفواصل فيه؟

"الفرّاء" هو أول من ناقش هذه القضية في كتابه "معاني القرآن"، حيث يتخذ هذا العالم من رعاية الفاصلة – في مقام أول – وسيلة ترجيح لبعض القراءات القرآنية، فحول قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ (النازعات:11)، يقول "الفرّاء": "حدثني مندل عن مجاهد عن ابن عبّاس أنه قرأ ناخرة، وقرأ أهل المدينة نخرة. وناخرة أجود الوجهين في القراءة، لأن الآيات بالألف. ألا ترى أن

(1) الحسناوي: الفاصلة في القرآن، ص67-68.

ناخرة والحافرة، والساهرة أشبه بمجيء التنزيل، والناخرة والنخرة سواء في المعنى بمنزلة الطامع والطَمِع والباخل والبَخِل"[1].

وحول قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ (الفجر: 4)، قال: "وقد قرأ القراء "يسري" بإثبات الياء و"يسر" بحذفها. وحذفها أحبّ إليّ لمشاكلتها رؤوس الآيات، ولأنّ العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها. أنشدني بعضهم:

كفاكَ كفٌ ما تُليقُ درهماً ... جُودا، وأخرى تُعطِ بالسيفِ الدّما

وأنشدني آخر:

ليس تخفي يَساريَ قَدْرَ يومٍ ... ولقد تُخْفِ شيمتي إِعْساري"[2]

في مقام ثان يذهب هذا العالم إلى القول إن القرآن يعمد أحيانا إلى الحذف إذا سوّغ ذلك دليل سبقت دلالته على المعنى، بغية اتفاق رؤوس الآيات. ويضرب على ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾(الضحى: 3). ويعلّق على تلك الآية قائلا: "وماقلاك، فأُلقيت الكاف كما تقول: قد أعطيتك وأحسنت. ومعناه: أحسنت إليك. فتكتفي بالكاف الأولى من إعادة الأخرى، ولأنّ رؤوس الآيات بالياء، فاجتمع ذلك فيه"[3].

في مقام ثالث يرى الفرّاء في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ (الزلزلة: 1) أنّ المصدر أضيف إلى صاحبه رعايةً للفاصلة، كأن يقول الإنسان: لأعطينك عطيتك، وهو يريد: لأعطينك عطية[4].

---

(1) الفراء، يحيى بن زياد: معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط3، 2001م ج3، ص231.

(2) السابق: ص260.

(3) السابق: ص273-274.

(4) السابق: ص283.

ويرى "محمود نحلة" أن الفراء في ملاحظاته تلك لم يقرر مطلقا أنّ القرآن قد يعدل عن نسق إلى آخر، أو يؤثر لفظا على غيره، مقصدا إلى المشاكلة بين رؤوس الآيات"[1] لذا استنكر نحلة هجوم عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" على الفرّاء لفهمها الخطأ – على حدّ قول نحلة – لكلامه.

و"عائشة عبدالرحمن" في كتابها "الإعجاز البياني في القرآن" ردّت على "الفرّاء"، وحاولت تفنيد رأيه القائل بأنّ القرآن يغيّر تعبيره مراعاة للفاصلة القرآنية، وهذا يستدعي أن يكون التغيير أحياناً على حساب المعنى الدقيق والخاص. وقد ناقشت كثيرا من استشهاداته في هذا المجال، وبيّنت خطأها، ومن ذلك آية سورة "الفجر" ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ التي يقول "الفراء" فيها أن ياء العلة حذفت من "يسري" لمشاكلة رؤوس الآيات، فقد ردّت عليه بقولها: "ويكفي للردّ على من ذهبوا إلى حذف الياء في آية "الفجر" لرعاية الفاصلة أن نلفت إلى أن القرآن الكريم لم يقتصر على حذفها هنا في مقاطع الآيات، ليسلم لهم القول بأن الحذف قصد إلى رعاية الفواصل، وتماثل رؤوس الآيات، وإنما حذفت ياء المضارع المرفوع المعتل الآخر، وواوه أيضا، وياء المنقوص مضافا ومعرفا بأل، في أواسط الجمل ودرج الكلام"[2]. واستشهدت "بنت الشاطئ" على ما قالت بمجموعة من الآيات القرآنية تبين أن الحذف كان أحيانا في وسط الآيات وليس آخرها، وهذا من شانه أن يفنّد الرأي القائل أن الحذف يكون لمراعاة الفاصلة القرآنية في آخر الآية[3].

ونجد أن "محمود نحلة" وافق "عائشة عبدالرحمن" في بعض ما ساقته من استشهادات قرآنية دعمت بها رأيها. ولكنه خالفها في بعضها، ورآه استشهادا غير جائز؛ لأن الحذف فيه لالتقاء الساكنين[4]. غير أن "نحلة" المنتصر للفرّاء يرى أن هذا الأمر لا يستحق العناء من "بنت الشاطئ" لأنه – بحسب رأيه – لا صلة له بالمعنى. ويرى أن حذف الباء أو الواو في الآيات التي استشهدت بها لا يؤثر في المعنى بشيء، ومن ثمّ يسقط الاحتجاج بما تقول[5]. وعزّز "نحلة" تأييده للفرّاء بأن ساق شاهدا قرآنيا هو قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾ (القارعة: 9-11)، حيث يرى أن "هاء السكت" زيدت على "ماهي" في الآية "رعاية للفاصلة، وتحقيقا للنسق

---

(1) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص190.

(2) عائشة عبدالرحمن: الإعجاز البياني للقرآن، ص251.

(3) انظر السابق: ص251-252.

(4) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص190-192.

(5) السابق: ص192.

الموسيقي دون أي تأثير في المعنى"[1].

وفي خضمّ هذا الجدل أراني أميل إلى الرأي الذي ينـــص على أنه لا مراعـاة للفاصـلة في القرآن على حساب المعنى. وهو الرأي الذي تبنته مجموعة من الدارسين أمثال "عائـشة عبـد الـرحمن" وغيرها. ففي الاستشهاد الذي ساقه "الفراء" من سورة "النازعـات": ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾، وروى عن ابن عباس أن القراءة بـ "ناخرة" هي الأجود لأنها تراعي الفاصـلة القرآنيـة، وجعـل هـذا مـدعاة لترجيح هذه القراءة خلافا للقراءة الشائعة بـ "نخرة" مستندا إلى أن "نخرة" و"ناخرة" في معنـى واحـد. أرى أن هذا الكلام تنقصه الدقة. ذلك أن "نخرة" تقدم معنى خاصا ودقيقا مناسباً للآيـات لا تقدمـه لفظـة "ناخرة". فـ "نخرة" صفة مشبّهة تستدعي ملازمة الصفة للموصوف و دوامهـا، في حـين أنّ "نـاخرة" اسـم فاعل لا ينطوي على استمرار الصفة وملازمتهـا للموصـوف. وبمـا أن الكلمـة جـرت علـى لـسان المنكرين للبعث في الآية فهم يقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾، فالأنسب أنهم يـستعملون الـصفة المشبهة، حيث عظامهم نخرة، والنخر صفة ستبقى ملازمة لها أبدا، لأنـه لا بعـث ولا نـشور سـيغيّر حالها ويخرجها من هذه الصفة على حدّ زعمهم. فهذا استعمال قرآني دقيق معجز ربما لم يلتفت إليه "الفرّاء" ولا "محمود نحلة". وليس أدلّ على ذلك من أنّ القراءة بـ "نخرة" هي القراءة الشائعة وهي جاريـة على الألسن، فبها نزل القرآن. وإلا لو كانت اللفظتان في معنى واحد كما يتصور لشاعت القراءة بـ "ناخرة" بحكم مناسبتها للفاصلة.

أما قول "الفراء" إن "كاف" الخطاب ألقيت من الفعل "قلى" في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ مراعاة للفاصلة، لأنه دلّ عليها دالّ سابق هو "كاف" الخطاب في "ودعك"، فذلك قول قد تعـوزه الدقة أيضا، ذلك أن حذف "كـاف" الخطـاب مـن "قلـى" لم يكـن الباعـث إليـه – فيمـا أرى – مراعـاة الفاصلة، بل ربما حذفت لإكرام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، حيث المقام في سـورة "الـضحى" كلها هو مقام التكريم والنعمة والإرضاء للرسول الكريم. و"قلـى" معناهـا: هجـر وجفـى، فحـذفت "كاف" الخطاب الدالة على رسول الله من هذا الفعل حتى لا يحـدث أي اتـصال ولـو علـى مـستوى الاستعمال اللغوي بين فعل ينطوي على الجفوة والهجر فاعله "الرب" سبحانه، وبين الرسول الكـريم عليه الصلاة والسلام. أمّا اقترانها – أي كاف الخطاب– مع الفعل "ودّع" فكـان مقبـولا مـن بـاب أن

(1) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص192.

"ودّع" لا تحمل ما تحمله "قلى" من تلك المعاني السلبية المذكورة، بل قد يودّع الإنسان من يحبه ويحترمه إذا اضطرته ظروف لذلك. ولأنه بدأ به، كان لا بدّ من ضمير الخطاب معه.

وكلام "الفراء" حول إضافة المصدر إلى صاحبه في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، وتعليله أن ذلك وقع لمراعاة الفاصلة، فنرى أنه تعليل غير دقيق أيضا، حيث إن الإضافة هنا تقتضي معنى خاصا دقيقا لا تقدمه كلمة "زلزال" وحدها بدون إضافتها إلى "الأرض". فلو كانت الآية على نحو: إذا زلزلت الأرض زلزالا، لما عنت كلمة "زلزال" هنا يوم القيامة بالتحديد، بل أي زلزال، ولكن بالإضافة إلى الأرض كما هو حاصل في الآية فقد حصرت الإضافة "الزلزال" بيوم القيامة، كما يظهر.

وبناء على ما تقدّم نجد أن القرآن لا يلجأ إلى تغيير في تعبيره من حذف أو زيادة أو تقديم أو تأخير، وغيرها من أنساق الكلام مراعاةً للفاصلة، مما يستدعي بناء على ذلك الزعم تخليه عن معنى خاص دقيق لا يناسب السياق غيرُه. لكن الأمر هو أنّ القرآن الكريم يجتمع فيه تقصّيه للمعنى الدقيق العميق، مع وجود فواصل متوافقة منسجمة بعضها مع بعض، ومنسجمة مع المعنى المراد في الوقت نفسه. وهذا من إعجاز القرآن الذي لا يكون في غيره. فهو كلام الربّ الحكيم العالم اللطيف سبحانه. على أننا في الوقت نفسه لا ننكر دور تعدد القراءات القرآنية في تعدد المعاني، وإظهار قدرة القرآن التعبيرية، لكن ليس هو التعدد الذي يقوم بالأساس من أجل مراعاة الفاصلة.



الفصل الرابع

المستوى التركيبي البلاغي للجمل القرآنية في "جزء عمّ"

توطئة:

للغة مستويان من الأداء: المستوى المثالي: وهو الذي يقوم على النحو وقواعده في بلورة عناصره، وعلى اللغة في تأليف تلك العناصر، حيث يقدم صورة مثالية كاملة للغة، فإذا لم تسعفه هذه العبارة الظاهرة الفعلية تطوّع بتقدير هذه الصورة[1].

والمستوى الثاني هو المستوى الإبداعي: الذي يعتمد على اختراق هذه المثالية وانتهاكها[2] بما أطلق عليه الانزياح أو الانتهاك أو العدول. وفي هذا المستوى يحدث الإبداع والابتكار والتجديد، وهو الفضاء الذي يحلّق به علم البلاغة العربية، الذي يقوم على مقولتين: الأصل المثالي، ثمّ الانحراف عنه[3].

والمستوى التركيبي هو أحد مستويات التحليل الأسلوبي، وهو يتمثل بدراسة الأشكال اللغوية المنحرفة على صيغة أو شكل لغوي منطقي يكون في درجة الصفر من التعبير[4]. وسنتناول مظاهر الانزياح والعدول التي لها أثر دلالي ووظيفة فنية تغني النص، وتضفي عليه اللمسة الإبداعية، وهي:

---

(1) عبدالحكيم راضي: **نظرية اللغة في النقد العربي**، مكتبة خانجي، القاهرة، 1980م، ص191-192.

(2) محمد عبدالمطلب: **البلاغة والأسلوبية**، ص198.

(3) عبدالحكيم راضي: **نظرية اللغة**، ص210.

(4) حمادي صمود: **الوجه والقفا في تلازم الحداثة والتراث**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1988م، ص99-100.

التقديم والتأخير:

وهو بؤرة مباحث الأسلوب الدائرة حول التركيب، ويكتسب هذا المبحث أهمية خاصة من حقيقة أنه يخضع للطابع الخاص بها فيما يتعلق بترتيب الأجزاء داخل الجملة فيها[1]. حيث هو مرآة لإظهار ترتيب المعاني في النفس[2]. فالكلمات: "تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس"[3]. وهو "تحوّل في بنية الجملة نحو إعادة ترتيب المفردات وتركيبها في الجملة على نحو يرتبط أسلوبياً وفكرياً بالمنشئ... وترمي الأسلوبية إلى فحص النص الأدبي في تراكيبه اللغوية للكشف عن القيم الجمالية التي تكمن خلفها، والاختيار في النظرة الأسلوبية كذلك إمّا أن يكون خاضعاً لإرادة المنشئ، أو واقعا لا خيار فيه له"[4]. وعليه فإنّ عملية "التقديم والتأخير" في مستواها النحوي وداخل العملية الإسنادية، تدخل في إطار الانزياح في النحو في التناول الأسلوبي، من حيث إنه خرق للنمط المألوف لتركيب الجملة العربية. ولكن يكون الانزياح في مستواه النحوي عدولا عن البنية السطحية لا العميقة، لأن الثانية فرض ذهني غير مرتبط بالاستعمال، عكس الأولى المرتبطة به. وبناء على هذا الكلام فيمكن القول إن الأسلوب هو انزياح عن قاعدة الاستعمال اللغوي، لا انزياح عن القاعدة الذهنية التصورية[5].

وهناك ملمح إبداعي وراء التقديم والتأخير، يؤدي إلى تغيير موقع الكلمة داخل السياق، وفي هذا الشأن يقول "فندريس": إن ذلك في غاية الدقة، ويتطلب حساً لغويا مدرّباً، ولطفاً عاليا في الذوق الأدبي، يضاف إليه معرفة نادرة بالظروف الفيلولوجية للغة المدروسة"[6].

واللغة العربية زاخرة بظاهرة "التقديم والتأخير". وذلك لأنها من اللغات التي لا تأخذ فيها الكلمة صفتها النحوية اعتمادا على موقعها، بل اعتمادا على الإعراب. لذا كانت الكلمة حرة في

---

(1) عبدالحكيم راضي: **نظرية اللغة**، ص211.

(2) خليل عمايرة: **في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق، دراسات وآراء في ضوء علم اللغة المعاصر**، عالم المعرة، جدة، 1984م، ص88.

(3) عبدالقاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة،ص40.

(4) أبو العدوس: **الأسلوبية:الرؤية والتطبيق**، ص276-277.

(5) السابق، ص188.

(6) ج فندريس: **اللغة**، تعريب: عبدالحميد الدواخلي وزميله، مكتبة الأنجلو المصرية، لجنة البيان العربي، القاهرة،1950، ص188.

حركتها داخل الجملة[1]. ومع ذلك فإنّ هناك رتباً لترتيب الكلمات في الجملة: فالفعل عادة يتقدّم على الفاعل، والمبتدأ على الخبر، وهكذا[2]. ولا يعدل عن هذه الرتب إلاّ لما يراد من معنى خاص يدخل في إطار البلاغة والإبداع. يقول "سيبويه" عن العرب في هذا الشأن: "يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كان جميعا يهمانهم ويعنيانهم"[3].

واهتمام البلاغيين برتب الكلمات في الجملة يختلف عن اهتمام النحويين بها، ففي الوقت الذي يهتم النحويون بالرتبة من حيث كونها أحد عناصر التركيب المثالي في الأسلوب اللغوي المعتمد على النحو التقعيدي، فإنّ البلاغيين يهمّهم في الرتبة ما يكشف عن مدى العدول عنها وكيفية ذلك العدول، والذي ينطوي على نزعات نفسية تصبغ فعل التخاطب، كتشويق السامع، أو التفاؤل، أو التلذذ[4]. أو أحيانا الاختصاص[5]. أو التفخيم وحسن الذوق واللياقة[6]. وحول هذا يقول "عبدالعزيز عتيق": "ليس شيء من أجزاء الكلام في حد ذاته أولى بالتقدم من الآخر، لأن جميع الألفاظ من حيث هي ألفاظ تشترك في درجة الاعتبار، وهذا بعد مراعاة ما تجب له الصدارة كألفاظ الشرط والاستفهام. وعلى هذا فتقديم جزء من الكلام أو تأخيره لا يرد اعتباطاً في نظم الكلام وتأليفه، وإنما يكون عملاً مقصوداً يقتضيه غرض بلاغي، أو داع من دواعيها"[7].

ولأهمية "التقديم والتأخير" في إبراز الجانب الإبداعي في الخطاب من حيث إنه أقوى أسباب العدول، فقد نال اهتماما واسعا من البلاغيين[8]. وعلى رأسهم "الجرجاني"، حيث يقول فيه: "هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفترّ عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر فتجد سبب أن راق لك، ولطف عندك أن قُدّم به شيء، وحُول اللفظ عن مكان إلى مكان"[9].

---

(1) ريمون طحان: **الألسنية العربية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972م، ج2، ص11.

(2) محمد عبد المطلب: **البلاغة والأسلوبية**، ص201.

(3) سيبويه: **الكتاب**، تح: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988، ج1، ص35.

(4) عبدالمطلب: **البلاغة والأسلوبية**، ص201.

(5) أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي: **مفتاح العلوم**، القاهرة، 1937م ص96.

(6) احمد الشايب: **الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط6، 1966م، ص197.

(7) عبدالعزيز عتيق، **علم المعاني**، دار النهضة العربية، 1974، ص149.

(8) انظر: حميد العامري: **التقديم والتأخير في القرآن الكريم**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1996م، ص12-51.

(9) الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، ص83.

والغالب على "جزء عمّ" هو الترتيب الاعتيادي للكلمات في سياق جملها، الاسمية منها والفعلية، حيث المبتدأ يتقدم على الخبر، والفعل على الفاعل، وهو ما يمكن أن نطلق عليه التزام الرتب في إنشاء الجملة. على أنّ الجزء كذلك لم يخلُ من مواضع ظهر فيها "التقديم والتأخير" البلاغي لأغراض متعددة. ويجدر بالذكر أن النظم القرآني هو منتهى البلاغة، سواء في ترتيبه الاعتيادي للكلمات، أم فيما ظهر فيه التقديم والتأخير، ذلك أن النظم هو توخي معاني النحو، والنظم هو البلاغة. ودراستنا تقوم على تتبع الظواهر اللغوية التركيبية، سعياً للوصول إلى تحليل وفهم للخطاب القرآني الكريم. وليس المقصود هو إظهار أن مواضع قرآنية معينة في "جزء عم" هي البليغة دون غيرها. فكل القرآن هو بليغ ومعجز في بيانه ونظمه ولا ريب.

أ- تقديم المسند إليه:

المسند إليه والمسند هما الركنان الأساسيان في الجملة، يقوم عليهما المعنى. والمسند إليه هو المخبَر عنه[1]. وله صور عدة في السياق العربي، هي: الفاعل، نائب الفاعل، المبتدأ الذي له خبر، ما أصله مبتدأ وخبر أي: (اسم كان وأخواتها، اسم إن وأخواتها، المفعول الأول للفعل ظنّ، المفعول الثاني لـأرى وأخواتها)[2].

ومن أمثلة تقديم المسند إليه في "جزء عمّ" قوله تعالى في كل من المواضع الآتية: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات: 24). ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾(المطففين: 27). ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر: 3). ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾(الغاشية: 8). ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (النازعات: 8). ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾(عبس: 42). ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ (الماعون: 2). ونلحظ في كلّ الأمثلة السابقة أن المسند إليه هو "المبتدأ". وقد تقدّم لأغراض متعددة منها:

1. **لأن تقديمه هو الأصل**، ولا مقتضى للعدول عنه؛ لكونه محكوما عليه فيكون مقدّما في الذهن. ويتقدم كذلك ما كان أصله مبتدأ، مثل "اسم إنّ" للغرض ذاته، ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات: 6). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ (العصر: 2).

---

[1] حميد العامري: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ص56.

[2] السابق: ص57-58.

2. التشويق: كما في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ فالقول: وجوه يومئذٍ.. يشوق السامع إلى معرفة حال هذه الوجوه. فتأتي 'ناعمة' لتبل ظمأه. والأمر نفسه في قوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾.

3. التوبيخ: كما في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾، فيظهر لي أن تقديم المسند إليه 'أولئك' إلى جانب أن تقديمه هو الأصل، فهو ينطوي كذلك على توبيخ وإهانة للكفار أصحاب الوجوه السوداء المغبرة، كما أوضحت الآية السابقة لهذه الآية. والأمر نفسه وراء تقديم المسند إليه في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾.

4. التعالي: كما في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، فيبدو لي أن فرعون في حقيقة الأمر لا يهمه أن يكون لقومه ربٌّ، ولكن يهمه أن يكون هو الرب لهم، فنراه احتكر هذا الأمر وقصره على نفسه، فتقدم المسند إليه 'أنا' لإظهار التعالي والخيلاء في نفس ذلك المسرف الظالم.

5. التخصيص: وذلك عندما يكون المسند إليه مسبوقاً بنفي، ويكون الخبر فعلاً، وما في معناه، كاسم الفاعل واسم المفعول[1]. ونجد ذلك في 'جزء عم' في قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾. فالمسند إليه 'التاء المتحركة' مسبوقة بنفي 'ليس'، والخبر 'بمسيطر' هو اسم فاعل بما معنى الفعل، فيكون تقدم المسند هنا للتخصيص. ويفيد نفي هذا عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإثباته لله تعالى[2].

ب- تقديم المسند:

والمسند هو المخبر به أو المحكوم به[3]. ويأتي على صور عدة، هي: الفعل التام، اسم الفعل، خبر المبتدأ، ما أصله خبر المبتدأ: (خبر كان وأخواتها، خبر إنّ وأخواتها، المفعول الثاني لظنّ

---

(1) فضل حسن عباس: **البلاغة فنونها وأفنانها، (علم المعاني)**، دار الفرقان، عمّان، ط9، 2004، ص222.

(2) السابق: ص223.

(3) العامري: **التقديم والتأخير في القرآن الكريم**، ص92.

وأخواتها، المفعول الثالث للأفعال التي تنصب ثلاثة مفاعيل)، المصدرالنائب عن فعل الأمر[1].

والمسند يتقدّم لأغراض منها:

1. **الأهمية**. ومن ذلك قوله تعالى في المواضع الآتية: ﴿وَخَلَقْنَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (النبأ: 8). ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ (الشمس: 11). ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾(التكاثر: 1). ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: 21). ونلاحظ في كل الأمثلة السابقة أن المسنَد وهو "الفعل" قد تقدم على المسند إليه وهو "الفاعل" أولاً: لأنّ أصله التقديم ولا مقتضى للعدول عنه اعتمادا على الرتبة. وثانياً: - وهو الأهم في رأيي - هو غرض الأهمية. إذ أن الأهمية تتجه إلى الخلق بحد ذاته في الآية ﴿وَخَلَقْنَكُمْ أَزْوَاجًا﴾قبل اتجاهها إلى كون خلق الناس أزواجا، فتقدم المسند وهو الفعل خلق على فاعله المسند إليه. وفي الآية: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾، فالأهمية هي لبيان التكذيب من ثمود، لا لثمود نفسها، فتقدم فعل التكذيب على فاعله. والأهمية في ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ هي لبيان الإلهاء الذي سببه التكاثر، لا للتكاثر بعينه، فنراه قدمه. والأمر نفسه في قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، فالأهمية في هذا المقام تتجه نحو بيان الشهادة من المقربين، لا للمقربين أنفسهم، فقدم المسند "يشهد".

2. **القصر والتوكيد والاختصاص**: كقوله تعالى في المواضع الآتية: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَبِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: 37). ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (الغاشية: 12). ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾(القدر: 5). ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ (البلد: 20). وأخيراً: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾(المسد: 5). ونلحظ أن تقديم المسنَد وهو "الخبر" في كلّ الأمثلة السابقة قد أفاد القصر الذي هو من أساليب التوكيد[2]، حيث إن العين الجارية هي مقصورة على تلك الجنة العالية وخاصة بها، والسلام بمستوى من المستويات مقصور على ليلة القدر وهو من مزاياها دون غيرها من الليالي، والنار مقصور إيصادها على الكفار، وحبل المسد مقصور على حمالة الحطب وخاص بها.

---

(1) العامري: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ص92-93.

(2) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص262.

3. التشويق: كما في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾(عبس: 40)، في هذه الآية تقدمت شبه الجملة الخبر "عليها" على المبتدأ "غبرة"، لتشويق القارئ إلى معرفة حال وجوه الكفرة، حيث تتقدم الجملة " وجوه يومئذ عليها.." ثم تأتي كلمة "غبرة" نتيجة[1].

ج- تقديم المفعول به:

1. تقديم المفعول به على الفاعل:

ولم نقع إلا على موضعين له في "جزء عم"، هما قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (النازعات: 16). وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ (النازعات: 25). حيث تقدّم في الموضع الأول المفعول به وهو الضمير المتصل بالفعل "ناداه" على الفاعل "ربه"، لقاعدة نحوية مفادها أنه إذا أمكن اتصال الضمير فلا يؤتى به منفصلا[2]. وفي الموضع الثاني تقدّم المفعول به، وهو الضمير المتصل في "أخذه" للمسوّغ نفسه. وبما أن البلاغة هي توخي معاني النحو، فالتقديم هنا ينطوي على بلاغة ولا ريب.

2. تقديم المفعول على الفعل والفاعل معا:

وذلك في كل من الآيات الآتية: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (النبأ: 29). ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات: 30). ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (النازعات: 32). ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ (عبس: 20). وأخيراً: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝﴾ (الضحى: 9-10).

ونلحظ في كلّ الآيات السابقة كيف تقدم المفعول به على الفعل والفاعل معاً. والأغراض البلاغية من وراء هذا التقديم للمفعول متعددة، سنناقش بعضها فيما يأتي. فقيل بعضه لرعاية

---

(1) إبراهيم عقلة الحجاج: جزء عم: دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية،جامعة مؤتة، الأردن، 2006م،ص14.

(2) يقول ابن مالك: وفي اختيار لايجيء المنفصل إذا تأتى أن يجيء المتصل. ابن عقيل، بهاء الدين عبدالله بن عبدالرحمن: **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، تحقيق: طه محمد زيني، مكتبة محمد صبيح، القاهرة، 1965، ص185.

الفاصلة[1]، ولا يلتفت إليه كما قال فضل حسن عباس[2]. ففي قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝﴾ (الضحى: 9-10). في الآيتين استفهام تقريري باستخدام همزة الاستفهام، وهو تأكيدي ينطوي على منٍّ وفضل من الله على رسوله، فكان من المناسب والمتوائم مع السياق أن تستخدم الأداة 'فأمّا' الرابطة، بعد الاستفهام ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝﴾(الضحى: 6-7). وبما أنه استخدمها فقد سوّغ ذلك تقديم المفعول به على الفعل والفاعل، بل أوجب ذلك، فلا يمكن أن تكون الجملة: فأما لا تقهر اليتيم، لأن 'أمّا' لا يمكن أن يتبعها فعل مضارع منفي، ولكن يتبعها اسم بلا إشكال. و يبدو لنا أن تقديم المفعول هنا فضلا على أن له مسوّغا نحويا، فقد انطوى أيضا على غرض بلاغي؛ هو إظهار أولوية اليتيم بعدم القهر على غيره، لأنه فاقد للأب أو للأم أو للاثنين معا، وذلك أدعى إلى الحنان والعطف عليه. وفي المقابل قهره لا يتأتى إلا عن قسوة شديدة في القلب. وكذلك فإن السائل أولى الناس بألاّ يُنهر، ذلك أنه محتاج، ودفعته الحاجة لإراقة ماء وجهه وإهدار كرامته بذلّ السؤال، فهو في حال نفسية ومادية يرثى لها، لا تحتمل بعد ذلك النهْر والجفاء، وبناء على ما سبق ربما كان الغرض البلاغي هنا هو الإبراز والأولوية أو التخصيص كما يرى فضل عباس[3]. ومن هنا ندرك أن التقديم في الآيتين السابقتين لم يكن رعاية للفاصلة كما ذكر بعض الدارسين[4].

أمّا الغرض من تقديم الأرض في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، فهو – فيما أرى – المقابلة مع السماء، التي قدمت أيضا في السياق السابق للآية المذكورة، وهو قول المولى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾، فالسماء هنا تقدمت في السياق، لا على أنها مفعول به مقدم على الفعل والفاعل، بل لأنها كانت من أركان الجملة الاستفهامية: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، ثم دل عليها الضمير في 'بناها' لذا فكان من المناسب أن تتقدم 'الأرض' في سياقها كما

---

(1) انظر عبدالفتاح لاشين: **المعاني في ضوء أساليب القرآن**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1999م، ص169.

(2) فضل حسن عباس: **البلاغة فنونها وأفنانها -علم المعاني**، ص243.

(3) السابق: ص243.

(4) عبدالفتاح لاشين: **المعاني في ضوء أساليب القرآن**. ص169.

تقدمت السماء، ولكن تقدم "الأرض" أخذ صورة "تقديم المفعول به على الفعل والفاعل". هذا من جهة التناسب والمقابلة، أما من جهة المعنى البلاغي، فتقديم "الأرض" دلّ على التخصيص بعملية "الدحو". وعليه فيظهر لي أن "الدحو" ليس هو مجرد جعلها كروية، بل إضافة إلى ذلك جعلها صالحة للعيش عليها، وهذا مقصور على الأرض وحدها من بين الكواكب الأخرى، وإلا فإنّ الدحو لو كان بمعنى "التكوير" فهو أصابها وأصاب غيرها من الكواكب، فلا تخصيص لها بناء على هذا المعنى المحدود. ويؤكد هذا المعنى ما أورده الزمخشري في الكشاف في تفسيره لهذه الآية؛ حيث فسّر "دحاها" بقوله: "دحاها بسطها ومهدها للسكنى.. بما لا بد منه من تأتي سكناها من تسوية أمر المأكل والمشرب وإمكان القرار عليها والسكون...."[1].

أمّا تقديم "كل شيء" في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾، فيبدو لي أن الغرض من ورائه التأكيد على الإحاطة والشمولية، وهي أولى من تقديم "أحصينا"، لأن السياق هنا يندرج تحت إطار إظهار القدرة الإلهية، وهذا لا يكون بمجرد الإحصاء، الذي يشترك فيه الخالق مع المخلوق، ولكن يكون بشمولية الإحصاء وإحاطته؛ بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

د- تقديم الجار والمجرور والظرف:

وهذا يغلب أن يكون في جمل الماضي المثبتة، ومثل هذا التقديم يكون عادة لإبراز المقدّم ليقع في نفوس المخاطبين، ويذعنوا له[2].

ويلحظ أن ظاهرة تقديم الجار والمجرور هي السائدة هنا بالمقارنة مع تقديم الظرف، الذي سيُمثّل بشاهد واحد هو قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات: 30). كما ويلحظ أن الجار والمجرور، أو الظرف، في الغالب لا يتقدمان على كل أجزاء الجملة فيبدأ بهما، بل يتقدمان على أجزاء داخل الجملة، وعادة ما يكون هو المفعول به، كما هو في قوله تعالى في كل من المواضع القرآنية الآتية: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾(النبأ: 14). ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ (الشرح: 2). ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (عبس: 27). ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

---

[1] الكشاف: ج4، ص215.

[2] لحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص274.

(المطففين: 14). ولم يحدث أن تقدّم الجار والمجرور على كل أجزاء الجملة في "جزء عم" إلاّ في ثلاثة مواضع، هي: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾(عبس: 19). ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: 8). ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾(المطفين: 35).

وكان غرض التقديم في كل ما سقناه من شواهد قرآنية هو إبراز المقدّم كما مرّ، ولكنّ هذا الإبراز قد يتفرّع إلى معانٍ خاصة مختلفة، لا بأس أن نضيء بعضها توخيا للفائدة، وتحريا للغرض البلاغي الدقيق وراءها. ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾، فيبدو لي أنه قدّم الجار والمجرور "من المعصرات" للفت الأسماع والعيون إلى السحاب المتراكم في السماء بما يمثّل الرهبة ويجسّد القدرة الإلهية، أو حتى لا يذهب الذهن إلى ماء آخر غير ماء الغيث الذي ينزل من السحاب. وربما للإشارة إلى القدرة وإلى النعمة في آن معاً، فالقدرة متمثلة بتشكيل السحب، والنعمة متمثلة بإنزال الماء منها، والقدرة تسبق النعمة.

وفي قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾. فأرى أنه قدم الجار والمجرور "على قلوبهم" لأنّ الأهمية هنا للقلب الذي هو محط الإيمان وعدمه، ومحط أثر الصالحات أو السيئات، فهو مرآة تعكس ما بداخلها على حياة الإنسان. وليست الأهمية للعمل السيئ الذي اكتسبوه بحد ذاته، بل بمدى تأثيره على قلوبهم.

أمّا تقديم الجار والمجرور "من نطفة" على كامل الجملة في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾، فيبدو لي أن الغرض منه التحقير والتقليل، وساعد على ذلك تنكير "نطفة" وهو ما سنبحثه في باب التنكير والتعريف لاحقا.

الحذف والذكر:

سنستخدم مصطلح "الحذف" اتباعا لما درج عليه غالب الدارسين من القدامى والمحدثين، لئلا يُتوهم أنا نتناول موضوعاً مختلفاً. وإن كنا نفضل استعمال مصطلح "عدم الذكر" بدلاً منه، لأنه الأنسب في مقام القرآن الكريم. المقصود بالذكر هنا هو ذكر الكلمة، سواء أكانت مسندا إليه أم

مسنداً، مع قيام قرينة دالة عليه تجوّز حذفه، و يكون ذلك لغرض بلاغي"[1]. أما الحذف فهو: "إسقاط الكلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام"[2]. وهو يعتري الجملة والمفرد والحرف والحركة[3]. وينبغي أن يقع في ما لا يختل به المعنى بالحذف. يقول "ابن جني": "إن الحذف لا يكون إلا عن دليل عليه، وإلاّ كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"[4]. وبعض المحدثين يقسم المحذوفات إلى محركات وواصلات. ويقصد بالمحركات الأسماء والأفعال، بغض النظر عن وظيفتها، أساسية كانت أم ثانوية. أمّا الواصلات فيقصد بها الحروف والأدوات، باستثناء ما قام منها بوظيفة أساسية في التركيب[5]. وللحذف دور في تكريس ما يسمّى في الدرس الأسلوبي "الاتساق النحوي"؛ وذلك باستخدام الأدوات الاتساقية التي يربط فيها منشئ النص بين عرى النص وجمله، وهي تعد ظاهرة أسلوبية يجري توظيفها على مستوى النص[6].

وقد حظي هذا الباب باهتمام القدماء، ومما قيل فيه ما ورد عن "الجرجاني": "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد من الإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تبن. وربّ حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد"[7]. ويبيّن "محمد عرفة" علّة ذلك الحسن الذي يحققه الحذف، والتي لم يذكرها "الجرجاني" في معرض كلامه الآنف. يقول عرفة: " فالمحذوف تدلّ عليه قرائنه، فإذا ذكر كان ثقيلاً في موضعه، لأنه تعريف لما عُرّف، وبيان لما بُيّن، وإذا حُذف رُفعت المؤونة عن السامع بذكره، ورُفعت الكلفة التي تكون عليه عندما يسمع حديثاً معاداً، أو كلمة لم يجد فيها فائدة جديدة، فالكلمة الخالية من الفائدة كالثقيل تُؤذى العين بوجوده، فإذا لم تبصره في موضع كان يتوقع وجوده فيه، وجدت لذلك من الأنس والمحبة ما يغمر القلب سروراً"[8].

---

(1) لاشين: **المعاني في ضوء أساليب القرآن**، ص145.

(2) الرماني: **النكت**، ص70.

(3) ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي: **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية،ج2، ص360.

(4) ابن جني: **الخصائص**، ص360.

(5) محمد الهادي الطرابلسي: **خصائص الأسلوب في الشوقيات**، الجامعة التونسية، 1984م، ص303-304.

(6) أبو العدوس: **الأسلوبية: الرؤية والتطبيق**، ص236.

(7) الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، ص105-109.

(8) محمد عرفة: **مشكلة اللغة العربية**، ص86.

ويضيف "عبد الفتاح لاشين" معللا حسن الحذف كذلك: "إنّ في الحذف ما يشغل الفكر، ويعمل في تحديد المحذوف ومكانه، فالمعاني بعد أن كانت تأتي من الألفاظ اشترك العقل في الدلالة عليها والإشارة إليها"[1].

هذا وقد بسط "الزركشي" القول في فوائد الحذف، فذكر له ستاً من الفوائد منها التفخيم والإعظام، وطلب الإيجاز والاختصار، والتشجيع على الكلام، وغيرها[2].

ويلاحظ فيما سبق من كلام في تعريف تلك الثنائية الأسلوبية "الحذف والذكر" أن التركيز الأكبر كان منصبّاً على "الحذف" أكثر منه على "الذكر"، حتّى أنّ "الزركشي" لم يذكر الأخير في كتابه "البرهان"، واعتنى بظاهرة "الحذف"، بل أسهب في تفصيلها وإيضاحها وإيراد الشواهد عليها[3]. وقد يعلّل ذلك ما سقناه من كلام "محمد عرفة" و"عبدالفتاح لاشين" في بيان جمالية "الحذف" وفائدته، الأمر الذي لم يكن "للذكر" منه إلا حظ قليل.

أوّلا: "الذكر"

من أمثلة الذكر في "جزء عم" قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝﴾ (عبس: 17-19)، حيث إن "خلقه" الثانية هي فعل يجوز حذفه أو ذكره من الناحية اللغوية، لأن هناك قرينة دالة عليه وهي جملة الاستفهام السابقة: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ فلو كان الجواب: "من نطفة فقدّره" لجاز، ولكان واضحا، ولكن القرآن ذكر الفعل "خلقه"، وكرّره، ليؤكد خالقية الله سبحانه للإنسان، وليهيئ - فيما أرى – للفعل اللاحق "قدره". فكان الذكر في محلّه، وأدّى دوراً بلاغياً ولغويا في آن معاً. ويلحظ كذلك أن اللفظة المكررة "خلقه"، مرة جاءت ضمن أسلوب إنشائي هو الاستفهام "من أي شيء خلقه؟"، ومرة جاءت ضمن الأسلوب الخبري "من نطفة خلقه فقدره"، وذلك أحدث توازناً ما.

---

(1) لاشين: **المعاني في ضوء أساليب القرآن**، ص151.

(2) انظر الزركشي: **البرهان**، ج3، ص104-105.

(3) السابق: ص103 ومابعدها.

ونجد الذكر كذلك في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ (عبس: 38-40)، وهنا ذكر القرآن "يومئذ" الثانية، بالرغم من وجود قرينة دالة عليها هي "يومئذ" الأولى. لذا جاز حذفها أو ذكرها. ولكنّ القرآن ذكرها فيما يبدو لي لغرض بلاغي؛ هو زيادة التنبيه إلى ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ونرى أنّ الذكر في أحد مستوياته يتقاطع مع "التكرار اللفظي"، كما مرّ في تكرار الفعل "خلقه" في سورة "عبس". والتكرار والذكر يقدمان الغرض البلاغي نفسه في كثير من الأحيان.

ثانياً: الحذف "عدم الذكر"

من أنواعه المتحققة في "جزء عم": حذف المسند إليه، وحذف المسند، وحذف المضاف، وحذف الموصوف، وحذف الصفة، وحذف المفعول به، وحذف الجار والمجرور. ولكل نوع من الأنواع السابقة أغراضه البلاغية، وتوظيفاته الفنية. والقرآن الكريم هو المنتهى فيها وغاية الكمال، وسنتناول فيما يأتي كل نوع على حدة، ونسوق له الشواهد الموضّحة، ونقف في ختام الموضوع على بعض الأغراض البلاغية التي قام البحث عليها.

أ- حذف المسند إليه:

يحذف المسند إليه لأغراض عدة[1]. كان عدد ما رصدناه في "جزء عم" منها خمسة، هي:

1. **الاحتراز عن السأم والعبث**: كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ (القارعة: 10-11)، يعلّق "عبدالفتاح لاشين" على هذا الحذف قائلاً: "ندرك هذا إذا تأملنا الفرق بين هذا الأسلوب الموجز وبين أن يقال: وما أدراك ماهيه. هي نار حامية. من الإسراع إلى ذكر النار، بعد أن أثار الشوق بالسؤال عنها"[2].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ

---

(1) لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص150، ومابعدها.

(2) السابق: ص151.

﴿ٱلْمُوقَدَةُ ۝﴾ (الهمزة: 4-6)، فأرى أنه أسرع إلى ذكر النار، وحذف الضمير المنفصل "هي"؛ احترازا عن السأم.

2. **كون المسند لا يصلح إلا له**: كقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس: 8)، ذلك أنّ الإلهام للنفس وهديها النجدين لا يكون إلاّ من الله سبحانه، فلا يصلح المسند "ألهم" هنا إلاّ للمسند إليه المحذوف، وهو "الله" سبحانه، حيث هو الفاعل. كذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ (التكوير: 8)، فالسائل هو المولى عز وجلّ، وما يدل عليه من لفظ محذوف، لأنّ المسند "سئلت" لا يصلح إلا له.

3. **ضيق الصدر**: ونجده متحققا في قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (المطففين: 13)، فكما يبدو لي حذف المسند إليه "المبتدأ" وهو الضمير "هي"، فلم يقل: "هي أساطير الأولين" على لسان الكافر، لأنه ضائق صدره بآيات الله سبحانه.

4. **احتقار من هو في حكم المسند إليه**: ونلحظه في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ (النازعات: 42)، فحذف الفاعل للفعل "يسألونك" وهو الكفار؛ إذ هو مفهوم ضمنا، واكتفى بأن أشار إليهم بالضمير المتصل "واو الجماعة"؛ وذلك تحقيراً لهم فيما أرى. والكلام نفسه في: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ (النازعات: 10).

ب- حذف المسند:

وقد سبق تعريف المسند وتبيان صوره في الكلام. و هو كذلك يُحذف لأغراض عدة، لم نجد منها في "جزء عمّ" إلا غرض "التحذير"، وهو في قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا﴾ (الشمس: 13)، فهنالك فعل محذوف تقديره "احذروا"، حذف لأنّ "الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأنّ الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهمّ، وهذه هي فائدة باب التحذير"[1].

(1) الزركشي: **البرهان**، ج3، ص105.

ج- حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه:

وهو كثير في القرآن عموما وفي "جزء عمّ" خصوصاً. قال ابن جنّي "أنّ منه زهاء ألف موضع. وهو في غالبه يدخل في باب المجاز"[1]. ومن ذلك قوله تعالى في المواضع القرآنية الآتية: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر:22)، أي جاء أمر ربك[2]. ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ (النازعات: 40)، أي اتباع الهوى. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ (النازعات: 42)، أي وقت الساعة[3]. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبأ: 11)، أي ذا معاش[4]. وقوله: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (البيّنة: 2)، أي يتلو مضمونها[5]. وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (التكاثر: 8)، أي عن شكر النعيم[6]. ومثله كثير في "جزء عمّ".

د- حذف الموصوف:

ويشترط فيه أمران: أن تكون الصفة خاصة بالموصوف. وأن يعتمد الموصوف على مجرّد الصفة من حيث هي؛ لتعلق غرض السياق[7]. أي أنّ السياق يكتفي بذكر الصفة دون الموصوف؛ لأن الغرض متعلق به، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: 95)، حيث اكتفى هنا بذكر الصفة دون الموصوف، فلم يقل: والله عليم بالعباد الظالمين، أو الناس الظالمين. لأن الغرض وهو العلم متعلق بالظلم فيهم، لا بمطلقهم. ونجد ذلك في "جزء عمّ" في قوله تعالى في كل مما يأتي: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾(النبأ: 24)، أي ماءً بردًا. ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ (النبأ:

---

(1) الزركشي: **البرهان**، ج3، ص146.

(2) السابق: ص148.

(3) عزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمي الشافعي: **مجاز القرآن**، تح: مصطفى محمد الذهبي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1999م، ص19.

(4) السابق: ص470.

(5) السابق: ص476.

(6) السابق: ص477.

(7) الزركشي: **البرهان**، ج3،ص154.

35)، أي لا يسمعون قولا لغوا ولا قولا كذابا. ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبأ:38)، أي قال قولا صوابا. ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾(النازعات:1)، أي والملائكة ٱلنازعاتْ. ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾(النازعات: 25)، أي نكال الكلمة الآخرة؛ وهي قوله: أنا ربكم الأعلى. ونكال الكلمة الأولى؛ وهي قوله: ماعلمت لكم من إله غيري[1]. فحذف الموصوف وهو ٱلكلمةْ وأبقى صفتيها وهما ٱلآخرة، الأولىْ. وْجزء عمّْ زاخر بهذا النوع من الحذف، نكتفي منه بما مرّ.

وأرى أنّ حذف الموصوف في كل ما مضى كان غرضه البلاغي تركيز الاهتمام على الصفة، وهذا يشبه عملية التقريب بالجهر، حيث يُترك الشيء كلّه ويقرَّب جزء منه و يُكبّر للتركيز عليه دون الأجزاء الأخرى، لأنّ المطلب ينحصر فيه. وهو في الوقت نفسه يحقق الإيجاز. والبلاغة هي الإيجاز كما قيل.

هـ- حذف الصفة:

ويمثّل ذلك في ْجزء عمّْ قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾(الفجر: 23)، أي: وأنّى له الذكرى المفيدة. وعلّق صاحب تفسير ْكنز الدقائقْ في ذيل هذه الآية قائلاً: أي منفعة الذكرى لئلا يناقض ما قبله[2]. ومثله قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ (النبأ: 39)، اي مآبا حسنا. فحذف الصفة لأنه ربما اعتبر المآب هو المآب الحسن حسبُ، وكأنّ السيئ ليس مآبا.

وحذف المفعول به: وهو كثير جدا في ْجزء عمّْ، حيث أحصينا منه قرابة العشرين موضعا، منها قوله تعالى في كلٍ من المواضع الآتية: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ (البروج: 13)، أي يبدئ الخلق ويعيده. ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ (الأعلى: 10)، والمقصود: من يخشى الله سبحانه.

---

(1) الطبري: **التفسير**، مج7،ص536.

(2) محمد بن محمد رضا بن إسماعيل القمي المشهدي: **تفسير كنز الدقائق**، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، 1413هـ ج11،ص350.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ (الفجر: 23)، أي يتذكّر أعماله أو الإنذار له في الدنيا. ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: 24)، أي ياليتني قدمت عملا صالحا لحياتي. ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾(النازعات: 23)، والمقصود: فحشر السحرة من كل صوب، ونادى الناس للمشاهدة.

ويبدو لي أنّ حذف المفعول في أغلب الشواهد السابقة كان غرضه الإيجاز. كون المفعول به المحذوف مفهوماً ضمنا، وفي السياق ما يدل عليه. نحو قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾، حيث المفعول المحذوف هنا وهو "عملاً" مفهوم ضمنا، ويدل جوّ السياق عليه. فالكلام على لسان الإنسان الذي سيقدم إلى يوم الحساب خالي الوفاض من الصالحات التي تنجيه، فيتمنى أن لو استعد لمثل هذا اليوم، وأكثر من فعل تلك الخيرات. وهذا المعنى بدهي ينبئ به مجمل السياق. فسوّغ ذلك حذف المفعول به. وربما أفاد الإطلاق، أي قدمت أي عمل صالح، وهو ينطوي على حث على التقديم للآخرة والاستعداد لها، بغض النظر عن ماهية العمل المقدم صغيراً أم كبيراً.

وربما سوّغ عدم ذكر المفعول في مواضع أخرى ما سبق ذكره في موضع آخر من القرآن. نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾. فعرفنا أن الحشر كان للسحرة لأنه صرح بها في موضع سابق، هو قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧﴾(الشعراء: 36-37).

ز- حذف الجار والمجرور:

والجزء كذلك زاخر بهذا النوع من الحذف، فقد وقفنا على أكثر من ثلاثين موضعا له، منها قوله تعالى في كل من المواضع القرآنية الآتية: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ (الأعلى: 17)، أي ابقى من الدنيا. ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ (الليل: 8)، أي استغنى عن كسب الأجر. ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾(عبس: 27)، أي يغنيه عن شأن غيره. ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ (الغاشية: 23)، أي تولّى عن الحق. ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾(الطارق: 15-16)، أي يكيدون

للإسلام وللمسلمين. وقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ (الشرح: 7)، أي فانصب في حاجتك إلى ربك، أو فانصب في الدعاء والعبادة[1].

وحذف الجار والمجرور في معظمه كان الغرض منه الإيجاز، كما هو الحال في حذف المفعول، نحو قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾فالمعنى مفهوم ضمنا أنهم يكيدون للإسلام، فكان من الإيجاز والبلاغة حذف الجار والمجرور. وأحيانا يكون الغرض هو الإطلاق وعدم التقييد، نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾(التكاثر: 1)، أي ألهاكم التكاثر في الأموال والأولاد والخيل وكل شيء من متاع الدنيا. فكان الغرض من حذف الجار والمجرور هنا هو إطلاق كلمة 'التكاثر' وعدم تقييدها بنوع محدد، لتدلّ على عموم التكاثر. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ فهو إيجاز وعدم تقييد في آن معا، فالإيجاز أنّ المعنى مفهوم ضمنا أنه 'أبقى من الدنيا'، أمّا عدم التقييد فهو في إطلاق 'أبقى' حيث هي أبقى من الدنيا ومن كل حياة أخرى يتوهمونها.

ونختم بالقول إنّ 'الحذف' ظاهرة أسلوبية شائعة وبارزة جدا في 'جزء عمّ'، وهي إحدى مزاياه. و'الحذف' فيه ينطوي على أغراض بلاغية، وتوظيفات فنية، في غاية الجمال والدقة، أسهمت في رسم أسلوب التعبير فيه إسهاماً جليّا. ويجدر القول إن 'الحذف' في القرآن الكريم لا يفهم منه أن المحذوف كان واقعاً ثم حذف. ومثل هذا الفهم يقودنا إلى الهجوم على فكرة الحذف كونها تنتقص من التعبير القرآني بشكل من الأشكال. لكنّ مصطلح 'الحذف' مبني على افتراض وجود المحذوف، مع الإدراك أن وجوده المفترض هو خلاف البلاغة والرقي التعبيري، لذا فإن الكمال التعبيري في عدم وجوده، وهو ما يعبر عنه بـ'الحذف'، إشارة إلى تدخّل الحس البلاغي وترجمته حركياً.

التعريف والتنكير:

ليس لأحد طرفي ثنائية 'التعريف والتنكير' أفضلية على الآخر، فلكلٍ توظيفه الخاص، فإذا كان التعريف في أحد توظيفاته تحديدا للدلالة، وبيانا لدقة ما ترمز إليه بتشكيلاتها المختلفة، فإنّ التنكير يمكن أن يكون تعميقا يمنح البنية مقدرة على العطاء المتجدد المتواصل الذي يثري الدلالة

---

[1] الطبري: التفسير، مج7، ص657.

متجاوزاً المتعارف عليه، وقد يحدث العكس، ومردّ ذلك إلى مقدرة المبدع على الخلق والابتكار، كما أنّ تعدّد وسائل التعريف قرين بثراء الدلالة، كما يمكن أن تقدمّه هذه الوسائل التعبيرية من معانٍ وإيحاءات"[1].

وقد لفتت أهمية هذه الثنائية انتباه القدماء، وحظيت باهتمامهم؛ نظراً إلى حضورها في الأسلوب العربي، ووظيفتها البلاغية الفنية، فأولوها عناية في كتاباتهم، ومنهم "سيبويه" و"الجرجاني"[2].

أوّلا: التعريف

هو: "التمييز، هو الإفراد، هو التخصيص بعد التعميم، هو أن يكون شيء ما محددا بين المتكلم والسامع فيدور حوله الكلام، هذا يتحدث عنه وذلك يفكّر فيه، وهو نفسه يفرض نفسه على المتكلّم والمخاطب"[3]. وما عليه السلف هو وجوب تعريف المسند إليه. إذ بدون تعريفه وتعيينه لا يمكن أن يُعتدّ بما يحكم عليه. لأنّ هدف التعريف هو إفادة المخاطب وربطه بالمعنى، لذا فإنّ فكرة تعريف المسند إليه تتجاوز الأثر النحويّ إلى إبراز الأثر الدلالي بمستوياته الإبداعية[4].

وسنتناول "المعرفة" بأقسامها المتعددة، ونقف على بعض تطبيقاتها القرآنية في "جزء عمّ" سعياً إلى توضيح توظيفها الفنّي الإبداعي الذي أسهم في بلورة الأسلوب القرآني وتميّزه.

أ- الضمير:

للضمير فائدة كبيرة في الربط المحكم بين أجزاء الجمل، ويعين على الإيجاز، كما أنّ له ذلك الدور في تغيير المعاني النحوية. ويضيف التعبير القرآني إلى الضمير وظائف أخرى تنطوي على ثراء تعبيري فنيّ مهمّ[5]. ومن ذلك:

---

(1) سعد أبو الرضا: **في البنية والدلالة: رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية**، دار المعارف، الإسكندرية، 1987م، ص153.

(2) انظر: سيبوية: **الكتاب**، ج1، ص22؛ الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، ص136 وما بعدها.

(3) سعد أبو الرضا: **في البنية والدلالة**، ص153.

(4) السابق.

(5) نحلة: **دراسات قرآنية في جزء عم**، ص206.

1- **حذف المعاد:** إذ لا بدّ من الضمير المتصل في اللغة العربية من معاد "مرجع" يعود إليه. وتعليل ذلك نجده عند "ابن يعيش" حيث يقول: "وذلك لأنك لا تضمر الاسم إلاّ بعد تقدّم ذكره، ومعرفة المخاطب على من يعود ومن يعني، أو تفسير يقوم مقام الذكر، ولذلك استغنى عن الوصف"[1]. ونجد ميزة "حذف المعاد" للضمير القرآني في "جزء عمّ" في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ (النازعات: 10). قال "ابن عاشور" فيها: "والضمير في "يقولون" مراد به المشركون للعلم بالذين كنّى عنهم بالضمير في هذا المقام"[2].

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ (النبأ: 40). المعاد المحذوف هو الكفّار، وقد دلّ عليه المقام. وكذا في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (عبس: 18)، حيث الضمير المستتر في "خلقه" عائد إلى لفظ الجلالة، ولم يتقدّم بل دلّ عليه المقام. وفي قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (النبأ: 37). حذف المعاد لإرادة العموم، يقول "ابن عاشور": "الضمير في "لا يملكون" عائد إلى الأرض والسماوات وما بينهما، باعتبار ما تشتمل عليه هذه العوالم من الموجودات العقلاء من الملائكة والإنس، وما لا يعلمه إلاّ الله"[3].

ومن طريف ذلك أن يكون المعاد محذوفا من حيث هو مرجع، ولكنّه يُذكر بعد ذكر الضمير، أي تحدث عملية عكسية. فبدل أن يرجع الضمير إلى معاده، فإنّ معاده يرجع إليه. ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧﴾ (لطارق: 15-17)، إذ إن "واو الجماعة" في "يكيدون" هي للكافرين، ولم يتقدم ذكرهم، بل تأخر عن الضمير مقدار أربع كلمات في ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾. وربما لم يذكرهم في معرض الكيد تحقيرا لكيدهم. وذكرهم تالياً في معرض الإمهال، لأنه محصور بهم.

---

(1) ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش النحوي (ت643هـ): **شرح المفصّل**، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، ج3، ص56.

(2) ابن عاشور: "**التحرير والتنوير**"، مج15، ص69.

(3) السابق: ص50.

2- **الالتفات**: وهو الالتفات من استعمال ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب، وذلك لغرض بلاغيّ هو التجسيم والاهتمام. ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾(النبأ: 27-30)، فبدأ بالحديث عنهم بضمير الغائب "إنهم.."، ثمّ التفت وخاطبهم بضمير المخاطب "فذوقوا.."، قال "الزمخشري" عنها: "ومجيئها على طريقة الالتفات شاهد على أنّ الغضب قد تبالغ"[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾(عبس: 24-32)، فنجده هنا بدأ بصيغة الغائب المفرد ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ...﴾، وختم ملتفتا بصيغة المخاطب الجمع ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ...﴾وهذا من رائع الالتفات في القرآن. فالمقام الأول هو مقام الإنسان الغافل عن ربه ونعمه، البعيد عنه. فناسبته صيغة الغائب. لكن المقام الثاني هو مقام إقامة الحجة على ذلك الإنسان بما أغدق ربه عليه من نعم محسوسة يتمتع بها، ولا سبيل له لإنكارها، فناسبت ذلك صيغة الخطاب. ومن الالتفات أيضا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ (الفجر: 15-17)، فنراه بدأ بضمير الغائب المفرد: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾وختم بضمير المخاطب الجمع ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ وربّما كان الغرض وراء ذلك هو تنبيه أولئك الجاحدين إلى أن المتحدث عنه ليس غيرهم، بل هم أنفسهم.

---

(1) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي: **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**،رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ج1، ص519.

3- اختلاف الضمير لاختلاف الاعتبار "التضمين": وذلك في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾(عبس:11-12)، ففي الآية ضميران يعودان على "التذكرة"، الأول: في "إنها"، وهو مؤنث يوافق "التذكرة" المؤنثة. والثاني: في "ذكره"، لايناسبها لأنه مذكّر. وتخريج ذلك نجده في قول "الزمخشري" في تعليقه على هذه الآية: "ذكر الضمير لأنّ التذكرة في معنى الذكر"[1]. والذكر هو من أسماء القرآن، فلذا أشار إليه بالمذكّر.

4- ضمير الشأن: استعمله القرآن في موضع واحد من "جزء عم" وكان استعمالاً فنيّا ذا قيمة تعبيرية خاصة، وضمير الشأن يُؤتى به بغية زيادة الاهتمام بأمر ما. "في المواطن التي يكون فيها أمر مهمّ تراد العناية به، فيكون هذا الضمير أداة للتنبيه، يدفع المرء إلى الإصغاء، فإذا وردت الجملة بعده استقرت في النفس واطمأنّ الفؤاد"[2]. وذلك الموضع الوحيد الذي ورد فيه ضمير الشأن في "جزء عمّ" هو قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾(الإخلاص: 1). ذلك أنّه هو الموضع الأهم والأميز في الجزء، لأنه يتضمن عقيدة التوحيد العظيمة، وكلّ ما سواها يدور في فلكها.

5- إفراد الضمير إذا احتمل المعاد الإفراد وغيره: وقع ذلك حيثما وردت "مَنْ" الموصولة، ومع أنّ "مَنْ" هي اسم موصول عام يستعمل للمفرد والمثنى والجمع، تذكيراً وتأنيثاً، إلاّ أن القرآن في "جزء عمّ" استخدمه مع المفرد المذكّر في كلّ مواضعه التي بلغت ثمانية عشر موضعا، ومنها قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾(النبأ:38). وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾(النبأ: 39). وقوله جلّ وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ (النازعات:37). وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ (النازعات: 40).

وربما كان الغرض البلاغي لهذا الاستخدام لفت الانتباه إلى المسؤولية الفردية لدى كلّ إنسان أمام الله سبحانه وتعالى، مصداقا لقوله: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ (مريم: 95). نحو

---

(1) الزمخشري: الكشاف، ج4، ص218.

(2) أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص134.

مانجده في الآيات: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ (النازعات: 37-39)، فيها إشارة إلى أنّ فعل الطغيان هو فعل فردي، لأن الطغيان هو تجاوز الحدّ في الفساد أو الظلم أو الكفر، وليس كل ظالم هو طاغياً. وربما اختلف شكل الطغيان ومستواه من طاغٍ إلى آخر. لذا كان استخدام صيغة المفرد هو الأنسب والأدق. وذكر "الزركشي" قريبا من ذلك في "البرهان" وسمّاه "خطاب الجمع بلفظ الواحد"[1].

6- **الإظهار في موضع الإضمار**: وسمّاه "الزركشي": الخروج على خلاف الأصل. وذكر له أسبابا عدة[2]. وهو يكون عندما يكرّر الاسم مرة أو مرتين، ولا يلجأ إلى إضماره وإحلال الضمير مكانه، بالرغم من المسوّغ لذلك. والغرض البلاغي وراء هذا الأسلوب القرآني هو لفت الانتباه لأهمية الأمر. كقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝﴾(القارعة: 1-3). فلم يقل: القارعة. ماهي. وما أدراك ماهي. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝﴾ (الناس: 1-3)، فلم يقل: قل أعوذ برب الناس، ملكهم، إلههم. ولو استعملها على نحو ما ذكرنا لاستدعى ذلك أن يأتي بواو العطف ليربط بين أجزاء السياق، حيث بدون الربط يضطرب التركيب، لكن مع تكرار الاسم مرارا وإظهاره لم يحتج إلى واو العطف، بل لو وضعها لكانت ثقيلة وغير منسجمة. ولعّل الغرض البلاغي المعنوي من حذفها هو التأكيد على أن الربوبية والمالكية والألوهية، كلّها لواحد، هو الله سبحانه. ولم يستعمل العطف كي لا يتوهم أن الرب شيء والمالك شيء آخر والإله شيء ثالث. وأمر آخر هو الإشارة إلى أن هذه الصفات كلها تجتمع من الله على الناس في آن معا، فهو في الوقت الذي هو ربّهم، هو مالكهم، وهو كذلك إلههم.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝﴾ (الكوثر: 1-3)، فلم يقل: فصلِّ لنا، مناسبةً لضمير المتكلم في مستهل السورة، وذلك "لينبّه على أنّه أهل لأن يُصلّى له، لأنه ربّه الذي خلقه وأبدعه وربّاه بنعمته"[3].

---

(1) الزركشي: **البرهان**، ج2، ص233.

(2) السابق: ص484.

(3) الزركشي: **البرهان**، ج2، ص494.

7- مراوحة استخدام الضمير بين المفرد والجمع بحسب المقام: وهو يدخل في باب الالتفات. يقول محمود السعران: "في لغة القرآن الكريم نميّز بين المواضع التي يتكلم فيها الله تعالى باسمه من تلك التي يتحدّث فيها عن نفسه بضمير الغيبة، كما نفرد خطابه للرسول من خطابه للمؤمنين، ومن خطابه الكفّار، ومن حديثه عن أولئك جميعا، ونفصل خطاب المؤمنين لله من خطاب الكفّار له، ومن خطاب الرسول إيّاه، وسنلاحظ في تكلّم الله جلّ وعلا باسمه أنه يستعمل أحياناً ضمير المتكلّم المفرد، وأحيانا ضمير الجماعة المتكلمين، ومن الواجب ربط كل من ذلك بظروفه، وتفسير الاختلاف في استعمال الضمير، والاستعانة بما كتبه المفسّرون وعلماء البلاغة في هذا الشأن"[1].

ويبدأ السعران بالاستشهاد على ماذكر، فيورد مثلا على تكلّم الله جلّ وعزّ باسمه بضمير الجمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝﴾ (الغاشية: 25-26). وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾(البلد: 4). ويذكر السعران مثلا لتكلّم الله عز وجلّ في صيغة المفرد قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝﴾(الفجر: 27-30). وأنه في سورة الأعلى يتكلم الله تعالى بضمير جماعة المتكلمين ثمّ يشير إلى ذاته بضمير المفرد الغائب، لا بضمير الغائبين. ثمّ يعود إلى الكلام بضمير جماعة المتكلمين: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾ (الأعلى: 6-8)[2].

ويلاحظ أنّ الله تعالى يشير إلى ذاته في القرآن الكريم مصطنعاً ضمير المفرد الغائب، مسنداً الصيغ إلى المفرد الغائب، وأنه لا توجد آيّة آية يشير فيها الله إلى ذاته بضمير جماعة الغائبين، أو بإسناد الصيغة إلى جماعة الغائبين. ويمثّل على ذلك بما ورد في الآية السابقة وفي الآيات الآتية من سورة عبس: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝

---

(1) محمود السعران: اللغة والمجتمع: رأي ومنهج، بنغازي 1968، ص88 وما بعدها.

(2) السابق: ص88 وما بعدها.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾ (عبس: 17-23). ويلاحظ أنّه بعد هذه الآيات مباشرة أخذ الله في التكلم باسمه بضمير جماعة المتكلمين: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧﴾ (عبس: 24-27).

ويخلص السعران من هذا إلى أنّ الله عز وجل يتكلّم باسمه مصطنعاً ضمير جماعة المتكلمين مرّة، ومصطنعا ضمير المتكلم المفرد مرة، ولكن التعظيم وإعلاء الشأن لم يمثلا مرة في القرآن، ولا في غير القرآن، باستعمال ضمير المتكلمين الاثنين..."[1]. ويمثل السعران بعد ذلك لخطاب المؤمنين لله تعالى، ولخطاب الكفار لله، وخطاب الله سبحانه لهم، وحديثه سبحانه عن الكفار، وحديثهم عنه[2].

ويضيف محمود السعران: "والقرآن عندما يخاطب الرسول ﷺ يخاطبه بضمير المفرد ومن ذلك: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ (يس:1-3). و﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ (الضحى: 1-6). وأمّا خطاب الله لرسوله وطلبه إليه أن يقول كلاما: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾[3].

ومجمل ماقاله السعران أن القرآن في حديث الله جلّ وعلا عن نفسه يستخدم ضمير الجمع وضمير المفرد، وأحيانا يجمعهما في آية واحدة. ويستخدم ضمير المفرد الغائب ولا يستخدم ضمير الجمع الغائب مطلقا. وفي خطاب المؤمنين لله يعمد القرآن إلى ضمير المخاطب المفرد. ويعمد إلى الضمائر المتعددة في خطاب الله لهم. أما خطاب الكفار لله فيلجأ القرآن غالبا إلى ضمير المفرد المخاطب، وأحيانا صيغة الجمع. وخطاب الله لهم يستخدم فيه الضمائر المعتادة. ويخاطب الله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في كتابه، أو يتحدث عنه بصيغة المفرد المخاطب أو الغائب.

(1) محمود السعران: اللغة والمجتمع: رأي ومنهج، ص88 وما بعدها.

(2) السابق: ص88 وما بعدها.

(3) السابق: ص88 وما بعدها.

لكنّ "محمود السعران" لم يعلّل تلك المراوحة في استخدام الضمائر حسب المقام، مع أنه قال في ثنايا كلامه: "ومن الواجب ربط كل ذلك بظروفه، وتفسير الاختلاف في استعمال الضمير والاستعانة بما كتبه المفسّرون وعلماء البلاغة في هذا الشأن"[1].

ولعلّنا نستطيع أن ندلي بدلونا في هذه المسألة، حيث إنه، وبعد التأمل في استعمال الضمائر في "جزء عم" خصوصا، وكيف تختلف باختلاف المقام، وجدنا أنه فيما يتعلّق بالخطاب الإلهي للناس مؤمنين كانوا أم كافرين، فالمعوّل على غرض الخطاب، فإن كان الغرض يدخل في إطار تأكيد الهيمنة الإلهية والمقدرة، فالضمير يؤتى به عادة في صيغة الجمع، مثل: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾، فهنا المقام مقام هيمنة وقدرة، فكان أن استعمل ضمير الجمع. والأمر نفسه في: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾. أمّا إذا لم يكن الغرض في إطار إظهار الهيمنة والقدرة، فغالبا يستعمل ضمير المفرد، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾. فهذا المقام ليس مقام الهيمنة والقدرة، بل مقام الإكرام واللين والفضل، فناسب ذلك ضمير المفرد.

وفي قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ راوح بين ضمير الجمع وضمير المفرد، ربما لأنّ الإقراء هو أمر من الله، ولكن نفذته الملائكة متمثلين بجبريل عليه السلام، فناسب ضمير الجمع، لكن علم الغيب سواء كان جهرا أم سرّا، فذلك يختص به الله وحده، لذلك استخدم المفرد.

ونستنتج من ذلك أنه إذا كان الفعل يختص به الله وحده، وفي السياق ما قد يتوهم مزاحمة الله سبحانه في فعله، فإن القرآن يعدل إلى استخدام ضمير المفرد، كما لاحظنا في الآية السابقة من سورة "الأعلى". ونستنتج كذلك أنه إذا كان الفعل مما يوكل الله به إلى الملائكة، أو مما يقوم به الإنسان نفسه بهداية من الله سبحانه، فإن القرآن يلجأ في التعبير عنه إلى ضمير الجمع، كما لاحظنا في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، إذ إن جبريل هو الذي يقرئ النبي بأمر من الله تعالى. وكقوله

---

(1) محمود السعران: اللغة والمجتمع: رأي ومنهج، ص88 وما بعدها.

تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝﴾. ومعلوم أن ذلك يحدث في إطار سنن إلهية، وفيه الكثير من التسخيرات والمقدمات التي يقوم الخلق من ملائكة أو بشر بعملها، فكان من المناسب استخدام ضمير الجمع هنا.

ومخاطبة الرسول صلى الله عليه وآله بصيغة المفرد، بالرغم مما هو معروف ومقطوع به من مكانة الرسول عند ربه، ربما جاءت لغرض تدقيقي تحرزي، إذ إنّ الرسول في معظم خطاب الله تعالى له في القرآن إنما يتلقى الرسالة والتشريع والهدي من ربه، وهو المفوّض الوحيد بتبليغها، وهو الأمين عليها، وهو المختص وحده من بين الناس بهذا المقام، حيث اصطفاه الله تعالى له، لذلك جاء خطابه له بصيغة المفرد، حتى لا يتوهم متوهّم أن هنالك نبيّاً آخر معاصر للرسول يشاركه في رسالته وفي مقامه، وكيف لنا أن نتصوّر أن يستقيم استهلال سورة "يس" مثلا لو كان على هذا النحو: يس. إنكم لمن المرسلين. إذاً لوقعنا في لبس شديد، وعلى هذا فقِس.

ومن هنا نستنتج كيف أن القرآن الكريم في عامة أجزائه، وفي جزئه الأخير خصوصا، كان مبدعا في استعمال الضمير بحسب المقام في إطار سياقات جميلة.

وتجدر الإشارة إلى أن الاستعمال اللغوي للضمير وتوظيفه يعكس مقصداً أسلوبيا مهماً يستحق الدراسة، فمثلا نجد أن "اتصال ضمير المخاطب بالاسم يحمل درجات عالية من التكثيف الفكري، وشحنات قوية من الإيقاعات العاطفية"[1]. ولنا أن نلحظ هذا في قوله تعالى في سورة الضحى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝﴾(الضحى: 1-8). حيث يعكس اتصال ضمير الخطاب بالاسم في الآيات السابقة مدى الاتصال بين الرب المعطي المكرم ونبيّه المعطَى، ويتضح فعلا تدفق كبير للشحنات الإيقاعية.

---

(1) أبو العدوس: **الأسلوبية: الرؤية والتطبيق**، ص235.

ب- اسم الإشارة:

يُلجأ إليه في 'جزء عم' للإشارة إلى المُحسّات والمعنويات[1]. فالإشارة إلى المحسّات نجدها في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝﴾ (البلد: 1-2). وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ (المطففين: 32). أما الإشارة إلى المعنويات فيمثلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (البروج: 11). 'ولم ترد الإشارة للقريب في 'جزء عم' بدون هاء التنبيه، ولم ترد الإشارة للبعيد بدون لام البعد[2].

ولم يُستعمل اسم الإشارة في 'جزء عم' للإشارة إلى المحسات والمعنويات فقط، بل أسهم في بيان معانٍ بلاغية تستشف من المقام، كما نجد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (النازعات: 12)، فـ'تلك' هنا اسم إشارة لشيء معنوي هو الكرّة. ولكنه قدّم معنى آخر يناسب السياق، وهو استبعاد حصول البعث من قبل الكفّار المنكرين له، حيث إن 'تلك' اسم إشارة اقترن بلام البعد. ومجيء اسم الإشارة 'أولئك' في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ (المطففين: 4)، أفاد الإشارة وأفاد التهكم في الوقت نفسه، إذ إن 'أولئك' اسم إشارة للبعيد، كما هو معلوم، وانطوى استعماله على معنى الإعراض عنهم من جهة، وعلى معنى بعدهم عن الهداية من جهة أخرى. ولم يقل 'يظنون'، بل عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة تهكّماً بهم، وتقليلاً من شأنهم[3].

ومن المعاني التي يعطيها اسم الإشارة: 'التقريع'، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝﴾ (المطففين: 16-17). 'فما أنكروه من عذاب هو ماثل أمامهم، والإشارة إليه مما يزيدهم غمّا على غمّ، وشقاء على شقاء، فإنّ أشدّ شيء على الإنسان إذا أصابه مكروه أن يذكر – وهو يتألم له– بأنّ وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها، وأسباب التقصي عنه كانت في مكنته فأغفلها'[4].

---

(1) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص218.

(2) السابق: ص218.

(3) السابق: ص219.

(4) محمد عبده: تفسير جزء عم، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1985م،ص35.

وقد يُستخدم اسم الإشارة نفسه في سياق واحد بمعنيين متقابلين، كما هو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝﴾ (البيّنة: 6-7). وعلّق محمود نحلة على ذلك بقوله: أشير إلى الكافرين باسم الإشارة أولئك نفورا منهم، وإيحاء ببعدهم من الهداية، وأشير إلى المؤمنين باسم الإشارة ذاته أولئك للدلالة على رفع منزلتهم وعلوهم في معراج الهدى والخير، وذلك بعد حسيّ مكروه، وهذا بعد معنوي مرغوب"[1].

ج- الاسم الموصول:

يُستخدم في جزء عمّ كثيرا عندما تكون صلته هي مناط الحكم وموضوع الاهتمام[2]. كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾ (الماعون: 4-7)، إذ إنّ سبب التهديد لهم هو سهوهم عن صلاتهم ورياؤهم ومنعهم للماعون. وهذه كلّها قُدمت صلاتٍ للاسم الموصول المكرّر الذي، وكانت هي مناط الحكم. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾ (المطففين: 1-3). وكذلك قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝﴾ (النبأ: 1-3)، حيث اختلافهم في النبأ العظيم هو موضع الاهتمام، وهو بالتالي صلة الاسم الموصول الذي. ومثله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝﴾ (الهمزة: 1-3). وكذلك قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝﴾ (قريش: 3-4).

---

(1) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص220.

(2) السابق: ص220.

وأحياناً يتكرّر الاسم الموصول، فتتعدّد الصلات بناء على ذلك، حين يراد الاهتمام بكلّ صلة واستقلالها بأمر يستحق البيان. وذلك في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝﴾(الأعلى: 1-5)، فقد كرّر الاسم الموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾. مع أنّ صاحب الصلة واحد. فلم يقل الذي خلق فسوّى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى فجعله غثاء أحوى. للاهتمام بمدلول كل صلة من الصلات الثلاث، واستقلال كل واحدة منها في الدلالة على استحقاق التسبيح، وعلى نوع الإيجاد فمقام البيان اقتضى الإطناب[1].

ويُؤتى بالاسم الموصول في جزء عمّ لإرادة الجنس أحياناً كما في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ (الماعون: 1)، فقد علّق ابن عاشور على هذه الآية بقوله: والأظهر أنه مراد به الجنس، أي جنس من يكون حاله هذا الوصف وهو التكذيب بالدين[2]. أي ليس المقصود شخصاً معيناً.

ومن وظائف الاسم الموصول في الجزء كذلك: إرادة التشويق لمعرفة الخبر، وذلك بإطالة الصلة[3]. نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ (البروج: 10). وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (البروج: 11).

وإخفاء اسم ما تحقيرا لصاحبه أو تعريضا به، هو من الوظائف التي يعمد إلى الاسم الموصول فيها في جزء عمّ. ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝﴾ (العلق: 9-10). قال القرطبي: أرأيت الذي ينهى: وهو أبو جهل عبداً وهو محمد ﷺ، فإنّ أبا جهل قال: إن رأيتُ محمّداً يصلّي لأطأنّ عنقه. قال أبو هريرة: فأنزل الله هذه الآيات تعجّباً منه. وقد

---

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج15، ص170.

(2) السابق: ص240.

(3) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص221.

أعرض القرآن عن ذكره باسمه، وآثر التعبير عنه بالموصول تعريضاً، وتحقيرا من شأنه"[1].

ومن اللافت أنّ القرآن الكريم في 'جزء عم' يعمد أحياناً إلى إحلال الاسم الموصول 'ما'، وهو لغير العاقل، محلّ 'مَنْ' الذي هو للعاقل، كما في قوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ (البلد: 3). وذلك ربما "مراعاة لحال الوليد الذي لم ينضج عقله، ولم تتفتّح ملكاته، فشأنه في هذه السنّ الصغيرة شأن من لا يعقل؛ لانعدام قدرته على التمييز أو التفكير"[2].

د- المعرّف بـ 'أل':

'أل' التعريف أنواع ثلاثة: عهدية وجنسية واستغراقية. والعهد في النوع الأول: عهد ذكري أو ذهني 'كنائي' أو حضوري. والجنس في الثاني: إمّا جنس شامل لكلّ الأفراد على الحقيقة، بحيث يمكن أن يحلّ محلّه لفظ 'كلّ'. وإمّا جنس شامل على سبيل المبالغة والادعاء في صفة ظاهرة فيه، وإمّا جنس به بيان الحقيقة أو الماهيّة. والاستغراق، وهو إما حقيقي، يشمل كل الأفراد، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝﴾[3] فـ(ال) في الإنسان للاستغراق، تشمل جميع الأفراد، بدليل الاستثناء. أو استغراق عرفي، وهو ما يدل على جميع الأفراد، ولكن من حيث العُرف. كأن يقول لك أستاذك: اجمعْ كل الطلاب. والمقصود: كل طلاب فصلك. لا الطلاب كلهم في كل مكان وزمان[4].

والأنواع الثلاثة مستخدمة في 'جزء عمّ'، استخداماً فنياً بارعاً، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ (النازعات: 42)، فـ 'أل' في كلمة 'الساعة' للعهد الذكْري، "فهي لم تُذكر في هذه الجملة ولكنّها بمنزلة المذكور، بدليل قوله عزّ وجلّ: 'يسألونك'. فسؤالهم عنها يقتضي ذكرها. واستغنى بما يحمله السؤال من معنى الذكر عن الذكر ذاته. وليس وراء ذلك براعة تعبير ولا روعة بيان"[5].

---

(1) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مج20، ص124.

(2) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص222.

(3) عباس حسن: النحو الوافي،دار المعارف، القاهرة،ط8،1986م، ج1، ص303.

(4) فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، ص329.

(5) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص223.

ومن العهد الذهني قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ (البيّنة: 1)، فـ'ال' في كلمة 'البيّنة' للعهد الذهني. فما كان هؤلاء الكفّار ينتظرون بيّنة بعينها، بل كانوا يترقّبون بينة تُعرف بأوصافها من مجيئها[1].

وفي المقابل هناك 'ال' الجنسية التي تشمل أفراد الجنس جميعاً ويمكن استبدال 'كل' بها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾(العصر: 1). والتقدير: وكل عصر. وقوله: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾(الشرح: 6). والتقدير: إن مع كل عسر يسرا. وهناك 'ال' الجنسية التي تفيد 'المبالغة وادعاء الشمول' بمصطلح النحويين. أو تفيد 'القصر' بمصطلح البلاغيين. كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾(النبأ: 39). وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾(البروج: 11). فـ'ال' في كلمتي 'اليوم' و'الفوز'' تفيد هذه المبالغة والدلالة على الكمال، أي ذلك هو اليوم الذي لا يوم مثله، وذلك هو الفوز العظيم الذي لا نظير له[2].

وفيما يتعلق بـ(ال) الاستغراقية، فنجد النوع الحقيقي في آية سورة العصر المذكورة. ونجده كذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ (عبس: 24)

فالإنسان هنا يستغرق كل الأفراد، بدليل أنهم كلهم يأكلون الطعام. أمّا النوع العُرفي من الاستغراق فنلحظه في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ (المطففين: 23)، فكلمة 'الأرائك' تستغرق جميع النوع، لكنّها عُرفًا تشير إلى أرائك الجنة فقط. وربما كان الغرض هو تعظيم شأن تلك الأرائك، بالنظر إلى أرائك الدنيا الزائلة.

هـ- المضاف إلى معرفة:

يضاف الاسم النكرة إلى اسم معرفة في 'جزء عمّ' لأغراض تتجاوز مجرّد التعريف. منها: التعظيم، وذلك بإضافة الشيء إلى لفظ الجلالة، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ

---

(1) ابن عاشور: 'التحرير والتنوير'، مج15،ص302

(2) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص225.

وَسُقْيَـٰهَا﴾(الشمس: 13)، فأضاف 'رسول' و'ناقة' إلى لفظ الجلالة بغرض التعظيم.

وأحيانا تكون الإضافة للمعرفة بغرض التهويل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ (البروج: 10)، حيث أضاف 'عذاب' للمعرفتين 'جهنّم، حريق' لغرض التهويل. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾(البيّنة: 6). فنجد التهويل أيضا يقف وراء إضافة 'نار' إلى المعرفة 'جهنّم' في هذه الآية.

وتضاف النكرة إلى المعرفة أحيانا لغرض بيان النوع وزيادة التأكيد. كقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝﴾ (التكاثر: 5-7)، إذ إنّ 'علم اليقين' نوع من اليقين. و'عين اليقين' نوع آخر منه. بالرغم من أنّ كليهما مرتبط باليقين. ولم يتوضّح ذلك إلا بالإضافة. أمّا ما علّق به 'محمود نحلة' على هذه الآية بقوله: 'وإضافة العين إلى اليقين للمبالغة في التأكيد، فالأصل اليقين عينه، ثمّ قدّم لفظ التوكيد لزيادة المبالغة'[1]. فأرى أن هذا التحليل ربما يكون غير صحيح، ذلك أنّ 'عين اليقين' لا تعطي معنى 'اليقين عينه' كما فهم نحلة، بل إنها تشير إلى نوع من أنواع اليقين متقدّم هو 'عين اليقين'، أي اليقين الذي يتحقق برؤية العين، وقبله 'علم اليقين'، وهو اليقين الذي يتحقق بالعلم دون الرؤية، كما هو الحال في إيماننا بالجنة والنار يقيناً من غير أن نراهما.

ومن الإضافة إلى المعرفة بغرض المبالغة ما نجده في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين: 5). وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾(التين: 8)، حيث إنّ إضافة 'أسفل' إلى 'سافلين' وإضافة 'أحكم' إلى 'حاكمين' كان لغرض المبالغة. والتقدير: أسفل كل من سفل. وفي الآية الثانية: أحكم كل من حكَم[2].

ومن أغراض الإضافة إلى المعرفة: الإيناس، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (النازعات: 19)، فأضاف 'ربّ' إلى كاف الخطاب 'إلطافاً' في الدعوة إلى التوحيد، واستنزالا

---

(1) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص226.

(2) ابن عاشور، 'التحرير والتنوير'، مج15، ص428.

لطائر نفور فرعون، لأنه لو قال: وأهديك إلى الله لنفر، لأنه كان يعبد آلهة باطلة، فإذا قال له إلى ربك، وقد كان فرعون يعلم أن له ربّاً، طمع في أن يهديه موسى من معرفة آلهته، فأصغى إليه حتّى إذا سمع قوله وبرهانه داخل الإيمان نفسه"[1].

أحيانا تأتي الإضافة إلى المعرفة في "جزء عمّ" لأدنى ملابسة كما أوردها "ابن عاشور" في تفسيره، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝﴾ (النازعات: 8-9)، فأضاف الأبصار إلى ضمير القلوب لأدنى ملابسة. والمراد أصحاب القلوب[2].

ثانيا: التنكير.

وهو الطرف الثاني في ثنائية "التعريف والتنكير"، وقد وُظّف توظيفاً فنيّاً بلاغيا أثرى الدلالة في "جزء عمّ"، وخصوصاً تنكير المسند إليه، أو تنكير ألفاظ في الجملة غير المسند. أمّا تنكير المسند فلم يشكّل مهيمناً أسلوبياً، لأنّ التنكير أصل فيه. والبلاغة إنّما تتجلّى فيما عُدل فيه عن الأصل.

والتنكير شائع في "جزء عمّ"، لأنّه يناسب "المسائل العامّة التي عرض لها القرآن في هذا الجزء، كذكر دلائل قدرة الله، ونعمه على خلقه، ووصف يوم القيامة، وما يصاحبه من أحداث جسام، وما يحدث فيه من ثواب وعقاب إلى غير ذلك من أمور يناسبها التعميم أكثر مما يناسبها التخصيص"[3].

ومن أمثلة التنكير في "جزء عمّ" قوله تعالى في كل من المواضع الآتية: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾(النبأ: 12). و﴿وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا﴾(النبأ: 16). و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝﴾ (عبس: 38-41).

وكثير غيرها في الجزء القرآني الأخير. أمّا أهمّ الأغراض البلاغية للتنكير في هذا الجزء فهي:

---

(1) ابن عاشور: "التحرير والتنوير"، مج15، ص55.

(2) السابق: ص50.

(3) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص200.

أ- التحقير:

كما في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾ (عبس: 17-19)، فتنكير "نطفة" جاء لغرض التحقير لذلك الإنسان الطاغي الكفور، فالمقام مقام توبيخ وإهانة، وتعجّب من تكبّر هذا الإنسان المهين الأصل، بدليل قوله تعالى في مستهل الاستشهاد: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ (العلق: 15-16)، حيث أنّ تنكير "ناصية" الثانية جاء لتحقيرها، المقصود صاحب الناصية وهو أبو جهل[1]. بينما لم ينكّر "الناصية" الأولى بل عرّفها؛ لأنّ المقصود كان بيان الجزء الذي سيجري عليه السفع أي السحب، وليس ناصية أبي جهل تحديدا، ثمّ لما خصّصها به نكّرها تحقيرا له.

ب- الاستغراق "التعميم":

ما عليه النحاة هو: أنّ الفكرة تعمّ إذا جاءت في سياق نفي أو استفهام[2]. أو إذا جاءت بلفظ يدلّ على العموم، مثل "كلّ" ونحوه. والفكرة عادة لا تعمّ في غير ذلك. بيد أنّ القرآن الكريم جعل كلمة "نفس" في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾(الانفطار: 5)، تدلّ على العموم بالرغم من أنها ليست من ألفاظ العموم، وليست في سياق نفي أو استفهام. وكأنه قال: علمت كلّ نفس ما أحضرت. ومثله قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾(الفلق: 5). فالمعنى: ومن شرّ كل حاسد.

ج- التهويل:

وذلك في قوله تعالى في المواضع الآتية: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾(المطففين: 1). و ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ (المطففين: 10). و﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهمزة: 1). و﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤

---

(1) الطبري: التفسير، مج7، ص570.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل، ج1، ص86.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون: 4-5). ويذهب محمود نحلة إلى أنّ كلمة "ويل" لم تستعمل في كل تلك الشواهد بمعناها المعجميّ كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنّما استعملت بوصفها لفظة منكّرة تفيد المبالغة والتهويل. وهذا بحسب رأيه ما سوّغ الابتداء بالنكرة في كلّ تلك المواضع، محتجاً بكلام لـ"ابن يعيش" نقله[1].

كما أنّ تنكير "ناراً" جاء بغرض التهويل في كل من المواضع الآتية: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾(الليل: 14). و﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾(المسد: 3). و﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ (البلد: 20). و﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ (الغاشية: 4). حيث قال ابن عاشور: "وتنكير "ناراً" للتهويل"[2].

ونرى أنّ هنالك ملحظاً بلاغيا في تنكير "ناراً" في الشواهد السابقة إلى جانب ما فيه من غرض التهويل، يستشف بالتأمل، وهو أن التنكير جاء لا ستبعاد التخصيص، فإنه لو قال: فأنذرتكم النار التي تلظّى، لتبادر إلى الذهن أنّ هنالك أنواعا من النار، منها التي تلظّى، ومنها غير ذلك. فكان التنكير استبعادا للتحديد والتخصيص. والله أعلم.

د- التعظيم:

وهو كثير في الجزء، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(التين: 6). وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ (البيّنة: 8). و﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾(القدر: 5) وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (البيّنة: 2). وغيرها الكثير.

والتنكير في كلّ الشواهد السابقة أفاد التعظيم، أو بالأحرى أفاد إظهار التعظيم لأشياء عظيمة. أي أنّ عظمتها نابعة من قيمتها وأثرها في الكون. وأحيانا يراد إظهار عظمة شيء لا من حيث قيمته، بل من حيث كثرته وتمدده. مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾

(1) نحلة: دراسات قرآنية في جزء عم، ص204.

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج15، ص389.

(العصر: 1-2). وقوله سبحانه: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا﴾ (البلد: 6). فتنكير 'خسر، مالاً' هو لتبيان أن الخسر عظيم، أي شديد، وأنّ المال الذي أنفقه كثير جدا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝﴾ (قريش: 3-4). قال 'الزمخشري': 'التنكير في 'خوف وجوع' لشدتهما، يعني أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وآمنهم من خوف عظيم، وهو خوف أصحاب الفيل، أو التخطف في بلدهم ومسايرهم'[1].

هـ- التكرار والتوالي:

كقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝﴾ (الفجر: 21-22). قال 'الزمخشري': 'دكًا بعد دك..أي كرّر عليها الدك حتى عادت هباءً منبثا'[2]. وقال: 'صفاً صفاً: ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صفٍّ محدقين بالجنّ والإنس'[3].

الفصل والوصل

كان ممّا أورد 'الجاحظ' في 'البيان والتبيين': 'قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل من الوصل'[4]. أي من عرفهما فكأنه أحاط بأركان البلاغة. وقال 'عبد القاهر الجرجاني' عن 'الوصل والفصل': 'اعلم أنّه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول أنه خفيّ غامض ودقيق وصعب، إلاّ وعلم هذا الباب أغمض وأخفى، وأدقّ وأصعب'[5]. وقال عنه أيضا: أنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلاّ كمل لسائر معاني البلاغة'[6]. و'الفصل والوصل' هو من مباحث المعاني الموسومة بقدرات أسلوبية عالية، بما تشتمل عليه من حروف المعاني الرابطة، والتي عدل بها البلاغيون عن

---

(1) الزمخشري: **الكشاف**، طبعة مصر 1307هـ، ج2، ص563.

(2) السابق: ص543.

(3) السابق

(4) الجاحظ: **البيان والتبيين**، ج1، ص81.

(5) الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، ص159.

(6) السابق: ص178.

وظيفتها النحوية إلى ما وراء ذلك من وظائف فنية بلاغية[1].

أولا: الفصل.

و"الفصل" عند القدماء: هو ترك عطف الجمل بعضها على بعض بالواو[2]. وفي تعريف محدث هو: الوقوف عند نهاية كل عنصر، حتى يشعر السامع بانتهائه، ويتهيأ الخطيب لعنصر تال فهو يفرغ من عنصر سلف، ويقبل على عنصر آتي[3]. وفي تعريف حديث آخر هو: "قطع معنى عن معنى بأداة لغرض بلاغي"[4]. والتعريف الأخير –فيما أرى – هو أوجزها وأدقها؛ لأمر سيتضح مع الاستغراق في تناول هذا الموضوع.

وقد جعل القدماء "الفصل" على خمسة أوجه هي: "كمال الاتصال"، "كمال الانقطاع"، "شبه كمال الاتصال"، "شبه كمال الانقطاع"، "التوسّط بين الكمالين"[5]. لكنّ باحثا محدثا هو "منير سلطان" قد تحفّظ على هذا التقعيد لثنائية "الفصل والوصل"، وأوضح أنّ فيه قصوراً يتمثّل في أوجه عدّة، منها: قصر "الوصل والفصل" عند القدماء على الجمل دون المفردات. وأنهم حصروا "الفصل" في "طرح الواو" فقط، في حين أنّ القرآن فصل بغير الواو أيضا. وأنّهم سمّوا الفصل بين الجملتين الخبرية والإنشائية "كمال الانقطاع"، والحال أنّ عطف الخبرية على الإنشائية أو العكس جائز عند بعض النحاة، على رأسهم "سيبويه". وقد ساق هؤلاء النحاة اثني عشر شاهدا في القرآن على ذلك. وآخر تحفظات "سلطان" هي أنّ هذه القواعد لم تراع المعنى العام، ولا السياق الجامع المتجانس الذي اقتضى "فصلاً" هنا، و"وصلاً" هناك، وانكمشت قواعدهم في أمثلة تعليمية وشواهد محدودة، غاضة الطرف عن رحاب القرآن الفسيحة[6].

و"سلطان" يلخّص رأيه في وظيفة "الفصل والوصل"، التي يراها منسجمة مع المعنى العام بقوله إنّ المقياس الحقيقي لقبول الفصل أو الوصل هو أن تؤدي العبارة – في إطار السياق العام –

---

(1) محمد عبدالمطلب: البلاغة والأسلوبية، ص80.

(2) الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، ص170.

(3) لاشين: **المعاني في ضوء أساليب القرآن**، ص307.

(4) منير سلطان: **الفصل والوصل في القرآن الكريم، دراسة في الأسلوب**، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1997، ص31.

(5) الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، ص187.

(6) منير سلطان: **الفصل والوصل في القرآن الكريم**، ص167-168.

الغرض من صياغتها في إيصال المعنى إلى المخاطب في أوضح صورة وأحلاها، فإذا أدى الوصل بين مفردتين أو جملتين إلى معنى غير المقصود، أو إلى المعنى المقصود بصورة رديئة أو بصورة لا يقبلها العقل وجب الفصل، وإذا كان الفصل سببا في الإيهام بغير المقصود أو في فقدان المنطقية الفنية أو العقلية، أو فقدان الرشاقة في الأسلوب وجب الوصل[1].

وسننهج في تناولنا "للفصل والوصل" في "جزء عمّ" النهج نفسه الذي انتهجه "سلطان"، إذ لم يقصر تناوله لهذا الموضوع على نظريات القدماء، بل أعطى لعقله وذوقه حقّ التأمّل والتعمّق في المسألة، ممّا جعله يتوصّل إلى حقائق جديدة معتمدا على إيمانه بترابط النصّ، وتقديره للسياق العام. وهي الأمور التي ربما أغفلها القدماء عندما خاضوا في هذه المسألة، مما جعلهم يقعون فيما تحفظ به "سلطان" عليهم. وكان ذلك اقتناعاً منا بما ساقه من أدلّة في معرض تبيانه لأوجه القصور في تناول القدماء لهذا الموضوع المهمّ.

مواضع الفصل:

فصل القرآن الكريم في "جزء عم" بين المفردات، وكذلك فصل بين أركان الجملة الواحدة، وفصل بين الجملتين، وكذلك فصل بين جمل عدة. ونفصل ذلك فيما يأتي:

أ- الفصل بين المفردات "بطرح الواو":

نحو قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ (عبس: 13-16). وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ (عبس: 38-39). وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾(البروج: 14) و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ (الغاشية: 2-3).

ويبدو لي أن المتأمّل في هذا النوع من الفصل يلحظ أن الغرض البلاغي من ورائه هو "المزامنة"، فالصحف: مكرّمة مرفوعة مطهّرة في الوقت نفسه بدون انفصال، لذلك لم يفصل بينها بالواو. والكلام نفسه ينطبق على باقي الأمثلة.

---

[1] منير سلطان: **الفصل والوصل في القرآن الكريم**، ص167-168.

ب- الفصل بين أركان الجملة الواحدة:

وهذا يتحقق بضمائر الفصل، أو بالجملة المعترضة: أمّا الفصل بضمائر الفصل فقد أشار إليه 'سيبويه[1]، والفرّاء[2]، والجرجاني[3]، والزمخشري[4]، وغيرهم. ونجده في 'جزء عم' في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝﴾ (النبأ: 1-3). حيث فصل الضمير المنفصل 'هم' بين أركان جملة: الذي فيه مختلفون. وأرى أن الفصل بهذا الضمير في هذا الوضع أفاد التخصيص. أي أنهم هم المختلفون فيه، وليس غيرهم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: 39). فصل الضمير 'هي' بين الجحيم' ومأوى' لغرض التأكيد. وقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾(عبس:42). والفصل بالضمير المتصل 'هم' في هذه الآية أفاد التخصيص، أي أنّ تلك الصفات خاصة بهؤلاء.

والنوع الثاني هو الفصل بالجملة المعترضة: وقد أشار إليها 'ابن جنّي[5]، وابن وهب[6]، والجرجاني[7]، وغيرهم. ويعرّفها 'الزركشي' بأنها حين 'يؤتى في أثناء كلام أو كلامين متصلين معاً، بشيء يتمّ الغرض الأصلي بدونه ولا يفوته بفواته، فيكون فاصلاً بين الكلام والكلامين لنكتة[8].

وفي 'جزء عم' وجدت نحوا من ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝﴾ (عبس: 8-10)، وهنا اعترضت جملة 'وهو يخشى' أركان الجملة التي تحقق الغرض الأصلي وهي: 'وأما من جاءك يسعى..فأنت عنه تلهّى'. وربما الغرض إظهار مدى سلبية التلهي،لأنه تلهٍ عن رجل يخشى الله.

---

(1) سيبويه: **الكتاب**، ج1،ص394-395.

(2) الفرّاء: **معاني القرآن**، ج1،ص409وص51.

(3) الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، ص98.

(4) الزمخشري: **الكشاف**، طبعة مصر ج1، ص434، آل عمران 62.

(5) ابن جني: **الخصائص**، ج1،ص335.

(6) ابو حسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان، ابن وهب: **البرهان في وجوه البيان**، تحقيق: احمد مطلوب وخديجة الحديثي، جامعة بغداد، 1967، ص124-125.

(7) الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، ص98.

(8) الزركشي: **البرهان**، ج3،ص56.

ومثله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ (البروج: 10)، حيث فصلت جملة ثم لم يتوبوا بين أركان الجملة الواحدة والتي تقديرها: إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات لهم عذاب جهنم.. والغرض فيما يبدو لي تأكيد أهمية التوبة في حطّ الذنوب العظام.

ج- الفصل بين الجملتين: ومن أدواته:

1- واو الاستئناف:

وقد أشار إليها الزمخشري[1]. وعنها يقول الزركشي: وتسمّى واو القطع وهي التي يكون بعدها جملة غير متعلقة بما قبلها في المعنى، ولا مشاركة في الإعراب، ويكون بعدها الجملتان، فالاسمية كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾(الأنعام: 2). والفعلية كقوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ (الحج: 5). وإنّما سميت واو الاستئناف لئلا يتوهم أنّ ما بعدها من المفردات معطوف على ماقبلها[2]. وقد وقفت على موضع واحد في جزء عمّ بما اتاح لي تأملي، في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾. (القدر:4)، فقد فصلت الواو الاستئنافية بين الجملتين تنزل الملائكة والروح فيها. ولم تعطف الثانية على الأولى. والغرض فيما أرى تمييز الروح من الملائكة.

2- ثمّ:

وتأتي للاستئناف بالرغم من أن غالب استعمالاتها يكون للعطف. ونجدها في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾(الأعلى: 12-13). وقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ

---

(1) الزمخشري: الكشاف، طبعة مصر،ج3،ص127، سورة الشعراء: 153-154.

(2) الزركشي: البرهان، ج4،ص437.

وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ (البلد: 11-17).

3- بَلْ:

وتكون استئنافية وتؤدّي وظيفة من وظائف الإضراب هي القطع الصريح[1]. ونلحظها في "جزء عم" في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ (الفجر: 16-17). وقوله: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ (المطففين: 12-14).

4- الجمل المعترضة:

وفي "جزء عمّ" وجدت نحواً من ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾(التكوير:15-18). حيث اعترضت جملة "الجوار الكنّس" سياق القسم المتتالي، ولم تكن هي ضمن القسم المعطوف على بعضه. بل كانت بمثابة توضيح أو تعريف للخنّس. وقوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ (المطففين:25-27)، فاعترضت جملة: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ" بين الجملتين: "خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ" و"وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾، فهما متصلتان بالمعنى من خلال العطف. وربّما كان الغرض البلاغي من وراء هذا الفصل هو الحث على المنافسة، والسبق إلى نيل ذلك الرحيق المميّز.

---

[1] الزركشي: **البرهان**، ج4،ص258.

5- الاستثناء المنقطع:

أشار إليه "الزمخشري"[1]. وقال "المالقي" عنه: "اعلم أنّ إلاّ حرف معناه الاستثناء ولفظه موضوع لذلك، وهي تنقسم إلى قسمين: قسم يخرج ببعض الشيء من كله، وهو الذي يُسمّى "الاستثناء المتصل"، وقسم بمعنى "لكن" ويسمّى ما يكون له كذلك "الاستثناء المنفصل"، و"الاستثناء المنقطع"[2]. وضرب "الزركشي" مثالا له من "جزء عم"، هو قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣﴾(الغاشية: 22-23)، فـ إلاّ هنا بمعنى لكن[3]، فهي للاستثناء المنقطع، وعلى ذلك فهي أداة فصل.

وهكذا نرى كيف شكّل الفصل بكل مستوياته ظاهرة بلاغية في "جزء عم" تقوم سمةً أسلوبية فيه، لها كبير فاعلية في إيصال المعاني المنشودة، وفي التأثير الفكري والشعوري.

ثانيا: الوصل

وهو "ربط معنى بمعنى بأداة لغرض بلاغي"[4]. ويسهم "الوصل" في الاتساق النحوي للنص الأدبي الذي سبق ذكره في باب الحذف. وللوصل مواضع عديدة تتنوع تبعا لتنوع الكلام بين مفردات أو جمل. وسنتناول هذه المواضع بشيء من التفصيل فيما يأتي:

مواضع الوصل:

أ.الوصل بين المفردات: وصل القرآن الكريم في "جزء عم" بأدوات الربط. ولم يقصر ذلك على حروف العطف كما سنرى، بل تعدّاها إلى أدوات ربط أخرى، منها: "**ذات، ذو**" كقوله تعالى فيما يأتي: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾(المسد: 3). ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ (الطارق: 11). ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ (البروج: 1). وفائدتها المصاحبة، أي النار صاحبة اللهب، وهكذا. ومفردة "**الذي**": وهو اسم موصول، وفي الوقت نفسه أداة ربط بين المفردات. كقوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(1) الزمخشري: **الكشاف**، ج1، ص292.

(2) المالقي: أحمد بن عبدالنور: **وصف المباني في شرح حروف المعاني**، تحقيق: أحمد الخراط، دمشق، 1975، ص85.

(3) الزركشي: **البرهان**، ج4، ص236.

(4) منير سلطان: **الفصل والوصل في القرآن الكريم**، ص31.

نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ (البروج: 8-9)، حيث فصلت "الذي" بين مفردتي "الحميد" و "ملك". ومن المفردات الواصلة كذلك حروف الجر، حيث نجد حرف الجر "على" في قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ (البروج: 6). وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(البروج: 9). وفائدتها الاستعلاء الحقيقي والمعنوي[1]. وحرف الجر "عن" في: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾(النازعات: 40). وفائدتها المجاوزة[2]. و"الباء": ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى ﴿١٤﴾ سَفَرَةٍ﴾(عبس: 14-15). ولها فوائد كثيرة، منها: الإلصاق والتعدية والاستعانة والتعليل والمصاحبة وغيرها[3]. والاستعانة كان هو الفائدة في الشاهد المذكور. وحرف الجر "إلى": ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ (عبس: 24). و"اللام": ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ (الانفطار: 19). وحرف الجر "في": ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾(البروج: 21-22). وهناك حرف الجر "الكاف" في قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ (القارعة: 5). وأخيرا حرف الجر "من": ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: 29). وكلها لها معاني متعددة[4].

ومن المفردات الواصلة كذلك "الواو": في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾(النبأ: 38) و﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ (عبس: 27-31). و"الفاء": في قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ (النازعات: 3-5). وهنالك "أم" المتصلة. ونجدها في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾(النازعات: 27).

---

(1) أحمد فليح: حروف الجر ومعانيها، المركز القومي للنشر، 2001م، ص110.

(2) السابق: ص109.

(3) السابق: ص113.

(4) للمزيد عن حروف الجر ومعانيها يرجع إلى كتاب حروف الجر ومعانيها لأحمد فليح المذكور آنفاً.

ب- وصل الجمل: وتنقسم إلى أقسام عدة هي:

1- الوصل بين الجملة والمفرد:

كقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝﴾(العاديات: 3-4). و'الفاء' هنا حرف عطف يفيد السرعة. وقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾ (الضحى: 1-2). وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝﴾(التكوير: 17-18). فجاءت الجملة موضحة لجانب ما في المفرد، فـ'الليل' وضحته 'إذا سجى' بل خصصت المراد منه في هذا الموضع. بينما في موضع آخر نجد أن لفظة 'الليل' نفسها تخصصت بـ 'إذا عسعس'.

2- الوصل بين الجملة والجملة:

وصل القرآن بين الجملة والجملة بروابط مختلفة منها الآتي: 'الفاء'، كقوله تعالى: ' ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ' (عبس:21). 'ثم'، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝﴾(الأعلى: 12-13). وتفيد العطف مع التراخي. 'أو' للتخيير. كقوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝﴾(البلد: 13-14).'أن' ناصبة المضارع، ونجدها في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾(التكوير: 28). 'أن' بمعنى 'عندما'، كقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ (عبس: 1-2). 'إن' الشرطية، كقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ (الأعلى: 9). 'إذا' الفجائية، في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝﴾ (النازعات: 13-14). 'إذا' الشرطية، نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (المطففين:13). 'مَنْ' الشرطية، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾(عبس: 12). 'ما' التعجبية، مثل قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾(عبس: 17).

وهناك غير هذه الأدوات مثل 'إلا' و'الذي' و'الذين' و'إذ' الظرفية. وكلها تربط بين جملتين في 'جزء عم'. وكثير منها إلى جانب كونه رابطا فهو كذلك يؤدي أغراضا بلاغية، سنسلط الضوء على بعضها لاحقا.

3- الوصل بين مجموع جمل ومجموع جمل أخرى:

وإليه أشار "الجرجاني" بقوله: "فأمر العطف إذاً موضوع على أنك تعطف تارة جملة على جملة، أو تعمد [تارة] أخرى إلى جملتين أو جمل فتعطف بعضاً على بعض، ثمّ تعطف مجموع هذه على مجموع تلك"[1].

ويمثّل ذلك في "جزء عمّ" قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ (البروج: 10). ففي الآية طرفان، الأول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾، والثاني: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾. والطرف الأول منهما يشتمل على جملتين، عطفت الثانية منهما ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ على الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. وفي الطرف الثاني جملتان كذلك، عطفت الثانية منهما: ﴿لَهُم عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾على الأولى: ﴿لَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾. والطرفان بما يتضمنان من جمل فُصل بينهما بالفاء.

من أغراض "الوصل والفصل" في "جزء عمّ":

1- الإيضاح بالاستطراد:

وهو يتخذ صوراً عدة في "الفصل والوصل" القرآني، منها التفسير، والاستطراد، والتفصيل بعد الإجمال. فمن **البيان والتفسير** في "جزء عمّ" قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾(عبس: 24-25). وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾(عبس: 18-19). وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ (عبس: 1-2). حيث إنّ جملة ﴿جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾كانت تفسيراً وبياناً لسبب العبوس والتولّي.

---

[1] الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، ص244.

والإيضاح بالاستطراد هو غرض بلاغي يؤديه الفصل، ونلحظه في قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧﴾ (المطففين: 25-27). فالجملة المعترضة: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾، فصلت بين سابقها ولاحقها، وشكّلت إيضاحا بالاستطراد.

أمّا إيضاح "التفصيل بعد الإجمال": فحققه "الوصل" باستخدام "كيف" غير الاستفهامية، والتي يكون تقديرها مع الاسم بعدها شبيهاً ببدل "البعض من كل". وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية: 7). إذ التقدير: أفلا ينظرون إلى الإبل خلقها. وهنا "الإبل" إجمال، و"كيف خلقت" تفصيل. ويؤديه "الفصل" في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦﴾ (الانفطار: 14-16). فأجمل العقاب بلفظة "جحيم"، ثمّ فصّله بجملتي: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ و ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾.

2- تثبيت المعنى:

ونجده في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (البروج: 11). إذ إنّ جملة "الفوز الكبير" هي صلة للاسم الموصول "ذلك"، وصلت ما قبلها به لتثبيت المعنى. ونحو ذلك في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾(المطففين: 1-2). فالصلة هنا تثبيت لمعنى "المطففين".

3- تقسيم الموضوع إلى أجزاء موصولة:

وهذه ظاهرة شائعة في القرآن الكريم، حيث يُعمد أحياناً إلى الفكرة الرئيسة لموضوع ما، ويضعها في شكل جملة قصيرة أو طويلة، ثمّ ينثرها في أجزاء موصولة مختلفة القرب أو البعد من الفكرة العامة، والقرآن في هذا لا يلتزم وتيرة واحدة في هذا العرض، فقد يجيء بالفكرة الرئيسة

أوّلاً، ثمّ ينثرها إلى أجزائها، وقد يقدم الأجزاء ثمّ يأتي بالفكرة من بعد،..وهكذا[1]. وجزء عمّ زاخر بمثل هذا التقطيع الذي يؤدي فيه فن الوصل والفصل دوراً بارزاً.

ونلحظ ذلك في سورة المطففين التي تبدأ بالآية: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾وهي تشكّل الموضوع الرئيسي الذي ستتوالى أجزاؤه أو ملحقاته، وذلك في الآيات الآتية:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾

﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾

والعكس سنجده في سورة الانشقاق التي ظهرت فيها الأجزاء قبل الموضوع الرئيسي على النحو الآتي:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾

فالآيتان الأولى والثانية ينتظمهما نسق معيّن، والآيات الثالثة والرابعة والخامسة ينتظمها نسق آخر، ثمّ الآية السادسة وهي الموضوع الرئيسي، وقد جاءت أجزاؤه قبله، فهي كلها تصبّ فيه، وتقدير ذلك كالآتي: يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك فملاقيه إذا السماء انشقت...

---

(1) منير سلطان: الوصل والفصل في القرآن الكريم، ص200.

4- تصوير الهيئة المنفصلة والهيئة المتصلة:

يقول الجرجاني: كلّ جملة وقعت حالا ثمّ امتنعت من (الواو) فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها - أي في صدر جملة الحال - فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد. وكلّ جملة جاءت حالا ثمّ اقتضت (الواو) فذاك لأنك مستأنف بها خبراً، وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات[1]. وساق الجرجاني كلاما بعد هذا يبيّن فيه أن واو الحال تؤدّي وظيفة الربط بين الجمل، بالإضافة إلى وظيفتها الأصلية في تبيان حال صاحب الفعل[2].

إذاً فصل الهيئة هو حالٌ جملة يؤتى به بدون واسطة الواو، ويكون الحال متماهياً في صاحب الحال، أو يكون فعل جملة الحال مندمجا مع فعل صاحب الحال، وهما في حكم واحد. كأن نقول: جاءني زيد يسرع. فأدخلنا الإسراع في المجيء وجعلناهما شيئاً واحداً.

أمّا وصل الهيئة فهو حالٌ جملة، تُستخدم معها إمّا واو الحال، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾ (البقـرة: 187). أو ضمير ينوب عنها، كقوله تعالى: ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ (البقرة: 44).

ونجد فصل الهيئة في جزء عمّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣﴾ (المطففين: 22-23). والتقدير: يجلسون على الأرائك ينظرون، فالفعل ينظرون وكأنّه أدمج في الفعل المقدّر يجلسون، وصارا شيئاً واحداً. ونلحظه كذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾(الفجر:22). والتقدير: وجاء الملك يصفّون صفا صفا. فتماهى الفعل المقدّر يصفون مع الفعل جاء مكوّنين هيئة منفصلة.

أمّا وصل الهيئة، فنجده في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾(عبس:8-10)، حيث وصلت واو الحال جملة الحال بالجملة السابقة. وفي قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠﴾ (البروج: 19-20)، فربما

(1) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص213.
(2) السابق: ص214.

تكون "الواو" هنا للحال، وتؤدي غرض التعجب من كونهم يكفرون مع إحاطة الله بهم وهيمنته عليهم. وعليه فتكون "الواو" قد وصلت بين الجملتين مكونة "وصل الهيئة". ومثله قوله تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝﴾(الأعلى: 16-17). فهنا "الواو" قد تكون للحال أيضا، والتقدير: بل تؤثرون الحياة الدنيا في حين أن الآخرة خير وأبقى. وتؤدي غرض التعجب كذلك، وقد وصلت بين الجملتين مكونة "وصل هيئة".

5- تناسب الإيقاع الصوتي مع الإيقاع الدلالي:

حيث إنّ "الفصل والوصل" إلى جانب أنهما يستخدمان في فصل المفردات والجمل، أو وصلها لأغراض بلاغية كما تبيّن، فهما كذلك يوصلان النغمات الإيقاعية للآيات أو يفصلانها بما يتناسب مع طبيعة الموضوع وما الملائم له[1]. و"الفصل والوصل" يقومان بذلك ضمن منظومة إيقاعية كاملة متعدّدة الأجزاء، مثل القصر والطول والثبات والتغيّر والإطراء والتنوّع، وهناك أيضا عنصر "اللازمة" والتي هي: آية تتكرّر مرات على مدى السورة، بعد إيقاعات مختلفة؛ لتعمل على ربط الإيقاعات السابقة بتلك اللاحقة، إلى أن تأتي "اللازمة" التالية[2].

وهذا التناسب للإيقاع الصوتي مع الإيقاع الدلالي الذي تسهم في تحقيقه ثنائية "الفصل والوصل" نجده في "جزء عمّ" في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝

عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝

تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝

يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝

خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ (المطففين: 22-26).

"فهذا إيقاع هادئ مفصول، يحكي لنا حال الاسترخاء والنعيم التي سينالها الأبرار، فتكثر

(1) منير سلطان: **الوصل والفصل في القرآن الكريم**، ص217.

(2) السابق.

الياء والواو ليمثّلا المد الزمني والاسترخاء النفسي"[1]. وفي سورة "الشرح":

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢

ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤

فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥

إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦

فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧

وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾ (الشرح: 1-6).

وبالتأمل في الآيات السابقة نجد "كاف الخطاب هنا فيها تسرية للنفس، نفس النبي الكريم وبعدها تأتي ألف الإطلاق تصوّر الأمل الذي لا حدود له. كل ذلك في نغمات موصولة هادئة"[2].

---

(1) منير سلطان: **الوصل والفصل في القرآن الكريم**، ص215

(2) السابق.

الفصل الخامس

المستوى البلاغي في "جزء عمّ"

القسم الأوّل: المستوى التصويري

توطئة:

التصوير سمة بارزة في القرآن الكريم، فكلّ جزئية منه قد اتحدت مع غيرها، لتقدم مشهدا يتقاطع مع مشاهد أخرى في السياق، يبيّن روعة التصوير وجلالة المصوّر جلّ وعلا. والتصوير في القرآن "يعبّر بالصورة المحسّة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثمّ يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية"[1].

و"جزء عمّ" شأنه في ذلك شأن باقي القرآن؛ يعمد إلى تصوير الخوالج النفسية والنماذج البشرية والصفات المعنوية على شكل صور حسية متباينة ما بين بسيطة ومركّبة، لكنها تتشابه في كونها تضجّ بالحركة، وتمتاز بتضافر أدوات التصوير فيها، من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز.

1- الصور الحسية في "جزء عمّ":

الصور الحسية: هي الصور التي تدركها إحدى الحواس الخمس، كالصور البصرية والسمعية والذوقية والشميّة واللمسية. وعُني العلماء قديماً وحديثاً بالصور الحسية في القرآن الكريم، كونها تجسّد المعنويات، وتقربها إلى الفهم، لتحرك سواكن القلوب، وتأخذ بتلابيب العقول. ومن العلماء القدامى الإمام "الرمّاني" الذي "لاحظ أنّ النقلة في الاستعارة القرآنية تبدأ من المعنوي العقلي، وتنتهي إلى الحسّي العيني الذي يعرض المعنوي من خلاله. ومن هنا سهل عليه أن يفترض أن استعارات القرآن الكريم وتشبيهاته تتناول معنى أصيلاً مجرّدا، وتقديماً محسوساً، وذلك عن طريق ربطها المعنويّ المجرّد بالحسي العيني"[2].

---

(1) سيد قطب: **التصوير الفني في القرآن**، دار الشرق، بيروت، ط8، 1982، ص36.

(2) جابر عصفور: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، دار التنوير، بيروت، ط2، 1983م، ص261-262.

وأما شيخ البلاغة "الجرجاني" فالتفت إلى تلك الأهمية للصور الحسية، وعبّر عن ذلك بقوله: "إنّ أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردّها من الشيء تعلمها إيّاه إلى شيء هي به أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها من العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكرة إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع، لأنّ العلم المستفاد عن طريق الحواس، أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر في القوّة والاستحكام"[1]. أي نقل المعنى من المعنوي إلى الحسيّ متمثلاً بتجسيده أمام المتلقّي؛ كي ينفذ إلى فهمه بسرعة.

ثم جاء الإمام "الزمخشري" صاحب "الكشّاف" لتبرز لديه ثلاثة مصطلحات في هذا المجال هي: "التصوير، التمثيل، التخييل". ورأى أنّ التقديم الحسّي للمعنى القرآني هو أسلوب أشمل وأعمّ من التشبيه والاستعارة، وأنّ الصور الحسيّة، حقيقية كانت أم مجازيّة، إنّما هي تصوير للمعنى وتمثيل له في مخيّلة المتلقّي[2].

واهتم المحدثون كذلك بالصور الحسيّة، فهنالك من الغربيين "كوفن"، الذي عدّ الأوضح في الصور الفنية، والأكثر ثباتاً من الأشياء المرئية في الذهن، هو تلك الأشياء المحسوسة التي يمكن إبصارها وسماعها وتلمّسها وشمّها[3].

وينظر "عبد الإله الصايغ" إلى الصور الحسية وكأنها "النافذة التي يستقبل بها الذهن رياح الحياة والتجربة، وهو محتاج في كثير من اعتمالاته إلى الحواس، لترجمة تلك الاعتمالات، فتكون الحواس بهذا المنحى أهمّ وسائل الذهن في الاستقبال والبث"[4].

ويبدو لي أن موضوع الصور الحسية يستحق كل هذا الاهتمام من الدارسين قديما وحديثاً، لما يمثله من أسلوب راق في التعبير وتقديم المعاني، وتقريبها إلى الأذهان. ولما ينطوي عليه من تأكيد الصلة بين ذهنية الإنسان وحواسه المختلفة، تلك الصلة التي تجعله يقارب الأمور المعنوية مقاربة أكثر عمقاً. وهذا يؤكد مدى أهمية الحواس في فهم الحياة بشقيها المعنوي والمادي.

---

(1) الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: محمد الأسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996، ص99.

(2) جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص267-268. وراجع الزمخشري: الكشاف، ج2،ص552. طبعة مصر.

(3) نعيم اليافي: مقدمة لدراسة الصورة الفنية، دمشق، 1982م، ص74.

(4) عبدالإله الصايغ: الصورة الفنية: معياراً نقديا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987م، ص406.

وظائف التصوير الحسّي:

من وظائف التصوير الحسّي في "جزء عمّ": "التشخيص" و"التجسيم" اللذان يقومان في المقام الأول على الاستعارة والكناية قبل التشبيه. وسنتناولهما بالتوضيح وإيراد الشواهد عليهما من الجزء القرآني الأخير، وسنتناول بعدهما كذلك موضوع الانزياح في الجزء، بما يتضمن من الكناية والتشبيه والمجاز، كلاً على حدة.

التشخيص:

هو: إسباغ الحياة الإنسانية على ما لاحياة له، كالأشياء الجامدة والكائنات المادية غير الحيّة[1]. وهو ميّزة من ميّزات الاستعارة، وليس فرعاً من فروعها، وتشكيلا من تشكيلاتها[2]. وهو ضرب من ضروب الانزياح الأسلوبي، إذ هو صورة من صور الخروج عن المألوف، وانتظار اللامنتظر، وتوقع اللامتوقع[3]. وغاية التشخيص في القرآن هو الهدف الديني بالمقام الأول، بإقامة صلات بين النفس الإنسانية وما حولها من موجودات؛ لإيقاظ التأمل الذي يمكن أن يقرب هذه النفس إلى الله خالقها سبحانه وتعالى.

ومن أمثلته في "جزء عمّ" قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ (التكوير: 17-18). فالقرآن في هذه الآية شخّص ظاهرتين طبيعيتين، يجتمع فيهما المادي والمعنوي غير الحيّين، وهما ظاهرتا الليل والصبح. الليل بظلامه وسكونه. والصبح بأنواره وانعكاساتها وظهور شمسه. فجعلهما وكأنهما كائنان حيّان؛ الليل يعسّ في الظلام بيده أو برجله لا يرى. والصبح يتنفّس، إشارة إلى بعث الحياة فيه، بعد أن كان ميْتاً بفعل غياب الشمس وجثوم الظلام[4]. وأرى أن هذا التشخيص وارد في سياق قسَم عظيم على صدق نبوّة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم، وحقيقة استمداده الوحي من السماء، وبراءته من كل عيب يخدش رسالته، فجاء هذا التشخيص لينبّه الكفّار والناس جميعا، ويقول لهم إنه كما يأتي الصبح فينفض غبار الليل والظلام عنه، وتدبّ فيه الحياة ويُبعث من جديد، وتتألق فيه الأنوار، فكذلكم أنتم عليكم أن تنفضوا ظلام

---

(1) جبور عبدالنور: **المعجم الأدبي**، بيروت، 1979م، ص67.

(2) عهود عبدالواحد: **السور المدنية: دراسة بلاغية وأسلوبية**، ص202.

(3) أبو العدوس: **الأسلوبية: الرؤية والتطبيق**، ص183.

(4) سيد قطب: **في ظلال القرآن**، مج6، ص3842.

الجهل والكفر عن أنفسكم، وتبعثوها من جديد لتتألق بنور الحق والهداية، نورمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وربما وجدنا التشخيص كذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝﴾ (الزلزلة: 1-4). فيبدو لي أن القرآن في هذه الآيات شخّص الأرض الجامدة، فجعلها وكأنها إنسان يتحدث وينطق بأخبار وأسرار كثيرة، لا بل كل الأخبار والأسرار التي كانت الأرض ساكتة عنها. وهذا التشخيص يدعو الإنسان إلى التأمّل في هذه الأرض التي يعيش عليها، وتنطبع كل حركاته وسكناته فوقها، ويدعوه إلى التعامل معها على أساس أنها كائن حي يشعر ويحسّ ويعرف ويحزّن، لذا فمن الواجب أن يخجل منها ويخاف، ويحذر أن تفضحه في يوم من الأيام، ويجهد أن يكون سلوكه فوقها مستقيما صالحا مرضيا عنه. وهذا من قبيل عقد الصلة بين النفس الإنسانية والموجودات المنظورة حوله؛ تنمية للإحساس الروحي لديه. وهو الأمر الذي أشار إليه أحمد فتحي رمضان[1].

ومن التشخيص الرائع في جزء عمّ كما يظهر لي، قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ (البلد: 6)، ولعله هنا شخّص المال وجعله كائنا قابلا للهلاك والموت. ليجعل الناس تتعامل مع المال على أنه كائن حيّ يموت بإنفاقه في طرق الشر والباطل، أو بالبخل وعدم إخراج الحقوق الشرعية، بينما يحيا بالتصدّق والزكاة وإغاثة الملهوف ومساعدة كل محتاج. وهذا المعنى يدلّ عليه سياق الآيات اللاحقة لهذه الآية، فلنتأملها وندرك ذلك المعنى. يقول تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝﴾(البلد: 6-17). فهو مال ميْت جرى إهلاكه لأنه لم يقتحم به العقبة، ولم يفكّ به رقبة، ولم يطعم به يتيماً أو مسكيناً، ولم يوصله ذلك المال ليكون من المؤمنين المتواصين

---

[1] أحمد فتحي رمضان: الاستعارة في القرآن الكريم، ص146.

بالصبر والتراحم. وبالتالي لم يجعله ذلك المال من أصحاب اليمين، فهو على ذلك مال ميْت لا فائدة منه.

و في قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾(الهمزة: 6-9). فأراه تشخيصاً لحال النار مع الكفّار من أهلها، فهي في شدّة نفاذها إلى خلايا الإنسان وأدق أجزائه فكأنها مخلوق يتحرّى ببصره أدق المواضع وأكثرها تأثرا بالحرارة كي يهجم عليها ويفترسها، وهو مطبق على ما يريد أتمّ الإطباق بواسطة عمد ممددة. وتلك صورة بصرية، والمعنى مستعار من الاطلاع على الدقائق. أو ربّما في تصوير آخر، كأنها ذلك المخلوق الذي يعرف أنّ هذه القلوب السيئة السوداء هي التي أودت بأصحابها إلى النّار، فتتحرّاها لتنتقم منها، وهي تدرك تباينها في السوء والانحراف، فتكون درجة إحراقها لها مبنية على تلك المعرفة. والله أعلم.

ورأينا فيما سبق من شواهد في "جزء عم" كيف يشخص القرآن الكريم الأشياء الجامدة التي لاروح فيها، فيمنحها الحياة، ليقربها إلى الفهم أولا، وليعقد صلة بين الإنسان وما حوله من موجودات مادية لإيقاظ التأمل والتفكر فيه ثانياً، مما يقربه إلى خالقه زلفى. فقد جعل القرآن الصبح يتنفس، والأرض تتحدث، والمال يموت، والنار تطلع. ليبيّن آثار هذه الموجودات، وفعاليتها في مسيرة الحياة.

التجسيم:

أشار إليه "الجرجاني" في معرض حديثه عن الاستعارة بقوله: "إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها جُسّمت حتى رأتها العيون"[1]. وكذلك أشار المحدثون إليه بقولهم إنه: "تحويل المعنوي المجرّد من اللبوس والحدودانية المكانية إلى حسيّات تُرى أو تُسمع أو تُلمس أو تُشمّ أو تُذاق"[2].

وهو كما يبدو لي: رسم صورة مادية واضحة لها أبعاد مختلفة، لتوضيح أو تقريب اختلاج نفسي أو موقف حياتي أو سلوك إنساني، لا يمكن تصوره بدقة ما لم يُجسّم بصورة مألوفة للناس،

(1) الجرجاني: أسرار البلاغة، ص41.

(2) عبدالإله الصايغ: الصورة الفنية معياراً نقدياً، ص417.

تشبه في حيثياتها ومراميها حيثيات ومرامي ذلك الشيء المعنوي من سلوك أو موقف أو اختلاج.

ومن 'التجسيم' في 'جزء عمّ' فيما يبدو لي قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝﴾ (الأعلى: 9-11)، فربما جسّم 'الذكرى' المعنوية كأنّها شيء ماديّ في طريقه، فيراها الأشقى من بعيد فيغيّر طريقه ويتجنّبها كي لا يراها، وهذا منتهى البغض والإعراض.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ (التين: 5). الغرض هنا فيما يظهر لي تجسيم حال هذا الإنسان الذي أكرمه الله تعالى، وأنعم عليه بالعقل وبالشكل الجميل، ثمّ يختار هو طريق الباطل، فيكون مصيره ذلك المصير السيئ الذي لا سوء بعده. فعبّر القرآن عن هذا المصير السيئ غاية السوء، والذي هو شيء معنوي، بشيء مكاني حسّي مادي، هو 'أسفل سافلين' أي أقصى الحضيض. وهذا تجسيم لمعنيين: الانحطاط السلوكي والانحطاط المصيري.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: 10). هنا تجسيم للمعنويين: الخير والشر، أو الحقّ والباطل، بجعلهما طريقين محسوستين، وهذه صورة بصرية تنطوي على أبعاد دلالية جميلة، حيث إنّ الطريق فيها بداية ونهاية، وفيها مراحل ومزالق ومخاطر، وفيها طرفان عن يمين وشمال، ورفقة الشر ورفقة الخير، وهذا كلّه متحقق في حركة الإنسان نحو ربّه. وإذا ما عرفنا أن معنى 'النجد' لغويا هو الطريق الواضح، فسندرك مدى دقة هذا التجسيم، حيث طريقا الخير والشر، الهداية والضلال، الحق والباطل، واضحان جدا، وللإنسان أن يختار، وسيحاسب على اختياره، ولا حجة له بعد ذلك، ولايمكن أن يدّعي أن الأمر لم يكن واضحا بيّناً أمامه.

ويجسّم القرآن عذاب النار والألم المعنوي الناتج عنه بطعام كريه مؤذٍ، بل مميت، في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾(النبأ: 30)، والتقدير: لن نذيقكم إلا زيادة عذاب. وهذا التجسيم الذي جعل العذاب المعنوي كأنه طعام مادي محسوس، فربما الغرض منه تنبيه الناس إلى أن كثيرا مما يذاق ويُستلذ به في الدنيا ويخالف نهج الله تعالى، سيتحوّل إلى ذواق زائد للعذاب الشديد في الآخرة.

2- الانزياح في جزء عمّ:

إنّ أدوات التصوير من كناية واستعارة ومجاز وتشبيه تشكّل ظاهرة أسلوبية متشعبة هي ما يطلق عليه 'الانزياح'. وهو ما تقوم معظم مباحث علم البلاغة من بيان ومعان وبديع على أساسه. وكذلك نجد الانزياح في النحو متمثلا بصور كثيرة منها التقديم والتأخير، والمخالفة بين العدد والمعدود، والتذكير والتأنيث، وصور الخلاف النحوي، وغيرها[1]. و'الانزياح' كما أجمع على تعريفه النقاد أو كادوا: خروج عن المألوف أو عمّا يقتضيه الظاهر، أو هو 'خروج عن المعيار لغرض قصد إليه المتكلم، أو جاء عفو الخاطر، لكنه يخدم النص بصورة أو أخرى، وبدرجات متفاوتة'[2]. ولأهمية الانزياح بوصفه ظاهرة أسلوبية فقد قيل إن الأسلوب في أي نص أدبي هو في حقيقته 'انحراف \ انزياح' عن نموذج من الكلام ينتمي إليه سياقيا[3].

وعملية الانزياح يمتد تأثيرها إلى القائل والنص والمخاطب. والانزياح ما كان ليُلحظ ويصير هو الأسلوب نفسه، لولا وجود المعيار المتمثل بالمستوى المثالي[4]. وهو -أي الانزياح- 'جاء لإخراج اللغة من دائرة المعاني المعجمية الضيقة والمعيارية المحددة، إلى دائرة النشاط الإنساني الحي'[5]. ومن أهدافه لفت الانتباه، ومفاجأة القارئ أو السامع بشيء جديد. وكذلك تكريس البعد الجمالي في الأدب للوصول إلى ما سمّاه 'رولان بارت' لذة النص[6]. وفيما سبق نلحظ مستويات عدة من الانزياح، فمن مخالفة المعيار، إلى انزياح نص عن نص، إلى انزياح سياقي في البنية الكلامية الواحدة. ويبدو لي أن هذه المستويات تشترك في الهدف من وجودها في لفت الانتباه، ومفاجأة القارئ أو السامع بشيء جديد. وما يهمنا في هذا المجال هو المستوى الأول الذي يقوم على مخالفة المعيار، للوصول إلى الإبداع المتمثل بالكناية والاستعارة والمجاز.

---

(1) أبو العدوس: **الأسلوبية: الرؤية والتطبيق**، ص188-192.

(2) عبدالسلام المسدي: **الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب**، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1977م ص94.

(3) شفيع السيد: **الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986م، ص51.

(4) محمد عبدالمطلب: **البلاغة والأسلوبية**، ص268.

(5) أبو العدوس: **الأسلوبية: الرؤية والتطبيق**،ص184.

(6) شكري عياد: **اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي**، انترناشونال برس، القاهرة، 1988م، ص79-81.

والقرآن الكريم هو كلام عربي مبين، استخدم الأسلوب العربي نفسه، بما يشتمل عليه من علوم البلاغة، وبما تتضمنه هذه العلوم من انزياحات بلاغية، تهدف إلى أغراض بلاغية مهمة، كما مرّ. وسنتناول فيما يأتي مظاهر الانزياح في القرآن الكريم بصوره المتعددة، من كناية واستعارة ومجاز.

الكناية:

قيل فيها إنها "وادٍ من أودية البلاغة، وركن من أركان الفصاحة، وتفتقر إلى شيء من الدقة لما فيها من الغموض"[1]. والكناية لها تعريفات عدة، فهي عند بعض العلماء: التعبير عن المعنى القبيح باللفظ الحسن، وعن الفاحش بالطاهر[2]. أو هي: ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه في اللزوم، فينتقل منه إلى الملزوم[3]. أو هي: لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادته معه[4].

ووفقا للمنهج الأسلوبي وبالتحديد الوصفي منه، فإنّ "جاكبسون" قد مثّل الكناية بـ"المجاورة، التي هي الترتيب الذي اقتضاه السياق، وأن لكل كلمة موقعها فيه. في حين مثّل الاستعارة بـ"الاستبدال" الذي يقوم على استبدال كلمة بغيرها، ويتبع ذلك تغييرات في الإسناد. فالكناية تعمل على ترتيب العناصر ضمن المجاورة، بينما تعيد الاستعارة تنظيم هذه الأشياء وفقاً لمبدأ الاستبدال والتداعي[5].

و يشتمل "جزء عمّ" على مجموعة من الكنايات، سيقت لأغراض بلاغية مختلفة، منسجمة مع السياق العام بشكل إبداعي لا مثيل له. فمن كنايات الجزء قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ (النازعات: 11)، فالقرآن هنا كنّى على لسان الكفار عن معنى بقائهم أحقاباً طويلة في الأرض موتى. وغرض الكناية في هذه الآية تعليل تكذيبهم للبعث، فهم لمحدودية تفكيرهم ظنّوا أنّ طول بقاء الميّت في بطن الأرض وتحوّله عظاما نخرة، يوجب استحالة بعثه وإحيائه من جديد.

---

(1) عبدالقادر حسين: **القرآن والصورة البيانية**، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1985، ص207.

(2) عبد العظيم بن عبدالواحد ابن أبي الإصبع المصري: **تحرير التحبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن**، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1383هـ ص143.

(3) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي: **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، د.ت، ج1، ص286.

(4) القزويني، محمد بن عبدالرحمن الخطيب: **تلخيص المفتاح**، مطبعة الحلبي، مصر، 1938م، ص307.

(5) إبراهيم خليل: **الأسلوبية ونظرية النص**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1997م، ص116.

وفي قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾(النازعات: 46)، كناية عن عدم شعورهم بمرور الزمن الطويل عليهم وهم أموات عظامهم نخرة، بعكس ما قد توهّموا، وسبق ذكرنا إياه، من أن طول المقام في بطن الأرض يوجب استحالة البعث.

أمّا في قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (المطففين: 13). فقوله 'أساطير الأولين' كناية عن التكذيب بآيات الله، حيث يجعلها بمثابة الخرافات التي لا تُصدّق. والغرض البلاغي وراء هذه الكناية هو الاستخفاف من هذا الإنسان المكذّب الذي لا يعطي لعقله الفرصة لتأمل تلك الآيات. والآية دقيقة في التعبير عن سرعة تكذيبه واتهامه لآيات الله بالكذب والخرافة، حيث جاء الفعل 'قال' بعد جملة 'إذا تتلى عليه آياتنا' مباشرة بلا فاصل، واستعمل الفعل بصيغة الماضي؛ للدلالة على نيته المبيتة للتكذيب.

أمّا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (الأعلى: 13)، فأرى فيه كناية عن شدة العذاب، فليس الكافر حيّا؛ لأن فوقه عذاباً لا حياة معه، ولا هو بميْت؛ إذ لا موت في الآخرة. والغرض البلاغي إظهار الحال الفظيعة المأساوية التي يعيشها الكافر في نار جهنّم. والعياذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾(المطففين: 29-30)، يتضمن كناية عن الاستهزاء في 'يتغامزون'. والغرض إظهار دناءة فعلهم، فهم تجاوزوا الاستهزاء اللفظي إلى الاستهزاء الحركي.

ونجد الكناية أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾(القارعة: 6-7)، فثِقل الميزان كناية عن الفوز والنجاة في الآخرة. وتشتمل الكناية هنا على غرض بلاغي رائع، هو لفت الانتباه إلى العدل الإلهي المتمثل بالحساب والميزان، ومن ثم حض الناس على عمل الخير، وزيادة الرصيد، كي تثقل موازينهم يوم القيامة. والأمر نفسه من الكناية في: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾(القارعة: 8-9)، فخفة الميزان كناية عن الخسارة في الآخرة ودخول النار. وفيها تحذير من كل ما يوجب خفة الميزان في يوم الحساب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ (الفلق: 4)، كناية عن السِحر، أو الساحرات. والغرض منها كما يبدو لي رسم صورة منفّرة لهذه الفئة من الناس، حيث يمارسون حركات غريبة، ليست مما يتقبله الناس عادة، وذلك بهدف التنفير من عمل السِحر.

كانت تلك مجموعة من كنايات "جزء عمّ". وقد لحظنا كيف تتعدّدت أشكالها وأغراضها، وكيف أنها منسجمة تمام الانسجام مع النسيج التعبيري في الجزء القرآني، فبعضها كنايات خفية، تحتاج إلى عميق تأمل لإدراكها، وفكّ رموزها، نظراً لتماهيها مع سياقاتها.

المجاز:

المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة مع قرينة تمنع إيراد المعنى الحقيقي. والقرينة هي التي تبين لنا أن المعنى الحقيقي غير مراد، وأن المعنى المجازي هو المقصود[1]. والمجاز قسمان، فهناك المجاز اللغوي، ومرجعه إلى اللغة، لأن الكلمة استعملت في غير ما وضعت له. وهو ينقسم إلى قسمين: مجاز مرسل، واستعارة. وهناك المجاز العقلي ويُسمّى "المجاز الحُكْمي" حيث التغيير فيه ليس لغوياً، ولكن هو إسناد الشيء إلى غير ما هو له[2].

وفيما يأتي نستعرض عددا من المجازات القرآنية في "جزء عمّ" مبيّنين الأغراض البلاغية منها. وأولها نجده في قوله تعالى:﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾(النازعات: 8-9)، فقرينة "أبصارها" جعلت من "قلوب" مجازاً مرسلاً، حيث أتى بالجزء "قلوب" وأراد الكلّ وهو "الناس". لأن القلوب ليس لها أبصار، وإنما الأبصار للناس أصحاب القلوب. وربما كان الغرض البلاغي من هذا المجاز هو تسليط الضوء على أكثر أعضاء الإنسان تأثّراً في ذلك اليوم الرهيب وهو القلب، حيث هو مركز الخوف والرعب الشديد الذي سيتولّد بفعل ذلك اليوم.

ومثله في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ (الغاشية: 2-3). قال "الزركشي" عنها: "يريد الأجساد لأنّ العمل والنصَب من صفاتها"[3]. وهي على ذلك مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث ذكر الجزء وأراد الكلّ. وربما غرضه الإشارة إلى الوجوه التي هي مرآة للنفس، تعكس ما يختلج فيها من مشاعر واعتمالات، لذلك يظهر عليها الشعور بالمهانة والخسران.

---

(1) فضل حسن عباس: **البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع**، دارالفرقان، عمّان، ط11، 2007م، ص134، 136.

(2) السابق: ص142،140.

(3) الزركشي: **البرهان**، ج2، ص264.

ومن المجازات قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ (الانفطار: 6). قال عنها العز بن عبد السلام: "بإنعام ربّك أو بحكم ربّك"[1]. ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ (الانفطار:13). أي: لفي مكان فيه نعيم. وكذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ (الانشقاق: 6)، أي فملاقٍ جزاءه. وهذا المجاز غرضه تبيان أن الجزاء سوف يكون من جنس العمل، فكأنه هو. وهذا بحث ديني مفاده أن أنواع العذاب التي سيجازى بها الإنسان في الآخرة ما هي إلا حقائق ما كان يفعل من معاصٍ، لكنّه كان في حجاب عنها. لذا يقول المولى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِى غَفۡلَةٍ مِّنۡ هَـٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: 22).

ومن مجازات الجزء أيضا قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾(البيّنة: 2)، أي يتلو مضمونها[2]. وهنا ذكر المحلّ وأراد الحالّ، فهو مجاز مرسل علاقته المحليّة. والغرض منه الإيجاز وتبيان أن المحلّ يستمد قدسيةً من الحالّ فيه، وكما يقال المكان بالمكين.

ومن تلك المجازات قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾(الماعون: 3). أي لا يحض على بذل طعام المسكين[3]. وقوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾(العلق: 16). قال عنها "الزركشي": "الخطأ صفة الكلّ فوصف به الناصية، أمّا الكاذبة فصفة اللسان"[4]. فهو مجاز علاقته الجزئية. وربما كان الغرض تبيان أن أبرز ما فيه الكذب والتكذيب بالحق، فكأنه بمثابة الناصية له، أي الجهة البارزة.

ومن المجاز في "جزء عمّ" ما يطلق عليه إطلاق اسم المطلق على المقيّد. ويمثّله قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ (الشمس: 14)، إشارة إلى ناقة صالح عليه السلام. قال "الزركشي": "والعاقر لها من قوم صالح هو "قدّار"، لكنّهم لمّا رضوا الفعل نُزّلوا منزلة الفاعل"[5] وفي كلام "الزركشي" الكفاية في تبيان غرض هذا المجاز.

---

(1) العز بن عبدالسلام: **مجاز القرآن**، ص472.

(2) السابق: ص476.

(3) السابق، ص478.

(4) الزركشي: **البرهان**، ج2، ص269.

(5) السابق: ص270.

ومن المجاز في "جزء عمّ" ما يسمّى إطلاق اسم الخاص وإرادة العام، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾(التكوير: 14)، أي كلّ نفس[1]. وكذلك إطلاق اسم المحلّ على الحال" كقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾(العلق: 17)، أي قومه الذين يجتمعون في النادي. ومن ذلك أيضاً إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر" مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الانشقاق: 24)، حيث يقول الزركشي: "لّما قال بشّر هؤلاء بالجنة، قال بشّر هؤلاء بالعذاب، والبشارة إنما تكون في الخير، لا في الشر"[2]. وجاء هذا المجاز من باب السخرية بهؤلاء الكفار.

ومن أنواع المجاز كذلك إضافة الفعل إلى ما ليس بفاعل له في الحقيقة". كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ (النازعات: 39-40)، أي مقامه بين يديّ ربه[3]. وربما كان الغرض منه إعطاء الموقف تلك الرهبة الكبيرة بنسبته إلى الرب تعالى. كانت تلك مجموعة من مجازات القرآن في "جزء عمّ". ورأينا كيف وظفّها الأسلوب القرآني توظيفا فنيا بلاغيا، ولاحظنا كيف أنها كانت منسجمة مع سياقاتها، انسجاماً جعلها تخفى إلا على المتأمل.

التشبيه:

أ- التشبيه البسيط

وهو التشبيه المرسل المجمل غير المفصّل الذي لا يُذكر فيه وجه الشبه، وإنما يستعان عنه بذكر صفة للمشبه به، كما سيتضح لاحقا. وتُذكر أداة التشبيه وهي الكاف، ولم يقع أن تكون أداة التشبيه اسما في "جزء عمّ"، نحو "مثل" أو "شبه" وغيرهما.

من التشبيه في "جزء عمّ" ما نلحظه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝﴾(القارعة: 4-5)، فنلحظ هنا تشبيها مرسلاً مجملاً باستخدام أداة التشبيه "الكاف" أسهم وجودها في التواؤم الموسيقي للسياق. ولنا أن نلحظ

---

(1) الزركشي: البرهان، ج2، ص272.

(2) السابق: ص283.

(3) السابق.

الدقة في تركيب المشبه به من موصوف وصفة 'فراش مبثوث' و'عهن منفوش'، حيث الموصوف وحده لا يفي بالمعنى المطلوب في هذا السياق، فالناس في الحشر ليسوا كالفراش، من حيث هو فراش بذاته، بل من حيث هو مبثوث، لتحقيق معنى انتشارهم بعشوائية واضطرابهم، وكذلك معنى ضعفهم، لأنه من صفة الفراش الضعف والضآلة. وكذلك الجبال ليست هي كالعهن 'الصوف'، من حيث هو عهن، بل من حيث هو منفوش، لتحقيق معنى خفتها وتلاشيها وذهاب صلادتها. ومما تجدر ملاحظته في هذا الشاهد أنّ صفة المشبه به 'مبثوث' و'منفوش' قد قامت مقام وجه الشبه، فلم يكن هناك من داعٍ للقول مثلاً: يوم يكون الناس كالفراش المبثوث في الانتشار والاضطراب. ذلك أن كلمة 'مبثوث' أدّت هذا المعنى أداء بلاغيا.

وهناك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ (الفيل: 5). نلحظ في هذه الآية تشبيها من النوع المرسل المجمل كذلك، فهنالك أداة تشبيه هي 'الكاف'، ومشبّه: 'أصحاب الفيل'، ومشبّه به: 'العصف'، وهو موصوف بصفة 'مأكول'، وهي الصفة التي لا يتمّ المعنى إلاّ بها، لأنها في الحقيقة تغني عن وجه الشبه فهي تدلّ عليه، أو على الأقل تقرّبه إلى الأذهان، ذلك أنّ 'العصف' عندما يُؤكل ويُطرح من آكله يكون هو العذرة أو الروث، وقد نزّه القرآن نفسه عن ذكره، فكنّى عنه بهذه العبارة[1]. فالشاهد تتقاطع فيه الكناية مع التشبيه.

و إذا سلّمنا أنّ الفعل قد يؤدي عمل أداة التشبيه، بحسب أحد الآراء[2]. فسيندرج ضمن التشبيهات التي وردت في 'جزء عمّ'، قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧﴾ (النبأ: 6-7). وكذلك قوله في السورة نفسها: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ (النبأ: 10)، في باب التشبيه، حيث نُظر إلى الفعل 'نجعل، جعلنا' وكأنه أداة التشبيه. وقد التفت 'العز بن عبدالسلام' إلى الآية السابقة: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾وذكر أنّ فيها حذفاً، فالتقدير: جعلنا الأرض كالمهاد[3]. وأراني أميل إلى تخريج العز، فهو الأقرب إلى القبول.

---

(1) الزركشي: **البرهان**، ج2، ص305.

(2) عبدالقادر حسين: **القرآن والصورة البيانية**، ص76.

(3) العز بن عبدالسلام: **مجاز القرآن**، ص470.

ب- الاستعارة

الاستعارة هي نقل اللفظ من معناه الذي عرف به ووضع له إلى معنى آخر لم يعرف به من قبل. وهي منبثقة عن التشبيه، بل هي تشبيه مضمر في النفس، محذوف أحد طرفيه[1]. ولأنها من التشبيه فقد تناولناها في هذا الباب.

وقفنا على مجموعة استعارات في "جزء عم"، هي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾﴾، حيث شبه السماء بالصفحة أو الشيء الذي يُكشط، أي يُزال، فحذف المشبه به، وأشار إليه بأحد لوازمه وهو الكشط، على سبيل الاستعارة المكنية. والغرض منها فيما يبدو لي لفت الانتباه إلى أن هذه السماء لها نهاية، وأنها تخفي وراءها حقيقة ما، كالزجاج الملون، حين يُكشط اللون عنه يظهر لك ما خلفه.

الاستعارة الثانية نجدها في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ (الطارق: 3)، حيث شبه النجم الذي يشق ضوؤه الساطع الظلام، بالمثقب الحاد الذي يشق الجلد وغيره. وهي استعارة مكنية كذلك. وربما كان الغرض منها التأكيد على شدة مراقبة الله للإنسان، فالآية التي تتضمن الاستعارة مرتبطة بالآية التالية لها: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ﴾.

في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الانشقاق: 24)، استعارة أسماها كثير من البلاغيين استعارة تهكمية أو تلميحية[2]. فاستعار أحد الضدين أو النقيضين للآخر، بواسطة انتزاع شبه التضاد، وإلحاقه بشبه التناسب، بطريق التهكم أو التلميح، ثم ادعاء أحدهما من جنس الآخر، والإفراد بالذكر ونصب القرينة[3].

ويجدر الذكر أن بعض الاستعارات تناولناها في باب التشخيص، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ (التكوير: 17-18). وقد بينا الغرض البلاغي من هاتين الاستعارتين بما يرتبط وموضوع التشخيص.

---

(1) فضل حسن عباس: **البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع**، ص163.

(2) انظر السكاكي: **مفتاح العلوم**، ص378. وأحمد مصطفى الطرودي التونسي: **جامع العبارات في تحقيق الاستعارات**، تحقيق: محمد الجربي، الدار الجماهيرية، ليبيا، 1986م، ص276-277. ومحمد بن علي الجرجاني: **الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة**، تحقيق: عبدالقادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص215.

(3) السكاكي: **مفتاح العلوم**، ص378.

وخلاصة القول في موضوع التشبيه، أن التشبيه البسيط المذكور طرفاه قليل في "جزء عمّ"، والاستعارة قليلة كذلك بالقياس إلى المجاز والكناية. ولكن مع قلتها فقد كان لها أغراض بلاغية عميقة، وتماهت في سياقاتها تماهيا مُحكماً.

3. المشاهد في "جزء عمّ"

نقصد بالمشاهد هنا تلك اللوحات التي رسمتها الألفاظ والعبارات القرآنية بدون اللجوء بالضرورة إلى الصور والأدوات البلاغية، من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز، بل هي نقل أو رصد لواقع ما بالألفاظ والجمل التي تساق بأسلوب ما، لتعبرعن حيثيات ذلك الواقع أو ذلك الموقف تعبيراً يثير الانطباع المنشود، ويؤدّي الغرض الذي يرمي إليه القرآن.

ومن مشاهد "جزء عمّ" المميزة ما نجده في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾(النازعات: 15-25). ولك أن تتأمل كيف رسم القرآن مشهد هذا الحاكم الجبار المتعجرف، المُتخذ من قِبل قومه إلهاً يعبد من دون الله، فرسمه بشكل ساخر شكلته العبارات القصيرة المتلاحقة "فكذّب وعصى، ثمّ أدبر يسعى، فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى". وقد علّق عليها "سيد قطب" بقوله: "يسارع السياق هنا إلى عرض قولة الطاغية الكافرة، مجملاً مشاهد سعيه وحشره للسحرة وتفصيلاتها"[1] لكن "قطب" لم يعلل هذه المسارعة في السياق عند تلك الآيات بالذات. ويبدو لي أن هذه العبارات القصيرة السريعة كانت وكأنها تحريك سريع للمشهد القصد منه السخرية من حاكم متعجرف غبي. فالقرآن هنا أراد أن يزيل عن هذا الحاكم الجبار أي وقار، فحركه كما تُحرّك الدمى. ولاحظْ كيف طالت الآيات نسبياً قبل هذا المشهد السريع وبعده. فآية مثل: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، تتكون من أربع كلمات. وآية: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ تتكون من خمس

---

(1) سيد قطب: **في ظلال القرآن**، مج6، ص3815.

كلمات. في حين تتكون آيات المشهد الساخر - إن صحّ التعبير- من كلمتين لكل منها.

وقد تضافرت الحركة والصوت في رسم ذلك المشهد الساخر السريع، فتمثلت الحركة بالأفعال: أدبر، يسعى، حشر. أمّا الصوت فقد تمثّل بـ كذّب، عصى، نادى إذ إنها أفعال يعبّر عنها بالصوت والكلام، ويلحظ أن هناك توازنا بين الصوت والحركة من حيث عدد الأفعال، فليس إيقاع الحركة هو السريع وحسب، بل إيقاع الصوت كذلك. وهذا من شأنه أن يجعل المشهد أكثر سخرية.

وهنالك مشهد آخر لم يلجأ فيه إلى أية صورة بلاغية، ولكنه كان بليغاً في إيقاعاته، واختيار ألفاظه، ودقته في تصوير موقف الكافرين من المؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۝ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝﴾(المطففين: 29-36). الفعل كانوا في مستهل الآيات كانت له وظيفة كوظيفة الأرشيف السينمائي، حيث يُؤتى بمشهد قديم يُعرض أمام الناس للتدليل على واقعة قد حدثت، فيعرفون حيثياتها ويقتنعون بحدوثها، ويكوّنون الانطباعات، ويتخذون المواقف بناء عليها. فيوضع الشريط، ويبدأ بصورة لكفار مجتمعين يتبادلون النكت والنوادر عن المؤمنين المستضعفين، ويتسابقون في أيهم الأكثر إضحاكا للآخرين بما في جعبته من نوادر يسخر فيها من أولئك النفر الأبرياء. ويزيد ضحكهم واستهزاؤهم عندما يمرّ بهم جماعة من المؤمنين أنفسهم الذين كانوا يتندرون عليهم. ولا يقفون عند هذا الحدّ، بل ينقلون هذا الجو الساخر إلى بيوتهم، فيعيدون إلقاء كل تلك النوادر عن طائفة المؤمنين على نسائهم وأولادهم وخدمهم، كي يشاركوهم السخرية منهم، تنفيساً عن أحقادهم، ومواساة داخلية لأنفسهم التي ضعفت وجبنت عن مواجهة الحقيقة الناصعة المتمثلة بالإسلام العادل المنصف القويم المنطقي، بل ركنوا إلى أوهامهم وجهلهم، وإلى ما وجدوا عليه آباءهم من انحطاط فكري وسلوكي، وأعرضوا عن دعوة الحق والمنطق والعقل. فلذلك عندما تواجههم لحظة تفكّر قد تسللت عبر ذلك الظلام الدامس في نفوسهم، فإنهم سرعان ما يصدّونها ويردونها بقولهم: إن هؤلاء لضالون.

هذا المشهد الدنيوي، حيث كانت الغلبة في وقت ما للكافرين، وكان المؤمنون فيه مستضعفين، لكنهم ثابتون على مبادئهم ودينهم القيّم. وهو مشهد كما يقول "سيد قطب" منتزع من واقع البيئة في مكة، ولكنه متكرر في أجيال ومواطن شتى، مما يدل على طبيعة المجرمين المتشابهة في جميع البيئات والعصور[1]. هذا المشهد الدنيوي يقابله مشهد أخروي يمثله قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾. فبعد عرض ذلك الشريط الذي صُوّر في الدنيا، وشوهدت من خلاله سخرية الكافرين من المؤمنين واحتقارهم إياهم، انتهى المشهد وقد ملئت القلوب غيظاً على أولئك الكافرين المجرمين الجاحدين المستهزئين. وملئت في الوقت نفسه أسفاً وحزنا على أولئك النفر من المؤمنين المستضعفين ورحمة لهم. وعندها تكون القلوب متعطشة لرؤيتهم وقد أُنصفوا ورُدّ لهم اعتبارهم. فيُعرض الشريط الأخروي المتضمّن لمشهد المؤمنين وهم يضحكون من الكافرين، ويُفهم ضمنا سبب هذا الضحك منهم حيث هم في النار يُهانون، ويساقون، ويسحبون على وجوههم، ويأكلون الزقوم، ويشربون الصديد، وتضربهم الملائكة بمقامع الحديد. ينظر المؤمنون إلى كل ذلك فيُشفى غليلهم، ويدركون أن الله سبحانه قد انتقم لهم من أولئك المستهزئين أتم الانتقام وأشدّه.

وينتهي المشهد، ويقول العارض للمشهدين الأول والثاني: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، من باب الاستفهام التقريري. وغرضه تأكيد انتقام الله من أولئك الكفار المستهزئين، ورد الاعتبار إلى عباده المؤمنين.

والمشهد لعبت فيه الحركة دوراً لافتاً معبّرة عن نوازع الكفّار النفسية المتمثلة بالحقد على المؤمنين والاستخفاف بهم، واستشعار الكِبر والأنفة والفوقية عليهم. والحركة في ذلك المشهد أكثر ما تمثلت في حركات ميدانها الوجه: "يضحكون، يتغامزون، فكهين"، حيث جُعل الوجه هو أداة التعبير عن نوازع أولئك المستهزئين. وما دام الوجه هو السطح للإنسان، عليه تطفو المشاعر الداخلية المختلفة، سلبية كانت أم إيجابية، فقد استخدمه القرآن كثيرا في تعبيره وبالخصوص في "جزء عمّ" للدلالة على النوازع الداخلية، وتقريبها إلى الذهن.

---

[1] سيد قطب: **في ظلال القرآن**، مج6، ص3861.

ومّا يسترعي الانتباه في ذلك السياق أيضاً هو استعمال لفظة "انقلبوا" مكررة مرتين. و"انقلب" على وزن "انفعل" من أفعال المطاوعة، تستدعي وجود مؤثّر ومحرّك لإحداثها. والمقصود أنهم لم ينقلبوا إلاّ وقد كان هنالك ما قلبهم. وقد يكون هذا شخصا أو ظرفا، نحو جوع أو قضاء حاجة. وفي ذلك دلالة على حبهم للبقاء في اجتماعهم المستهزئ ذلك، وحرصهم على ممارسة ذلك الاستهزاء بدون توقف، لولا وجود ظرف قلبهم إلى أهلهم فانقلبوا.

ونلحظ أن القرآن أطال في عرض المشهد السابق، وهذه الإطالة يعللها "سيد قطب" تعليلا جميلاً حين يقول: "نجد أن هذه الإطالة من الناحية التأثيرية فن عال في الأداء التعبيري، كما أنه فن عال في العلاج الشعوري، فقد كانت القلة المسلمة في مكة تلاقي من عنت المشركين وأذاهم ما يفعل في النفس البشرية بعنف وعمق، وكان ربهم لا يتركهم بلا عون من تثبيته وتسريته وتأسيته.. وهذا التصوير المفصل لمواجعهم من أذى المشركين، فيه بلسم لقلوبهم.. فربهم هو الذي يصف هذه المواجع، فهو يراها، وهو لا يهملها"[1].

ولا يمكننا أن نتناول "المشاهد" في "جزء عمّ" ولا نتطرّق إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة فيه، وهو الجزء الذي شكّل الموضوع الأكبر، والأكثر حضوراً في الجزء. ومن مشاهد يوم القيامة الكثيرة في "جزء عمّ" ما نجده في سورة "التكوير"، حيث يقول تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ (التكوير: 1-14). يعلق "سيد قطب" على هذه السورة بقوله: "الإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة. تنطلق من عقالها. فتقلب كل شيء، وتنثر كل شيء، وتهيج الساكن وتروع الآمن، وتذهب بكل مألوف وتبدل كل معهود.."[2] وفعلاً، فهنا مشهد مخيف ليوم القيامة. ولنفترض أنّ الألفاظ في سياق هذه الآيات هي بمثابة "كاميرا" تصوّر ونحن نتابعها. تبدأ "الكاميرا" من الجزء العلوي للمشهد، أو لنقل الجزء السماوي: فنرى الشمس وقد أطفئت، وقُذف بها في الفضاء.

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج6، ص3862.

(2) السابق: ص3837.

ثمّ تتحول الكاميرا إلى النجوم وهي تتناثر وتتساقط إلى الأسفل بشكل مريع. وهذا يستدعي بالطبع أصواتاً رهيبة لا نملك إلاّ أنْ نفترضها ونتخيلها فتقشعرّ لها أبداننا. ثمّ تنتقل الكاميرا إلى الجزء السفليّ من المشهد وهو الجزء الأرضي، وأولّ ما يطالعنا الجبال وهي تُنسف وتُزاح عن أماكنها، ويُسار بها وهي خفيفة كالصوف. ثمّ تنقطع صورة الجبال لتظهر فجأة صورة العشار، وهي النوق الحبلى لعشرة شهور والتي هي على وشك الولادة والاستفادة منها، وهي ثمينة نفيسة لدى أصحابها، ولا يمكن أن يدعوها إلاّ لأمر عظيم، فتهمل وتعطّل بسبب الذعر والهلع[1]. وتنقطع الصورة لتظهر صورة جديدة وهي صورة الحيوانات البرية المفترسة بكل أنواعها وهي تحشر وتجمع في مكان واحد، وما يستدعيه ذلك من ارتفاع أصواتها وأصوات عدْوها، واحتكاك بعضها ببعض، وما يثيره من غبار وضجيج. وتقطع الصورة لتظهر بعدها مباشرة صورة البحار وهي تشتعل فيها النار بقوة، وكأنها بحار نفط لا بحار ماء، على ما يتطلبه ذلك من أصوات ودخان ورائحة وغيره مما يترافق مع اشتعال رهيب. وتنقطع الصورة، وتظهر بعدها مباشرة صورة جديدة، هي صورة النفوس وهم الناس بأجسادهم، بعد أن تمّ بعثهم من القبور، وقد اقترن كل واحد بعمله يلازمه ولا يفارقه. وتنقطع الصورة، وتظهر الصورة اللاحقة وهي لقطة من موقف الحساب العصيب الرهيب، وهذه اللقطة تمّ اختيارها بعناية لتدمج مع هذا المشهد، وهي لبنت صغيرة كان قد دفنها أبوها وهي حيّة ظلما بدون أي ذنب اقترفته، ويسألها الرب عن الذنب الذي اقترفته، ذلك السؤال الاستنكاريّ الذي لا ينتظر له إجابة، بل هو للاستنكار وإظهار فداحة هذا الجرم. وعلينا أن نفترض ذلك المجرم الوائد موجودا في المشهد ولاريب، يستعد للاقتصاص منه بعد إقامة الحجة عليه. وتنقطع الصورة، وتبرز صورة الصحف، أي كتب الأعمال التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصتها، وهي الآن تنشر وتعرض أمام الناس، وهي أشبه ما تكون بأوراق النتائج التي تعلّق للطلاب في موعد محدد ليعرفوا نتائجهم، فيفرح من يفرح، ويتحسّر من يتحسّر. وتنقطع الصورة لتظهر صورة لاحقة بدون توقّف، وهي صورة رهيبة هذه المرة، تخلع القلوب من أماكنها، وهي صورة النار التي تستعر ويزداد اشتعالها وتمتد ألسنة اللهب فيها إلى أقصى مدى، وما يشتمل عليه ذلك من صوت رهيب لها وتغيّظ وزفير وروائح. وتنقطع الصورة لتظهر صورة جديدة مغايرة تماما، صورة مريحة جميلة هذه المرة، صورة الجنة بجمالها وبهائها وروائحها الطيبة، وابتسام الملائكة فيها مرحبين، والحور وكل النعيم.

---

[1] سيد قطب: **في ظلال القرآن**، مج6، ص3838.

تنقطع الصورة لتظهر آخر صورة في هذا المشهد، وهي صورة لفئات من الناس قد تباينت مصائرهم، وقد ظهرت أمامهم أعمالهم الدنيوية جلية، فمن ساءت أعماله فهو ينظر إليها متمثلة بالنار المستعرة المزمجرة التي تستعد لالتقاطه وافتراسه، ومَن حسنت أعماله فهو ينظر إليها متمثلة بالجنة البهية الجميلة المنيرة العابقة تستعد لاستقباله وإغداقه بالنعيم.

هذا المشهد الذي أشبه ما يكون بما نسميه في أيامنا هذه 'الكليب' "clip" التصويري، وهو 'الفلم' القصير الذي يتكون من مشاهد قصيرة متتابعة بحركة سريعة وإيقاع سريع، ويكون هدفه إحداث أقصى تأثير في نفس المشاهد. وهذا ما حدث فعلا في هذا المشهد القيامي المتنوع، حيث تكوّن من مقاطع قصيرة لأحداث يوم القيامة، بعضها في السماء، وبعضها في الأرض، ظهرت متلاحقة سريعة، أحدثت في نفس مشاهدها أقصى الهلع والرهبة، مما يجعله يراجع نفسه ويحاسبها ويعدّل مسيرها في الحياة، كي لا تنوء بأسوأ مصير في ذلك اليوم الرهيب.

والمشهد القيامي الذي صوّره القرآن بهذا الأسلوب الرائع، وبأقصر العبارات، وبأسرع الإيقاع، اشتمل على كلّ عناصر الصورة من حركة ولون ورائحة، وإنْ كان ظاهر الألفاظ يقدّم الحركة حسبُ، لكن إيحاءات الألفاظ تقدّم كذلك اللون والصوت والرائحة، فعلى سبيل المثال لفظة 'سُعّرت' ألا توحي بلون اللهب الأحمر؟ وصوت طقطقة النار المتضرمة؟ وبروائح الاشتعال؟ ومثلها لفظة 'سجّرت'. وهذا إبداع قرآني يتمثّل بجعل اللفظة الواحدة موحية بكلّ عناصر الصورة بدون ذكرها.

و'جزء عمّ' مليء بمشاهد القيامة بتباين بينها، من حيث كمية الصور المحشودة، ولكنّها كلها تعتمد على المقاطع الصغيرة المتلاحقة على طريقة 'الكليب' كما ذكرنا، وقد ناسب هذا طبيعة الجزء المتمثلة بقصر الآيات والسور، والإيقاع السريع، وهو ما تواءم مع طبيعة المرحلة المبكرة للدعوة الإسلامية، إذ كان الاعتماد على الومضات الإيمانية السريعة، التي تهدف إلى جذب العقول والقلوب والأنظار والأسماع.

القسم الثاني: المستوى اللفظي "لجزء عمّ" (الوحدات السياقية)

1- التكرار اللفظي

التكرار هو: إعادة لفظ بعينه ليعطي فائدتين، إحداهما: معنوية ودلالية تعمّق المعنى الذي حملته اللفظة المكرّرة، وتظهر أثرها في السياق، أو العكس حيث أثر السياق فيها. والفائدة الأخرى: صوتية، حيث يحقق التكرار تردد أصوات معينة تساعد على تهيئة جو لغوي يعمّق المعنى ويسهم في تجسيده[1]. وهو من جهة التحليل الأسلوبي يندرج في إطار الانزياح الكمّي. ويسهم التكرار في تكوين ضرب من "الاتساق المعجمي"، بما له من بعد أسلوبي، حيث تربط الأدوات الاتساقية بين مكونات النص، وتجعل بناءه متماسكا[2].

أنواع التكرار اللفظي:

التكرار اللفظي أنواع، أشيعها: تكرار الجملة، وتكرار الكلمة، وتكرار الحرف. وهو بشتى أنواعه يحدث نوعا خاصا من الإيقاع تلتزمه العبارة، لأغراض فنية ونفسية واجتماعية ودينية. وسنتناول فيما يأتي أشهر أنواع التكرار وتطبيقاتها في "جزء عمّ": تكرار الجملة، وتكرار الكلمة، وتكرار الحرف.

أ- تكرار الجملة:

نجد تكرار الجملة متحققا في عدد من آيات "جزء عمّ"، كما هو في مستهل سورة "النبأ": ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝﴾ (النبأ: 1-5)، حيث تكررت جملة ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾مرتين في آيتين متتاليتين كما هو ملحوظ. والتكرار هنا حقّق فائدتين: الأولى معنوية؛ إذ إن الغرض من التكرار هو "التأكيد والتشديد، ومعنى "ثم": الإشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الوعيد الأول وأشد"[3]. والأمر نفسه ذكره صاحب "التحرير والتنوير" فيما يتعلق بفائدة "ثم"، فقال أن "ثمّ" هنا هي للترتيب الرتبي؛ وهو أن مدلول الجملة التي بعدها أرقى رتبة

---

(1) سناء حميد البياتي: **البناء الفني لشعر الحب العذري في العصر الأموي**، رسالة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1989م، ص17.

(2) أبو العدوس: **الأسلوبية الرؤية والتطبيق**،ص236.

(3) الرازي: **"التفسير الكبير"**، ج31، ص5.

في الغرض من مضمون الجملة التي قبلها، حيث هو أقوى من باب أن المتوعد الثاني أعظم مما يحسبون[1].

والفائدة الثانية: صوتية؛ ذلك أنّ "لحن التهديد هو القرينة على أن المتسائلين هم المشركون النافون للبعث والجزاء دون المؤمنين ودون المشركين والمؤمنين جميعا"[2].

ونلحظ هنا أن تردد الأصوات التي حققها تكرير الجملة ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ قد خلق جوا لغويا عمّق معنى التهديد والوعيد لمنكري البعث، وجسّده أحسن تجسيد. وشبيه هاتين الآيتين نجده في سورة "التكاثر" للغرض نفسه، مع فارق أن الآية هنا استعملت فيها "السين" للتسويف، في حين استعملت "سوف" في آيتي سورة "التكاثر". وتكرير ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾له فائدة معنوية إلى جانب أنه تأكيد على الوعيد والتهديد، تتمثل في تجسيده لمعنى التدرج في العقوبة، وإظهارها. "فعند المعاينة يزداد، ثم عند البعث، ثمّ عند الحساب، ثمّ عند دخول النار"[3]. أو أن التكرير أريد منه الفصل بين عذاب القبر وعذاب النار، حيث فصل بالحرف "ثمّ" لبعد ما بينهما[4]، ويبدو لي أن استعمال "السين" و"سوف" في الموضعين القرآنيين المذكورين، قد جاء تبعاً لطبيعة الموضوع؛ فالسين وهي للتسويف القريب، ربما ناسبت سرعة تحقق النبأ وهو البعث نسبياً، إذ سيتحقق للإنسان بمجرد موته، فهو لن يشعر بالأحقاب الطويلة التي ستمر عليه وهو ميّت، وكأنه لبث يوماً أو بعض يوم. وربما ناسبت "سوف" التحقق من نتيجة التكاثر الدنيوي الخاسر بالنظر إلى التكاثر الأخروي الرابح، فالإنسان الكافر لن يتحقق من هذا بمجرد بعثه، بل إنه سيبقى خمسين ألف سنة، هي مدة حشره، إلى أن يتحدد مصيره، فيعرف حينئذ خسارة التكاثر الدنيوي الذي كان يلهث وراءه، وإذا به وهمٌ وباطل.

ونجد تكرار الجملة كذلك في سورة "الانشقاق": ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝﴾ (الانشقاق: 1-5)، حيث تكررت جملة ﴿ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴾مرتين في آيتين منفصلتين، جاءت الأولى متعلقة بالسماء، والثانية متعلقة بالأرض. والفائدة المعنوية لهذا التكرار هي تبيان أنّ كلّاً من

---

[1] ابن عاشور: "التحرير والتنوير"، مج15، ص12.

[2] الطباطبائي: الميزان، مج20، ص160.

[3] الرازي: "التفسير الكبير"، ج32، ص78.

[4] السابق.

السماء والأرض مخلوقتان لله مطيعتان. "فالسماء محقوقة بأن تأذن لربها لأنها لا تخرج عن سلطان قدرته وإن عظم سمكها، و اشتد خلقها، وطال زمان رتقها، فما ذلك كله إلا من تقدير الله لها، فهو الذي إذا شاء أزالها"[1]. والأرض كذلك.

أما الفائدة الصوتية لهذا التكرار، فهي متمثلة بالترديد الصوتي لآية ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾، ما أشاع جواً صوتيا معبرا عن الانقياد والخضوع لأمر الله. ولنا أن نلاحظ هنا التاء الساكنة في كل من "أذنت" و"حقت" في كلتا الآيتين المتكررتين، وما حققه هذا التسكين الصوتي من تجسيد لتسكين معنوي يمثله الاستسلام والخضوع للأمر الإلهي.

وسورة "الشرح" تتضمن تكرار الجملة في آيتيها المتتاليتين: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ (الشرح: 5-6)، حيث إن التأكيد والتثبيت هما الفائدة المعنوية لهذا التكرار. أو قد يكون الاستئناف من باب "أنّ في الآيتين دلالة على أن مع العسر الواحد يسرين، بناء على أن المعرفة إذا أعيدت ثانية في الكلام كان المراد بها عين الأولى بخلاف النكرة"[2].

وتجدر الإشارة إلى أنّ التنوين في كلمة "يسراً" للتنويع، لا للتفخيم كما ذكره بعضهم، والمعية معية التوالي دون المعية بمعنى التحقق في زمن واحد[3]. بالمجمل فإنّ الفائدة المعنوية لهذا التكرار هي التأكيد الذي هدفه: "تحقيق اطراد هذا الوعد وتعميمه لأنه خبر عجيب"[4].

أما الفائدة الصوتية لهذا التكرار فهي تتمثل بتضافر حرف "الراء" في الآيتين، وهو حرف يوصف في علم التجويد بأنه حرف تكرير، وتكراره أربع مرات في الآيتين في لفظتي "العسر، يسراً" أوحى بتكرار هذين الفعلين في حياة الإنسان. غير أنّ لحوق تنوين الفتح بحرف "الراء" في "يسراً"، وهو التنوين الذي يتحول إلى ألف الإطلاق عند الوقف، أعطى- كما يبدو لي- لصفة التكرير في صوت الراء تحققا أكبر، ووضوحا أشد منه في لفظة "العسر" التي خفّفت حركة الكسرة تحت "الراء" فيها من حدّة التكرير.

---

(1) ابن عاشور: "التحرير والتنوير"، مج15، ص219.

(2) الطباطبائي: مج20، ص316.

(3) السابق.

(4) ابن عاشور: "التحرير والتنوير"، مج15، ص415.

ومن أمثلة تكرار الجملة أيضا ما نلحظه في سورة 'الزلزلة' وهو قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ (الزلزلة: 7-8)، فقد تكررت جملة ﴿مَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وأرى أن تكرار ﴿مَن يَعْمَلْ﴾ بالتحديد هو للفصل بين عمل الخير وعمل الشر، فلم يجمعهما في فعل واحد، فلم يقل: ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومثقال ذرة شرا يره. وهو كذلك تأكيد على أهمية العمل مقرونا بالاعتقاد، وهو ما ذهب إليه كذلك ابن عاشور في 'التحرير والتنوير'[1]. وروي أن هاتين الآيتين أحكم آيتين في القرآن[2]. لما فيهما من الوضوح في الدلالة التي حققها التكرار.

ب- تكرار الكلمة

ومثال عليه في 'جزء عمّ' ما نجده في سورة 'المطففين': ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝﴾ (المطففين: 7-8). وكذلك: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝﴾ (المطففين: 18-19). فقد تكررت كل من لفظتي 'سجين' و'عليين' مرتين، ومن معاني 'سجين' أنها 'علَم لواد في جهنّم'[3]. و'عليين' هو 'علَم على مكان الأبرار في الجنة'[4]. أمّا فائدة التكرار المعنوية للفظة 'سجين' فهي تهويل لأمر السجّين[5]، وخصوصا أنه سبقها الاستفهام بـ 'ما أدراك'، والأمر ذاته في تكرار لفظة 'عليين'. أمّا الفائدة الصوتية فهي متمثلة في النبر القوي المنبعث من التشديد في كل من 'سجّين' و'عليّين'، إذ يؤدي دوره بوصفه صوتاً تهويلياً إنذارياً في 'سجّين'، وبوصفه صوتاً ترغيبياً حثّياً في 'عليّين'.

ونلحظ تكرار كلمة 'الذي' في سورة 'الأعلى' في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝﴾ (الأعلى: 1-4)، حيث

---

(1) ابن عاشور: 'التحرير والتنوير' مج15، ص495.

(2) السابق.

(3) السابق: ص195.

(4) السابق: ص203.

(5) السابق: ص195.

تكررت ثلاث مرات، ولم يكتف بعطف الأفعال بعضهاعلى بعض. وتتمثل الفائدة المعنوية لهذا التكرار - فيما أرى - بأوجه عدة: فهو من جهة تأكيد على عظمة الخالق و حضوره القوي في كل نعمة من تلك النعم المذكورة في الآيات. ومن جهة أخرى هو فصل للنعم بعضها عن بعض فصلا زمانيا، حيث الهداية تتلو الخلق، وإخراج المرعى يتلو الهداية، وهكذا. وفصلها فصلا رتبياً، إذ إنّ كل نعمة لها رتبتها وأهميتها وخصائصها، فاستهلها بـ 'الذي' وكأنه بدأ بها. ومن ناحية صوتية فقد حقق هذا التكرار جوا لغويا لافتا مثيرا للتأمل في عظمة الخالق، ونعمه المتعددة، وعنايته بمخلوقاته في كل مراحلها.

وفي سورة 'الفجر' يطالعنا تكرار لفظة 'دكاً' مرتين في الآية 21: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾. والتكرار هنا معناه: 'دكا بعد دك، كقولك حسبته باباً باباً، وعلمته حرفاً حرفاً، اي كرّر عليها الدك حتى صارت هباء منثورا'[1]. ومن الناحية الصوتية أوحى صوت 'الألف' الذي مر معنا سابقا باستمرار الدكّ، وهو ما وافق المعنى الحقيقي الذي ذكره 'الفخر الرازي' تماما، وقوّته نبرة الشدّة في وسط الكلمة.

وفي السورة ذاتها تكرار لفظة 'صفاً' مرتين كذلك في الآية 22: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾، حيث أفاد التكرار هنا التقسيم والترتيب، ذلك 'أنه تنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والإنس'[2]. والفائدة الصوتية حققتها الشدّة، وصوت المتمثل بألف الإطلاق وحرف الصاد الذي هو من أصوات الصفير، وهو كذلك صوت مفخّم[3]. فجسدت نبرة الشدّة القطع والفصل بين كل صف وصف، وصوت العلة المستمر عكس استمرار الترتيب بلا خلل، في حين عكست الخاصية التفخيمية لصوت الصاد فخامة الموقف، و أفاد الصفير فيه لفت الانتباه إلى هذا الموقف العظيم.

وفي سورة 'التكوير' يلفت الانتباه تكرار الكلمة 'إذا' وهي ظرف لما يستقبل من الزمان يستدعي متعلقا، وهي كذلك شرط يؤذن بذكر جواب بعده[4]. وقد تكرّرت في السورة عشر مرات

---

(1) الرازي: 'التفسير الكبير'، ج31، ص173.

(2) السابق: ص174.

(3) مناف مهدي: علم الأصوات اللغوية، ص69.

(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير،مج15، ص140.

على النحو الآتي: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾ (التكوير: 1-14).

وتكرارها بهذا النحو هو من قبيل الإطناب الذي يقصد التهويل، وهذا التكرار يشير إلى أن مضمون كل جملة من الجمل الاثنتي عشرة التي أضيفت إليها 'إذا' هو 'مضمون مستقل بحصول جملة الجواب عند حصوله بقطع النظر عن تفاوت زمان حصول الشروط، فإن زمن سؤال الموؤودة ونشر الصحف أقرب لعلم النفوس بما أحضرت أقرب من زمان تكوير الشمس و ما عطفت عليه مما يحصل قبل البعث'[1]. والابتداء بـ 'إذا' في كل الآيات المذكورة أدخل في التهويل والتشويق، وأكثر تقوية للمعنى وتأكيده رداً على إنكار منكريه، فلذلك قال: 'إذا الشمس كورت'، ولم يقل: إذا كورت الشمس[2].

وهذا التكرار الكثير للكلمة 'إذا' أدى فائدة صوتية هي لفت الانتباه إلى كل تلك الظواهر المتعلقة بقيام القيامة، وأن كل واحد منها يكفي أن يكون إنذارا قائما بذاته أحرى أن يخاف منه السامع ويحذر، وخصوصا إذا ما عرفنا أن الحرف 'إذا' فيها صوت 'الهمزة'، وهو صوت حنجري شديد 'انفجاري' متبوع بصوت مغاير هو صوت الألف، الأمر الذي يوضحها أكثر، ويجعلها أكثر قوة في خدمة المعنى المراد.

وتكرار الكلمة كثير في 'جزء عم' اكتفينا منه بما مرّ من شواهد، بينت التكرار وفائدتيه المعنوية والصوتية، ولعل فيها الكفاية في إضاءة الموضوع.

3- تكرار الحرف:

وهو كذلك كثير جدا في 'جزء عم'، بل يكاد يكون من سمات الجزء. ومثال عليه ما نلحظه من تكرار الحرف 'ثم' في سورة 'عبس'. ولنا أن نتأمل الآيات الآتية ليتضح لنا ذلك جليا:

---

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير،مج15، ص140.

(2) السابق: ص146.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾ (عبس: 17-22). فقد تكررت "ثمّ" ثلاث مرات في ثلاث آيات متتاليات، مما أضفى على تلك الآيات جوا صوتيا مميزا جسّد أكثر من معنى في آن معاً. فهو إلى جانب إفادته العطف المتراخي، وهي وظيفة هذا الحرف الأساسية، فقد أعطى كذلك معنى السيطرة والهيمنة الإلهية على مخلوقه، بناء على ما تتضمنه "ثمّ" من نبرة الشدّة القوية. والميم المشددة كما هو معلوم في علم التجويد حرف غنة مشدّد يُمدّ بمقدار حركتين مع الغنّة، والشدّة مع المدّ حققت هذه النغمة المهيمنة[1].

أساليب التكرار اللفظي:

وتجدر الإشارة في موضوع التكرار اللفظي في "جزء عمّ" إلى أنواع أخرى منه، يسهم ذكرها وإيراد الشواهد عليها في تجلية أسلوبية الجزء، وتحديد معالم التعبير فيه. والأنواع التي سنتناولها هي: الترديد، المجاورة، وأخيرا تكرار القالب الصوتي. وسنتناول كل نوع بشيء من التفصيل، ونسوق عليه الشواهد التي توضحه في "جزء عمّ".

أ- الترديد:

هو: "أن يعلّق المتكلم لفظة من الكلام، بمعنى أن يرددها بعينها ويعلّقها بمعنى آخر"[2]. وأطلق عليه ابن منقذ اسم "التصدير". وهو يدخل ضمن "رد الأعجاز على الصدور". غير أن التصدير مخصوص بالقوافي ترد على الصدور. والترديد يقع في أضعاف البيت[3].

وقد انتبه المحدثون إلى الأثر الدلالي للترديد. يقول "محمد عبد المطلب": "ويكاد الترديد يأخذ طابعا مميزا في قدرته على ترتيب الدلالة، والنمو بها تدريجيا، في نسق أسلوبي يعتمد على التكرار اللفظي"[4]. وأشار "إبراهيم سلامة" إلى ما يقدمه هذا النوع من التكرار من دلالة وجمال وإثراء في

---

(1) حول استخدام حروف العطف في القرآن يمكن الرجوع إلى: عبدالفتاح لاشين: **التعبير في القرآن: حروف القرآن**، شركة مكتبات عكاظ، الرياض، 1983، ص68-92.

(2) ابن أبي الأصبع: **تحرير حرير التحبير**، ج2، ص253.

(3) عبدالله بن المعتز: **البديع في نقد الشعر**، نشره أغناطيوس كراتشوفكسي، أعادت طبعه مكتبة المثنى، بغداد، ط2، 1979م، ص47.

(4) محمد عبد المطلب: **البلاغة والأسلوبية**، ص224.

الكلام العربي، حين قال إنّ "رد الأعجاز على الصدور" نابع من ذوق العربي في الشعر، وحسنه يرجع إلى ما فيه من زيادة المعنى المرتكز على الإيحاء النابع من اللفظ الأول بتوقع الثاني، وهذا الإيحاء يذكر به عند الإنشاد، فهو رابط من روابط التذكّر، كما أنه -أي الترديد – يسهم في الإيقاع الموسيقي للكلام[1].

ومن الترديد في "جزء عمّ" ما نلحظه في سورة "الطارق"، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾(الطارق: 15-16)، حيث الترديد بين "يكيدون" و"أكيد". وأضفى هذا النسق الأسلوبي التكراري جمالا على المعنى، وتدرجا لتعميق معنى الإمهال والإرصاد الإلهي لهؤلاء الكفار.

ومن الترديد ما نلحظه في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾(البلد: 1-2). فالترديد بين "بلد" الأولى والثانية. وربما كان الغرض منه الإلفات إلى عظم قدر هذا البلد وهو مكة.

ونلحظ الترديد كذلك في سورة "الكافرون": ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ (الكافرون: 1-6). فنجد تكرار كلمة "أعبد" في ثلاثة مواضع، وكل كلمة منها هيأت للأخرى على سبيل الترديد. والغرض منه كما يظهر لي هو التأكيد على العبودية لله وحده، وعلى الفرق الكبير بين ما يعبده الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وما يعبده المشركون.

ب- المجاورة:

قال العسكري: "هي تردّد لفظين في البيت، ووقوع كلّ واحدة منهما بجنب الأخرى، أو قريبا منها، من غير أن تكون إحداهما لغوا لا يحتاج إليها"[2].

---

(1) إبراهيم سلامة: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مصر، ط2، 1952م، ص122.

(2) العسكري: الصناعتين في الكتابة والشعر، ص413.

ومثال عليه في "جزء عمّ": ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝﴾ (الطارق: 5-7). ولك أن تتأمل تجاور ﴿خُلِقَ﴾ في ختام الآية 5 مع ﴿خُلِقَ﴾ في مستهل الآية 6، حيث جاء تجاوراً منسجماً ليس فيه أي لغو، بل على العكس فقد أضفى جمالاً وإيقاعا. وأعطى فرصة التأمل والتفكر لدى السامع في خلق الإنسان. فلو أن التعبير كان: فلينظر الإنسان أنه خلق من ماء دافق. لما أثار التأمل والتفكّر والتوقف مع النفس بالدرجة التي يثيرها التعبير المتحقق في الآيتين الكريمتين.

والأمر نفسه نجده في سورة "المطففين" في الآية رقم 31: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، حيث جاء تجاور"انقلبوا" الأولى مع الثانية بشكل منسجم بدون ركاكة أو حشو. وانطوى التعبير على معنى دقيق، لعلّي أحرزتُه بعد تأمل، وهو أنّ انقلاب هؤلاء الكفار واختلافهم إلى بيوتهم وأهاليهم قليل، بدليل استعمال "إذا"، ويبدو لي أنها والفعل "انقلبوا" شكلتا أسلوب سخرية منهم. ونحن نستعمل ذلك في حياتنا اليومية، فمثلا نقول ساخرين من إنسان كثير النوم: هذا الرجل إذا استيقظ يستيقظ ناعساً! فهؤلاء الكفار بطّالون، ليس عندهم القدر الكبير من تحمل المسؤولية، وإنما همّهم اللهو والتلذذ خارج البيت، والاستهزاء بالآخرين. وليس بمستغرب من مثل هؤلاء أن يعادوا الإسلام ويعارضوه ويرفضوه، وهو دين الالتزام والمسؤولية والعمل. ونجد المجاورة كذلك في سورة "العلق": ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝﴾ (العلق:15-16).

وأمثلة التكرار بشتّى أنواعه كثيرة في "جزء عمّ"، وهي مزيّة من مزايا هذا الجزء، تضاف إلى ما ذكرناه في التمهيد، ولو أردنا إحصاء ومناقشة كل أمثلة التكرار فيه لاحتاج الأمر إلى أضعاف هذه الصفحات التي خصصناها لهذا الموضوع، وهذا ما لا تسمح به طبيعة هذه الدراسة ومنهجها، من حيث شمولها وعدم قصرها على موضوع التكرار وحده[1].

---

[1] للمزيد من شواهد التكرار المتعددة في جزء عم، انظر: سورة "النبأ"، الآيات 6-13. و سورة "النازعات" في كل آياتها. سورة "البروج": الآيات 10-13، سورة "الفجر"، الآيات 23-25، سورة "العلق"، الآيات 9-13، سورة "البيّنة" في كل آياتها، وللمزيد حول أغراض التكرار انظر: محمود السيد شيخون: **أسرار التكرار في لغة القرآن**، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1983، ص52-64.

2- التقابل والتماثل:

إنّ الملمح الإشاري للغة له ذلك الأثر الكبير في تكوين الدلالة، ذلك التكوين المؤدي إلى بلورة صورة للخطاب الأدبي تساعد على فهمه بطريقة جمالية تترك تأثيرها على المتلقي، بقدر ما انفعل معها المبدع ذاته. ورصد الدلالة وإنتاجها يعتمد على رصد وحدات تعبيرية، كذلك رصد شبكة العلاقات التي تربط بين تلك الوحدات، وبلورة ذلك كلّه في بوتقة واحدة تعود إلى السطح أولا، ثمّ تمتد إلى الذهن ثانية[1].

أولا: التقابل، وهو قسمان: أ. التقابل المعجميّ المفرد: وهو ما سمّاه أحمد أبو زيد: "التقابل البسيط"[2]. وهو أن تقابل كلمةٌ كلمةً أخرى، ضمن سياق تقعان فيه، عماده التقابل الكاشف عن الدلالة التي استدعت إيراده[3]. ويبدو لي أنه الطباق نفسه.

ونلحظه في "جزء عمّ" في سورة "النبأ": ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ (النبأ: 10-11). وفيه دلالة على قدرة الله تعالى على الخلق المتباين. وفي سورة "النبأ" نفسها: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾(النبأ: 24-25). والتقابل هنا بين "برداً وحميماً" واضح، والهدف منه جليّ في تعميق الخسارة الكبيرة التي مُني بها الكفار في مصيرهم الأخروي، وكان متاحا لهم أن يحصلوا على ذلك الشراب البارد لو أنهم أطاعوا الله واتبعوا آياته. فلو كانت الآية على نحو: يذوقون فيها حميما وغساقا. ولم تشتمل على ذكر البرد والشراب من باب التقابل، لما تعمّق معنى خسارة الكافرين بالمستوى الذي أحدثه التقابل.

وفي سورة "عبس" نجد التقابل المعجمي المفرد في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ (عبس: 38-41). ونلحظ المقابلة الواقعة بين كل من "مسفرة" و"عليها غبرة" من جهة، و"ضاحكة" و"ترهقها قترة" من جهة أخرى. حيث هي مقابلة بين حال المؤمنين وحال الكافرين يوم القيامة. والمقابلة في شقها الأول ركّزت على الجانب المادي، حيث إشراق وجوه المؤمنين وبياضها وصفاؤها، في مقابل اغبرار وجوه

---

(1) محمد عبدالمطلب: بناء الأسلوب في شعر الحداثة: التكوين البديعي، 1988، د.ن.

(2) أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن، ص137.

(3) عهود عبدالواحد: السور المدنية، ص106.

الكافرين وعدم صفائها. أما المقابلة في شقها الثاني فقد ركزت على الجانب المعنوي، حيث عزة المؤمنين واستبشارهم وفرحهم ، في مقابل ذلة الكافرين وحسرتهم وحزنهم، التي عُبّر عنها بالقترة.

وفي سورة "التكوير" نجد التقابل المفرد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝﴾ (التكوير: 12-13)، حيث تقابل كلمةُ "الجحيم" كلمة "الجنة" ضمن مجموعة من مظاهر يوم القيامة، فالجحيم تُسعّر بعد أن تُقرّب من الكافرين، بدليل قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾. وكذلك الجنة تُقرّب من المؤمنين، إما القرب المكاني أو القرب الزماني، بمعنى أنّ مدة حساب المؤمن تكون قصيرة جدا، فهو قريب من الجنة وهي قريبة إليه، بعكس الكافر الذي يكون مقدار يوم الحساب عليه خمسين ألف سنة، كما صرّح القرآن بذلك، لكن بالرغم من ذلك فإنّ أمامه جحيما مسعّرة يعذّب بها نفسيا، قبل أن يدخلها ليعذب بدنياً.

ومن التقابل المفرد "الطباق" هو متضمن في سورة "الشرح" في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾(الشرح: 1-6)، حيث التقابل جليّ بين "وضعنا" و"رفعنا"، فهو يسوق دلالة رائعة، مفادها أنّ الوضع والرفع بيد الله تعالى، فحيثما يكون الوضع نعمة، نحو وضع الوزر، ووضع الهمّ، فالله يضع. وحيثما يكون الرفع هو النعمة، كرفع الذكر، ورفع القيمة، فالله هو الرافع سبحانه. فالتقابل عزّز هذا المعنى بطريقة جميلة. وهناك تقابل آخر في السورة، بين "العسر" و"يسراً"، وهو تقابل دلالته بثّ روح التفاؤل والأمل لدى المؤمن، إذ لا بد أن يتلو أيّ عسر يسرٌ، وهذا من شأنه ألا يجعل اليأس يتسلل إلى قلوب الفئة المؤمنة.

ب- التقابل المعجمي المركّب:

وهو تقابل الجمل، وقد يشتمل على جمل متعددة. ونجده في سورة "النازعات" في الآيات الآتية: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ (النازعات: 37-41). وفي هذه الآيات تقابلت صفات فئتين متناقضتين: فئة المتقين، وفئة الكافرين على النحو الآتي:

الكافر	المؤمن
طغى.	خاف مقام ربه.
آثر الحياة الدنيا.	نهى النفس عن الهوى.
الجحيم هي المأوى.	الجنة هي المأوى.

وهذا التقابل المركّب تدرّج من المرحلة الأولى، وهي للكافر "الطغيان"، وللمؤمن "الخوف من مقام الله"، إلى المرحلة الثانية، وهي نتيجة للأولى، فنجدها إيثار الدنيا ونسيان الآخرة" للكافر، وهي للمؤمن "نهي النفس عن الهوى". ثمّ تأتي المرحلة الثالثة وهي المصير الأخروي، فنجده "الجحيم" للكافر، و"الجنة" للمؤمن. وهذا التدرّج في التقابل فيه ما فيه من تحذير للإنسان أن لا يتمادى في مراحل المخالفة لله، حتى لا يلقى ذلك المصير السيىء، وكذلك فيه ما فيه من التشجيع للإنسان أن يتدرّج في مراحل الطاعة الإلهية، حتى يكون مصيره الأخروي حسناً.

وسورة "المطففين" تتضمّن تقابلا مركّباً جلياً في الآيات الآتية: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ (المطففين: 7-28). وهذا التقابل شأنه شأن التقابل في المثال الأول، فهو يبيّن صفات متقابلة لحال الأبرار وحال الفجّار في الآخرة، على النحو الآتي:

الأبرار	الفجّار
كتابهم في عليين.	كتابهم في سجّين.
يشهد كتابهم المقربون.	لا يشهد كتابهم المقربون.
لم يكذبوا بيوم الدين.	كانوا يكذبون بيوم الدين.
"إن الأبرار لفي نعيم"	"إنهم لصالوا الجحيم"
"على الأرائك ينظرون"	"إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون"
في وجوههم نضرة النعيم	يلامون ويقال "هذا الذي كنتم به تكذبون"

ولا يخفى كم أسهم هذا التقابل في تعميق وتجلية صفات كل فئة في مقابل صفات الفئة الأخرى، من باب أن الإنسان لا يستشعر قيمة النهار إلا إذا خرج من ظلام دامس قد خبره، ولا يعرف قيمة الصحة إلا إذا خرج من مرض أرهقه، فالضدّ يظهر حسنَه الضدُّ.

وتجدر الإشارة إلى أن أكثر التقابل، بل معظمه، في "جزء عمّ"، تناول هذه القضية بالذات؛ أي مصير كل من المؤمنين والكافرين في الآخرة، وليس هذا بمستغرب على جزء قرآني كان أظهر موضوعاته هو القيامة والحساب والجزاء، كما قد تبين لنا في المستوى الدلالي من هذه الدراسة[1].

ثانيا: التماثل.

هي ظاهرة تتصل بالتقابل، إذ إنها تؤول إلى المشابهة ظاهرياً، لكن عنصر المفارقة فيها سرعان ما يبين عند التأمل فيها، بحيث تتراكم الدوالّ ملازمة لمدلولاتها تارة، ومنحرفة عنها تارة أخرى[2]. وتناول القدماء مثل هذه الظاهرة تحت اسم "المشاكلة والعكس"، لكنهم لم يتجاوزوا الشكل فيها، حيث إنّ المشاكلة عند "الفرّاء" و"السكّاكي" هي: "أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته على التحقيق أو التقدير"[3]. وعرفّها "التبريزي" بقوله: "المشاكلة أن يجمع الشاعر في البيت كلمتين

---

(1) للمزيد عن المقابلة في القرآن انظر: انظر: بن عيسى باطاهر: **المقابلة في القرآن الكريم**، دار عمار، عمّان، 2000م، وللاطلاع على شواهد أخرى في جزء عم انظر: سورة "الغاشية" الآيات 1-16، وسور "الفجر" الآيتين 15-16. والليل، الآيات 5-10، "البيّنة" الآيات 6-8، "الزلزلة" 7-8، والقارعة 6-11.

(2) محمد عبدالمطلب: **بناء الأسلوب في شعر الحداثة**، ص323.

(3) السكاكي: **مفتاح العلوم**، ص200.

متجاورتين، أو غير متجاورتين، شكلهما واحد، ومعناهما مختلفان[1].

وللمشاكلة أو التماثل أهمية التفت إليها المحدثون أيضاً. يقول "محمّد عبدالمطلب": إنّ الألفاظ المشاكلة تكتسب من المجاورة تمازجاً في الدلالة، يخرجها عن النمط المألوف، ويعدل بها عن دلالة المطابقة إلى الناحية الإبداعية، وهذا التمازج لا يتمثّل بالتكرار المجسّم في العبارة، بل إنه يتحقق ذهنياً من خلال تقدير المجاورة للدلالة، وما يستتبع ذلك من تمازجها[2].

ونأتي إلى التماثل في "جزء عمّ" للوقوف على جماليته، والغايتين الأسلوبية والمعنوية منه، فنلحظه في سورة "الطارق" في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝﴾ (الطارق: 15-16). وقد علّق "الفخر الرازي" على هذه الآية بقوله: "اعلم أن الكيد في حقّ الله تعالى محمول على وجوه: "أحدها" دفعه تعالى كيد الكفرة عن محمد عليه الصلاة والسلام، ويقابل ذلك الكيد بنصرته وإعلاء دينه، تسمية لأحد المتقابلين باسم مقابله، كقوله تعالى "وجزاء سيئة سيئة مثلها"[3].

ومن التماثل أيضا ما نجده في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾ (الليل: 5-10)، حيث روى "الفخر الرازي" في تفسيره عن "القفّال" معلقا على آية ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ التي قابلت آية ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وشاكلتها، قوله: إنّ تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور قال تعالى: "وجزاء سيئة سيئة مثلها" وقال: "فبشرهم بعذاب أليم"، ولما سمّى الله فعل الألطاف الداعية إلى الطاعات تيسيراً لليسرى، سمّى ترك هذه الألطاف تيسيراً للعسرى[4].

ويتضح من كلام القفّال السابق معنى المشاكلة والتماثل بين "نيسّره" التي اقترنت باليسرى، وهي منسجمة وطبيعية، وبين "نيسّره" المقترنة بالعسرى، والتي سوّغها التماثل مع ما سبقها. والتماثل أو المشاكلة هنا – فيما أرى – تنطوي على سخرية بأصحاب العسرى، وهم الكفار، وإهانة لهم، كقولنا للإنسان السيئ من باب السخرية: يامحترم! وهذا شائع جداً. وفي قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾

---

(1) الخطيب التبريزي: **الوافي في العروض والقوافي**، تح: فخر الدين قباوة وعمر يحيى، دمشق، 1395هـ ص296.

(2) محمد عبد المطلب: **البلاغة والأسلوبية**، ص225.

(3) الرازي: **"التفسير الكبير"** ج31، ص133.

(4) السابق: ص200.

مشاكلة أخرى هي مشاكلة "التجنيس"[1]. أي أن فيهما جناساً ناقصاً.

واقتران لفظة "يسّره" بلفظة "العسرى" في الآية السابقة يذكرنا بما قاله "ريفاتير" ضمن نظرياته في الأسلوبية البنيوية حول ما أسماه "السياق الأصغر"، وهو السياق المولّد بناءً على الخلاف، وله وظيفة بنيوية باعتباره قطبا لثنائية يتقابل عنصراها، ويكوّنان معا ما يسميه "ريفاتير" وجها أسلوبيا. ولا ينشأ الأسلوب إلا عند الربط بين الضدين، فليس لأحدهما تأثير بدون الآخر، والربط بينهما هو – عادةً – ربط غير متوقع، يثير دهشة القارئ[2].

3- الإجمال والتفصيل:

ويندرج تحت هذا المصطلح ثلاث قضايا بديعية، هي: التقسيم، والجمـــع، والتفريق. ذلك إنّ "الإجمال والتفصيل" مصطلح "يشكّل طبيعة أسلوبية تجري فيها الأنساق اللغوية التي تتشكّل على وفق علاقات بنائية مختلفة، تكشف عن الحكمة العقلية التي شكّلت النص المكتوب، وذلك إنّ العقل يتحرك بطبيعة تفصيلية، تكشف عن أنّ هذه الفكرة تتحلّل إلى عناصر جزئية صغيرة غير قابلة للتجزئة أحيانا، أو إنها تتحرك مع عناصر مختلفة تكون هذه العناصر مجتمعةً فكرة عامة أو كلية، ومن هنا فإنّ ذكر الشيء، ثمّ تقسيمه إلى عناصر مختلفة، شيء واحد، أو ذكر شيء، وتفريقه مع عناصره، ما هو إلا أسلوب في الإجمال والتفصيل"[3].

والتقسيم عند البلاغيين هو: "أن تقسم الكلام على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه". وقال فيه "ابن الأثير": "ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد، وإذا ذُكرت قام كلّ قسم بنفسه، ولم يشارك غيره"[4]. والتقسيم عند "السيوطي" هو: "استيفاء أقسام الشيء الموجودة، لا الممكنة عقلا"[5].

---

(1) احمد أبو زيد: **التناسب البياني في القرآن**، ص264.

(2) حمادي صمود: **الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة**، ص171-172..

(3) فايز القرعان: "الإجمال والتفصيل في القرآن الكريم: دراسة تحليلية"، **مجلة أبحاث اليرموك**، مج12، ع1، 1994م، ص10.

(4) أبو الفتح نصرالله بن محمّد المعروف بابن الأثير الجزري: **المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر**، قدمه وحقق عليه: احمد الحوفي وبدوي طبانة، القسم الثاني، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، 1960م، ج2، ص204.

(5) السيد الجميلي: **البلاغة القرآنية المختارة من "الإتقان ومعترك الأقران" للإمام السيوطي**، دار المعرفة، القاهرة، 1993م، ص150.

أمّا "الجمع" فقد عرّفه "السكّاكي" بقوله: "أن تدخل شيئين فصاعداً في نوع واحد"[1]. و"السكّاكي" ذاته عرّف "التفريق" بقوله: "هو أن تقصد إلى شيئين من نوع واحد فتوقع بينهما تبايناً"[2]. وهناك "الجمع مع التفريق" فهو: "أن تدخل شيئين في معنى واحد، وتفرّق بين جهتي الإدخال"[3]. أمّا "الجمع مع التفريق والتقسيم" فهو أن تشترك هذه الألوان الثلاثة. والمصطلحات السابقة كلها تدور إمّا حول تجميع مفرّق، أو تفريق مجمَّع، وله دلالته السياقية التي تستدعي هذه الأشكال التعبيرية.

أبنية الإجمال والتفصيل:

1- البنية الثنائية:

وهي "أن يتعلق بالإجمال عنصران متضامنان في التفصيل لا أكثر". وهذه البنية تتحرك وفق مستويين: المستوى الأول: الإفرادي؛ حيث العناصر إفرادية غير مرتبطة بمفردات أو تراكيب، توصلها إلى الإجمال لعدم حاجتها إليها. ثمّ المستوى الثاني: التركيبي؛ حيث يعتمد فيه العنصران على ألفاظ وتراكيب توصلهما بالإجمال[4].

ومثال على المستوى الأول في "جزء عمّ" قوله تعالى في سورة "النبأ": ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ (النبأ: 24-25). فالإجمال هنا في "لا يذوقون" والتفصيل في "برداً ولا شراباً". ونلاحظ أنّ العنصرين "بردا، شرابا" منفردان على المستوى الشكلي، ويتوصّلان معاً على المستوى البنائي بالتركيب، حيث يشكّل كل منهما جزءا مما يذاق. ثمّ هناك تفصيل لاحق ذكره "جلال الدين عبدالرحمن" باسم "بيان التغيير" وقصد بالبيان أي التفصيل، وأوضحه بقوله: "هو أن يتغيّر ببيانه معنى كلامه، فيظهر معنى غير ما أثبته صدر الكلام في نفس السامع عند بدء التلفّظ، فصدر الكلام ينعقد علة لوجوب الكلّ، إلاّ أنّ الاستثناء منع إيقاع معناه حتى يتصل باللفظ المغيّر، ويؤديان معنى واحدا هو مراد المتكلّم من أول الأمر، وهذا قائم في التعليق بالشرط والاستثناء"[5]. فمراد الآية السابقة هو أن تثبت أنّ شراب أهل النار هو الحميم والغسّاق، لكنّها عبّرت عن ذلك

---

(1) السكاكي: مفتاح العلوم، ص200.

(2) السابق: ص201.

(3) السابق.

(4) السابق.

(5) جلال عبدالرحمن: الإجمال والبيان ووضعهما في نصوص الأحكام،مطبعة السعادة،القاهرة،1984م، ص102-103.

بإجمال أوّلي نفى أنهم يذوقون بردا ولا شراباً، ثـمّ جـاء الاسـتثناء ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ ليوضّـح المراد من الآية. وهنا "الإجمال والتفصيل" أعطى بأسـلوب جميـل دلالـةً مركّبـة تتـضمن العقـاب مـن شقين، الأول: عقاب شرب الحميم والغسّاق، وهو الحار والمنتن من الـشراب. والـشق الثـاني: هـو الحرمان من الماء الذي يبرّد حرّ الـسعير عـنهم، والحرمـان مـن الـشراب الـذي يـرويهم مـن شـدّة العطش[1].

وفي سورة "النبأ" نفـسها مثـال آخـر علـى المـستوى الإفـرادي مـن البنيـة الثنائيـة للإجمـال والتفصيل، في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾(النبأ: 35). فالإجمال في "لا يسمعون فيها" والتفصيل في "لغوا ولا كذابا" حيث إن "لغوا، كذابا" مفردان شكلياً، ولكنهما متـصلان بنائيـا مـع الإجمال، ويشكلان جزءا منه، وكلاهما يدخل في دائرة السمع. والغـرض فيمـا يبـدو التأكيـد علـى مدى تنزيه الله تعالى لأسماع أهل الجنة.

ومن الإجمال والتفصيل فيما يبدو لي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ (البروج: 17-18). فالإجمال هو الجنود، والتفصيل هـو: فرعـون وثمـود. ونجـده في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الانفطار: 5)، فالإجمال هنا هو "علمت"، والتفصيل: "ما قدّمت وأخّرت". وربما حققت بنية "الإجمال والتفصيل" فيما سبق من شواهد وظيفة أسلوبية، تتمثل بتهيئة السامع لتلقي معلومة لاحقة مهمة أو مميزة، فمثلا: هيأ لذكر فرعون وثمود، باعتبارهمـا أميـز المعاندين للحق الإلهي، بلفظة "الجنود" التي توحي بأنهم كانوا يمتلكون القوة والـبطش، ولكـن لم يغـن عنهم ذلك من الله شيئا.

وللمستوى التركيبي وهو الثاني من البنية الثنائية "للإجمال والتفصيل" الكثير مما يمثله في آيات "جزء عمّ". وأول هذه الآيات هـي قولـه تعـالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾(النازعات: 37-41)، حيث الإجمال هو "المأوى"، والتفصيل هو في طرفيـه المتقـابلين

---

[1] الطبري: مج7، ص519.

'الجنة' و 'الجحيم'، ونلحظ أنّ هذين الطرفين مرتبطان بعناصر أخرى في السياق: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾مرتبطة بالجحيم، في حين أنّ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾مرتبطة بالجنّة.

وفي سورة 'الليل' في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝﴾ (الليل: 5-10). فالإجمال هنا في قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾. أمّا التفصيل فهو ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾و﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾، وهما عنصران مرتبطان بعناصر أخرى في السياق لا يمكن لنا أن نتعامل معهما منفردين ومنسلخين عنه، فهما مركبان باندماجهما مع تلك العناصر، فاليسرى مرتبطة مع ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ والعسرى مرتبطة مع ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝﴾.

2- البنية المتعدّدة للإجمال والتفصيل:

ولها كذلك مستويان:المستوى الإفرادي. والمستوى التركيبي. ويقال في تعريفهما ما قيل في مستويي البنية الثنائية. والبنية المتعددة هي التي ترد فيها ثلاثة عناصر أو أكثر في التفصيل. ومثال عليها في مستواها الإفرادي ما نجده في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝﴾ (عبس: 38-39)، حيث الإجمال هو في 'وجوه'، والتفصيل في 'مسفرة ضاحكة مستبشرة' وهي عناصر مفردة شكلياً، ومرتبطة ثنائياً بالإجمال دون أن تحيط بها أية لفظة أخرى أو تركيب.

ونجده كذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝﴾(الانفطار: 6-7). وهنا الإجمال متمثل باللفظة المقدسة 'ربك'، بينما التفصيل يتمثل بـ' خلقك، سوّاك، عدلك' وهي عناصر مفردة شكلية مرتبطة بنائيا بالإجمال بدون الحاجة لألفاظ أو تراكيب تساعدها على ذلك الارتباط.

أمّا المستوى التركيبي لبنية 'الإجمال والتفصيل' المتعدّدة فنجده في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝﴾ (البلد: 11-17). فالإجمال هنا تمثله لفظة 'العقبة'، والتفصيل تمثله الجزئيات: 'فك، إطعام، ثم كان من الذين آمنوا'، وترتبط كل واحدة منها بعناصر أخرى لا يمكن سلخها عنها. فـ 'فك' مرتبطة بـ 'رقبة'، و'إطعام' مرتبطة بـ﴿فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝﴾ و ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هي مرتبطة بـ ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾. وهنا نلحظ أن عناصر التفصيل لم تأت مفردة، بل جاءت مركبة مرتبطة بألفاظ وتراكيب حولها ساعدتها على الاتصال بالإجمال الذي تمثله لفظة 'العقبة'. والدلالة التي تعطيها بنية 'الإجمال والتفصيل' هنا هي دلالة الحث المتدرج من الأصغر إلى الأكبر، حيث بدأ بفك الرقبة إلى الأهم وهو إطعام مسكين، ثمّ الأهم وهو الإيمان، وما يستلزمه من صبر وتراحم بين المؤمنين.

ونجد المستوى التركيبي لبنية 'الإجمال والتفصيل' المتعددة متمثلا بقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝﴾ (النازعات: 27-29). وهذا الإجمال متحقق في 'السماء' وبالتحديد في 'خلق السماء' الذي يوضحه الاستفهام ' أأنتم أشد خلقاً'، بينما التفصيل تمثّل بأربعة عناصر هي: 'بناها' و'رفع'، وهي مرتبطة بـ 'سمكها وسوّاها'. والعنصر الثالث 'أغطش' وهي مرتبطة بـ 'ليلها'. والرابع 'أخرج' وهي مرتبطة بـ 'ضحاها'. ودلالة 'الإجمال والتفصيل' هنا هي دلالة تجزيئية لبيان القدرة الإلهية في خلق كل جزء، لأنه ساق خلق السماء هنا لمقارنته بخلق الإنسان، فكما أن للإنسان أعضاء وأجزاء، فللسماء كذلك أجزاء. والبديع في هذه المقارنة أنها تضمنت مقارنة المادي والمعنوي، فالمادي متمثل بأعضاء الإنسان المادية، وبأجزاء السماء المادية، والمعنوي متمثل بنفس الإنسان بشقيها الصالح المشرق، والطالح المظلم، كما هو الحال في السماء التي لها نهار مشرق وليل مظلم.

والمثال الأخير لهذا المستوى في موضوع 'الإجمال والتفصيل' هو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝﴾ (الضحى: 6-8). فالإجمال هنا متضمَن في 'وجد'. ومع تكرّره في كلّ آية، إلاّ إنه يمثّل إجمالا واحداً، هو 'الإيجاد'. وهو هنا بمعنى 'المعرفة'، اي 'عرف حالك'. أمّا التفصيل فهو متشعب إلى ثلاثة عناصر مركبة مرتبطة بألفاظ

توصلها بالإجمال، وهذه العناصر هي: "يتيماً وهي مرتبطة بـ آوى". و"ضالاً وهـي مرتبطـة بـ "هـدى". وأخيرا "عائلاً وهي مرتبطة بـ أغنى". ودلالة الإجمال والتفصيل هنا مَنّية، إن جاز التعـبير، حيـث يمـنّ الله سبحانه على عبده بأنه اعتنى به في ثلاث من أحواله: يتيمـاً، وضـالاً، وعـائلاً. أي عنـدما كـان فاقدا للأب، وفاقدا للنهج المُراد من الله، وفاقدا للكسب.

الخاتمة

اتبعنا في هذه الدراسة لـ "جزء عمّ" في القرآن الكريم المنهج الأسلوبي الـذي يوظّـف أدوات اللغة كلّها في تحليل النصوص الأدبية، لاستجلاء مكامن الإبداع فيها، وللوقـوف علـى خصائـصها الأسلوبية، التي تميزها من غيرها. وبما أنّ القرآن الكريم كان هو مجالنا في هذه الدراسة، وهـو كتـاب الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي كـان كـذلك مجـالاً لعـدد ضـخم جدا من الدراسات قديما وحديثا، وفي كل الصعد، ومازال وسيبقى كذلك إلى أن يـرث الله الأرض ومن عليها. وما دام الأمر كذلك فإنّا في معظم دراستنا لا نزعم أنّا أتينا بجديد لم يلحظـه الآخـرون، ولكن لعلنا أضأنا جوانب أسلوبية محددة في "جزء عمّ"، ولاسـيما في المـستويين الـدلالي والتـصويري من هذه الدراسة.

فالجانب الأول هو ما يمكن أن نطلق عليه "توزيع الموضوع"، وهـو أن القـرآن الكـريم يـوزّع الموضوع الواحد على مختلف السور والمواضع القرآنية، بحيث يكون لكل موضع أو سورة حـظ مـن بعض تفاصيل ذلك الموضوع، وهذه التفاصيل تجلّي جوانب جديدة في الموضوع كل مرّة، بحيث إننـا لا نحصل على المشهد المتكامل التام إلاّ بتجميع تلك التفاصيل المبثوثة هنا وهناك، وإلصاقها بعـضها ببعض، وذلك على طريقة الصفّ "الفسيفسائي" للوحة الفنية. لكن وجود كل تفـصيل علـى حـده لا ينطوي على أي تشويه أو نقص فيه، بل هـو في أتم الانـسجام في موضـعه حيـث هـو، بـل إنّ تلـك العملية من توزيع التفاصيل وبثها في مواضع متفرقة كان لها أثر بارز في تميّز الأسـلوب القرآنـي مـن غيره، وهو سمة بارزة فيه، لا تتأتى لغيره كما تأتت له بذلك الاقتدار المعجز.

وتوزيع التفاصيل للموضوع الواحد تبعه تنوّع لغوي وموسيقي وبلاغي لافت، حيث بـرز مع كل قطعة فنية قرآنيـة مـا يناسـبها مـن أوجـه البلاغـة، والجـرس الموسـيقي، والأبعـاد النحويـة والصرفية، ما جعلها متميزة من غيرها من القطـع المنتميـة إلى الموضـوع نفـسه، وهـذا خلـق تنوّعـا أسلوبيا، وتعددية لغوية بديعة، ينتظمها جميعا أسلوب عام منسجم ليس فيه فطور أو قصور.

ومن أجل تقصّي الخصائص الأسلوبية في "جزء عمّ" ولاسيّما خاصية "توزيـع الموضـوع" فيـه، فقد أعملنا أدوات أسلوبية للتحليل، ساعدتنا في تنـاول الألفـاظ وتـصنيفها إلى مجموعـات، بحـسب الموضوع الذي تنتمي إليه، واستجلاء ما بينها من عناصر مشتركة، وبما تتميز إحداها من الأخريات،

ومن هذه الأدوات الحقل الدلالي" الذي يهتم بتجميع الألفاظ التي تربطها عناصر مشتركة، وتتشابه في دلالاتها، ضمن حقل واحد. واستأنسنا بأداة "الاختيار والتوزيع" التي تهتم بتحري الإرادة المختزنة لدى منشئ النص في اختيار كلماته وتوزيعها في مختلف مواضع نصه.

وحتى لا يتسم تحليلنا الأسلوبي للجزء القرآني بالذاتية، فقد استأنسنا بالكثير من إسهامات الدارسين للقرآن قديما وحديثا، من مفسرين وبلاغيين وصرفيين وغيرهم، تطبيقا لنهج أسلوبي هو "القارئ-الجمع" الذي ينأى بالتحليل عن الذاتية، والانطباعات الشخصية.

وبتحليلنا المتواضع لـ"جزء عمّ" فقد خلصنا إلى مجموعة من النتائج، نلخّصها بالنقاط الآتية:

1- يشترك "جزء عمّ" المكيّ بمعظم سوره مع سائر القرآن المكيّ بالخصائص الأسلوبية المعروفة للسور المكية. وأهمّها قصر الآيات، وكثرة القَسم. وكذلك بالخصائص الموضوعية. وأهمها: تناول قصص الأنبياء والأمم السابقة، والتركيز على أصول الإيمان بالله، وزوال الدنيا والحساب. إلاّ أن الجزء ينفرد بخصائص تميّزه من سائر القرآن بشقيه المكي والمدني، هي: تكثيف المعنى أو الحدث، حيث يشير إلى موضوع أو قصة ما بأقصر الألفاظ وأقل الآيات، كما رأينا في قصة "موسى" التي اشتملت عليها سورة "النازعات"، وقد تبين ذلك جليا عند مقارنتها بالقصة نفسها في سورة "طه". ويتميز كذلك بالقصر الشديد في سوره، حيث يشتمل على سور قوامها ثلاث آيات وأربع آيات. وثلثا سور الجزء لم تتجاوز في عدد آيات كل منها الخمس عشرة آية، ونصف سوره لم تتجاوز العشر آيات. وتميّز الجزء كذلك بأنه الأكثر قسما على الإطلاق بين الأجزاء القرآنية. وأخيرا وجدنا أن "جزء عمّ" تميز بانفراده بفواصل منتهية بحروف لم تتكرر في غيره من الأجزاء؛ نحو الفاصلة السينية في سورة "الناس"، وغيرها.

2- في المستوى الدلالي من هذه الدراسة، درسنا ثلاثة مجالات دلالية هي: القيامة، والجزاء، ونعم الله. ولمسنا خاصية توزيع الموضوع في تعامل القرآن مع ألفاظه داخل المجال الواحد. مما أضفى على الأسلوب القرآني تفردا وجمالا.

3- في الفصل الثاني درسنا المستوى الصرفي، حيث الطاقة التعبيرية المختزنة في الكلمة الواحدة، وجدنا أنّ التشكيلات الصرفية المقصودة في الجزء تؤدي إلى ترسيخ فهم معين في ذهن المتلقي، يهدف إليه القرآن الكريم على أساس أنه كتاب ديني يتضمن التشريع والدعوة والإنذار. وأحيانا يعمد القرآن الكريم إلى فرض احتمالات عديدة للفهم على ذهن المتلقي إذا كان ذلك يخدم هدف القرآن. ووجدنا أن "جزء عمّ" ثريٌّ بتشكيلاته الصرفية، حيث

استوعب العناوين الصرفية التي تناولناها كافة، من قبيل إحلال صيغ محل أخرى بكل تفريعاتها التي مرّت معنا. وكذلك تعدّد الصيغ، والحذف في الصيغ، واختيار الصيغ، وغيرها من العنوانات الصرفية. ووجدنا أن كل التشكيلات الصرفية في الجزء قد وُظفت لأغراض دلالية بلاغية تخدم غرض القرآن الكريم، من تقديم للمعنى الدقيق، وتوسيع دائرته أحيانا، وتأثيره في السامع والقارئ.

4- في المستوى الصوتي من هذه الدراسة، وجدنا أنّ الجانب الصوتي في "جزء عمّ" قد تواءم مع العاطفة والدلالة، وأن المادة الصوتية القرآنية في "جزء عم" قد تضمنت طاقة تعبيرية كبيرة، حيث لمسنا دقة اختيار اللفظ المناسب للمعنى، وتناولنا ذلك تحت عنوان "جرس الألفاظ" ودرسنا مجموعتين من الألفاظ، إحداها ذات دلالات قوية، والأخرى ذات دلالات لينة، واتضح لنا مدى التواؤم بين الصوت والمعنى فيها.

وفي المستوى الصوتي درسنا كذلك موضوع التكرار الصوتي في "جزء عم"، وتبين لنا بمناقشة الأمثلة أن التكرار الصوتي ينطوي على فائدتين؛ معنوية تعزز المعنى المراد، وأخرى صوتية، هدفها التأثير في السامع، وتهيئته لتلقي الفكرة المطروحة لتحقيق الغرض الروحي المنشود.

ودرسنا كذلك المقاطع الصوتية، وعرفنا أن لها استخداما فنيا في "جزء عم" يخدم المعاني المطروقة، ويحدث تأثيراً عاطفيا ما في القارئ أو السامع للقرآن المجيد. وخلصنا في المستوى الصوتي إلى دراسة الفاصلة القرآنية، بأنواعها الثلاثة، وتبيّن لنا أن الفاصلة القرآنية في مجمل القرآن، وفي "جزء عم" بالخصوص لها وظائف صوتية ومعنوية مهمة، وأنها في تنوعها وتوزيعها كانت إحدى ميزات الجزء القرآني المدروس. وفي إطار الفاصلة القرآنية ناقشنا قضية مراعاة الفاصلة، ونحسب أنّ الدراسة برهنت على أن القرآن لا يعدل من لفظ إلى لفظ مراعاةً للفاصلة، بل تتواءم الفاصلة مع المعنى المقصود بشكل إبداعي إعجازي.

5- في المستوى التركيبي البلاغي انصبت دراستنا على ثنائيات أربع: التقديم والتأخير، الحذف والذكر، التعريف والتنكير، وأخيراً الفصل والوصل. وتناولناها بالتفصيل، وسقنا عليها شواهد جلية من مختلف مواضع الجزء، وخلصنا إلى أن "جزء عمّ" زاخر بهذه الثنائيات بكل تفريعاتها، وأنه قد وظفها توظيفات بلاغية فنية مهمة، شكلت ملامح أسلوبية بارزة فيه.

6- في المستوى البلاغي بشقيه: التصويري، واللفظي. توصلنا في المستوى التصويري إلى أن التصوير في "جزء عم" قُصر على التصوير الحسي الذي تطرقنا إلى أنواعه ووظائفه من

تشخيص وتجسيم، وتبيّن لنا من خلال الشواهد التي أوردناها، أن التشخيص كان له وظيفة مهمة تقوم على عقد الصلة الروحية بين النفس البشرية من جهة، والموجودات المنظورة والموجودات غير المنظورة حوله من جهة أخرى. وتنشيط التأمل لدى الإنسان بهدف التقرب من خالقه، والاهتداء إلى طريقه المستقيم. في حين أن التجسيم كانت له وظيفة تقريب الاختلاجات النفسية والمواقف الحياتية، وتقديمها ضمن صور مألوفة يتفاعل معها القارئ، وتحقق الهدف المنشود من الإرشاد.

وتناولنا ضمن المستوى التصويري كذلك الانزياح في "جزء عم" وتفرعاته من كناية ومجاز وتشبيه، ومثلنا عليها بمجموعة من الشواهد، وتبيّن لنا أن القرآن الكريم في هذا الجزء كان زاخراً جداً بالمجاز على وجه الخصوص، وفي المقام الثاني الكناية، التي تماهت بشكل إبداعي مع سياقاتها، واحتاجت إلى عميق التأمل لاستجلائها. أما التشبيه فقد كان قليلا في الجزء، لم يشكل سمة أسلوبية بارزة فيه.

وفي إطار المستوى التصويري رأينا أن "جزء عم" يحتفي بالمشاهد التي تتضافر فيها عناصر الصوت واللون والحركة لإحداث التأثير الكبير في نفس القارئ والسامع. ولحظنا كيف أن تلك المشاهد قد أدت فيها الألفاظ الإيحائية المناسبة دوراً أساسياً في التعبير عن تفاصيلها وأبعادها.

وفي القسم الثاني من المستوى البلاغي، وهو المستوى اللفظي، فقد تركزت الدراسة على ثلاثة موضوعات، هي: التكرار اللفظي، التقابل والتماثل، الإجمال والتفصيل. واتضح لنا أن "جزء عم" قد اشتمل على التكرار اللفظي بكل أنواعه: تكرار الجملة والكلمة والحرف، وقد أدى التكرار اللفظي في كل مستوياته أغراضا بلاغية فنية، أسهمت في تعميق المعاني المقصودة، كما أدى وظيفة صوتية، تتمثل بالتأثير العاطفي في نفس القارئ. كما تناولت الدراسة أساليب التكرار اللفظي، من ترديد وإرصاد ومجاورة، ومثلت لها، وبينت وظيفتها البلاغية الصوتية، ومدى قيامها سماتٍ أسلوبية في الجزء القرآني.

وضمن المستوى اللفظي تناولت الدراسة ثنائية التقابل والتماثل بكل مستوياتها، وساقت عليها الشواهد الموضحة، وخلصت إلى أن هذه الثنائية لها حضور في الجزء، وأنها تشكل ملمحا أسلوبيا فيه، يخدم المعاني المقدّمة، ويحدث التأثير والإقناع في نفوس المتلقين.

وآخر المواضيع التي طرقتها الدراسة ضمن المستوى اللفظي هي ثنائية الإجمال والتفصيل، من خلال بنيتيها الثنائية والمتعددة، وتتبعت الدراسة بعض شواهدها في الجزء، وبيّنت وظيفتها البلاغية، وقدمتها ملمحاً أسلوبياً له حضوره في الجزء القرآني الأخير.

ولديّ توصيتان في نهاية هذه الدراسة، أولاهما: أن يُستأنس بمناهج التحليل الأسلوبي لدراسة شاملة لأجزاء أخرى من القرآن المجيد. وثانيهما: أن يطوّر النقاد العرب مناهج أسلوبية للتحليل منبثقة في أساسها من واقع النظم القرآني المعجز، بحيث تتحرك مصطلحاتها ونظرياتها ضمن هذا الإطار الخاص بالجماعة المؤمنة بهذا الكتاب الحكيم وإعجازه وتفرّده. حتى لا نلجأ دائما إلى استعارة أدوات التحليل الغربية، تلك الأدوات التي قامت على أساس واقع لغوي واجتماعي وعقدي مختلف كثيرا عمّا هو موجود عندنا. لكن والساحة العربية خلوٌ من مناهج للتحليل خاصة بها، متوائمة مع طبيعة لغتها وتفردها، فلسنا نجد بدّاً من الأخذ ببعض المناهج الغربية، والاستئناس بها، مع التصرف بها وتجاوز التقليد الحرفي، بما يتواءم مع طبيعة لغتنا الخاصة، والأهمّ مع طبيعة النظم القرآني المعجز، والمتفرّد.

وأخيراً، أسأل الله المعين أن أكون قد وفقت في تحقيق ما رمت إليه في هذه الدراسة، وأن أكون قدمت خدمة متواضعة لقرآن الله المجيد من جهة، ومن جهة أخرى للجانب التطبيقي في المنهج الأسلوبي، وأضفت إلى المكتبة العربية الإسلامية يسيراً من علم مفيد. آملاً أن يلقى القبول من الله الشكور الوهاب. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أ- الكتب:

1. ابن أبي الإصبع، عبد العظيم بن عبدالواحد المصري: **تحرير التحبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن**، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1383هـ، 1963م.
2. ابن الأثير، أبو الفتح نصرالله بن محمّد الجزري: **المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر**، قدمه وحقق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، القسم الثاني، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، 1960م، ج2.
3. ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي: **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية،ج2.
4. ابن حنبل، أحمد: **المسند**، مج4، ص107، طبعة دار الفكر، بيروت.
5. ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، دار سحنون، تونس، ج30.
6. ابن عبدالسلام، عزالدين عبدالعزيز السلمي الشافعي: **مجاز القرآن**، تح: مصطفى محمد الذهبي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1999م.
7. ابن عقيل، بهاء الدين عبدالله بن عبدالرحمن: **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، تحقيق: طه محمد زيني، مكتبة محمد صبيح، القاهرة، 1965.
8. ابن المعتز، عبدالله: **البديع في نقد الشعر**، نشره أغناطيوس كراتشوفكسي، أعادت طبعه مكتبة المثنى، بغداد، ط2، 1979م.
9. ابن وهب، ابو حسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان،: **البرهان في وجوه البيان**، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحدثي، جامعة بغداد، 1967.
10. ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش النحوي (ت643هـ): **شرح المفصّل**، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، ج3.
11. أبو الرضا، سعد: **في البنية والدلالة: رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية**، دار المعارف،

الإسكندرية، 1987م.

12. أبو زيد، أحمد: **التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي**، منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس، المغرب، 1992م.

13. أبو العدوس، يوسف: **الأسلوبية: الرؤية والتطبيق**، دار المسيرة، عمّان، 2007م.

14. باطاهر، بن عيسى: **المقابلة في القرآن الكريم**، دار عمار، عمّان، 2000م.

15. بدوي، أحمد أحمد: **من بلاغة القرآن**، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، ط3، 1950م.

16. البدوي، أحمد عباس: **أهم خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها**، دار عمار، عمّان، ط1، 1999.

17. بركة، فاطمة الطبال: **النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،1993م.

18. بشير، عزيزة يونس: **النحو في ظلال القرآن الكريم**، دار مجدلاوي، عمّان، ط1، 1998م.

19. التبريزي، الخطيب: **الوافي في العروض والقوافي**، تح: فخر الدين قباوة وعمر يحين، دمشق، 1395هـ.

20. تشيتشرين أ.ف: **الأفكار والأسلوب: دراسة في النص الروائي ولغته**، ترجمة: حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد (د.ت).

21. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين**، مكتبة الجاحظ، بغداد،ط4، 1975م، ج1.

22. جاكبسون، رومان: **قضايا الشعرية**، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988م.

23. الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة في علم البيان**، تحقيق: محمد الأسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996.

24. ------------: **دلائل الإعجاز**، دار المعرفة، بيروت، 1978م.

25. الجرجاني، محمد بن علي: **الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة**، تحقيق: عبدالقادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت

26. الجطلاوي، الهادي: **مدخل إلى الأسلوبية تنظيرا وتطبيقا**، مكتبة عيون، الدار البيضاء، 1992م.

27. الجميلي، السيد: **البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعترك الأقران للإمام السيوطي**، دار المعرفة، القاهرة، 1993م.
28. جيرو، بيير: **الأسلوبية**، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب -بيروت، ط2، 1994
29. حسن، عباس: **النحو الوافي**، دار المعارف، القاهرة، ط8، 1986م، ج1.
30. حسين، عبدالقادر: **القرآن والصورة البيانية**، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1985.
31. خليل، إبراهيم: **الأسلوبية ونظرية النص**، المؤسسة العربية، بيروت، 1997م
32. الراجحي، عبده: **فقه اللغة في الكتب العربية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988م.
33. الرازي، فخرالدين محمد بن ضياء الدين عمر، **التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، د.ت.
34. راضي، عبدالحكيم: **نظرية اللغة في النقد العربي**، مكتبة خانجي، القاهرة، 1980م.
35. الرافعي، مصطفى صادق: **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط6، 1956م.
36. -----------: **تاريخ آداب العرب**، ضبط وتصحيح: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ج2، 1953، ج3، 1954.
37. الرماني: **النكت في إعجاز القرآن**، ضمن كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1968م.
38. زادة، طاش كبري: **مفتاح السعادة ومصباح الزيادة**، تحقيق كامل كامل بكري وعبدالوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، د.ت، ج2.
39. الزبيدي، محمد مرتضى: **معجم تاج العروس من جواهر القاموس**، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، مج 9
40. الزرقاني، محمد عبدالعظيم: **مناهل العرفان**، ج1 دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1995.
41. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله: **البرهان في علو القرآن**، ج1، دار المعرفة، بيروت،1972.
42. الزمخشري، جار الله محمود بن عمر بن الخوارزمي: **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**،رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار

الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ج1. وطبعة مصر 1307هـ، ج2.

43. السعران، محمود: اللغة والمجتمع: رأي ومنهج، بنغازي 1968.

44. السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر: مفتاح العلوم، القاهرة، 1937م.

45. سلامة، إبراهيم: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مصر، ط2، 1952م.

46. السلامي، عمر: الإعجاز الفني في القرآن، مؤسسات عبدالكريم عبدالله، تونس، 1980م.

47. سلطان، منير: الفصل والوصل في القرآن الكريم، دراسة في الأسلوب، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1997.

48. سيبويه: الكتاب، تح: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988، ج1.

49. السيد، شفيع: الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986م.

50. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد: الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1987م، ج1. وطبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق مصطفى شيخ مصطفى.

51. ------------: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، د.ت، ج1.

52. الشايب، أحمد: الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط6، 1966م.

53. شتريلكا، ليوزف: 'الأسلوب الأدبي' من كتاب: مناهج علم الأدب، ترجمة مصطفى ماهر، مجلة فصول، مج5،ع1.

54. شريم، جوزيف ميشال: دليل الدراسات الأسلوبية،، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1984.

55. شيخون، محمود السيد: أسرار التكرار في لغة القرآن، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1983.

56. الصالح، صبحي: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط 8، 1974م

57. الصايغ، عبدالإله: الصورة الفنية: معياراً نقديا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987م.

58. صمود، حمادي: الوجه والقفا في تلازم الحداثة والتراث، الدار التونسية للنشر، تونس، 1988م.

59. الصنعاني، محمد بن إسماعيال الأمير: تفسير غريب القرآن، تح: محمد صبحي بن حسن

حلاق، دار ابن كثير، دمشق، 2000م.

60. الطباطبائي، محمد حسين: تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط 2، 1974، مج20.

61. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار القلم، دمشق والدار الشامية، بيروت، ج7.

62. طحان، ريمون: الألسنية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972م، ج2.

63. 63.الطرابلسي، محمد الهادي: خصائص الأسلوب في الشوقيات، الجامعة التونسية، 1984م.

64. أحمد مصطفى الطرودي التونسي: جامع العبارات في تحقيق الاستعارات، تحقيق: محمد الجربي، الدار الجماهيرية، ليبيا، 1986م

65. العامري، حميد: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1996م.

66. عباس، فضل حسن: البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع، دارالفرقان، عمّان، ط11، 2007م.

67. ------------: البلاغة فنونها وأفنانها، (علم المعاني)، دار الفرقان، عمّان، ط9، 2004م.

68. العبد، محمد: اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1989م.

69. عبدالباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ضبط: محمد سعيد اللحام، دار المعرفة، بيروت، ط6، 2008.

70. 70.عبدالرحمن، جلال: الإجمال والبيان ووضعهما في نصوص الأحكام،مطبعة السعادة،القاهرة،1984م.

71. عبدالرحمن، عائشة: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية لغوية وبيانية، دار المعارف القاهرة، ط2، 1984.

72. عبدالقادر، حامد: دراسة في علم النفس الأدبي، القاهرة، د.ن.

73. عبدالمطلب، محمد: البلاغة و الأسلوبية، القاهرة،1984م، د.ن

74. ------------: بناء الأسلوب في شعر الحداثة: التكوين البديعي، 1988، د.ن.

75. عبدالنور، جبور: المعجم الأدبي، بيروت، 1979م.

76. عبدالواحد، عهود: السور المدنية: دراسة أسلوبية وبلاغية، دار الفكر، عمان، ط 1، 1999.
77. عبده، محمد: تفسير جزء عم، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1985م.
78. عرفة، محمد: مشكلة اللغة العربية، القاهرة، (د.ن)، (د.ت).
79. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل: **الصناعتين في الكتابة والشعر**، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، 1952م.
80. عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، دار التنوير، بيروت، ط2، 1983م.
81. عمايرة، خليل: **في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق، دراسات وآراء في ضوء علم اللغة المعاصر**، عالم المعرة، جدة، 1984م.
82. عمر، أحمد مختار: **دراسة الصوت اللغوي**، مطبعة سجل العرب، توزيع عالم الكتب، القاهرة، 1976م.
83. -------------: **علم الدلالة**، مكتبة دار العروبة، الكويت، ط 1، 1982م.
84. عياد، شكري: **مدخل إلى علم الأسلوب**، دار العلوم، الرياض، 1982.
85. -------------: **اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي**، انترناشونال برس، القاهرة، 1988م.
86. الفراء، يحيى بن زياد: **معاني القرآن**، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط3، 2001م.
87. فضل، صلاح: **علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته**، الهيئة المصرية للكتاب، ط2، 1985.
88. فليّح، أحمد: **حروف الجر ومعانيها**، المركز القومي للنشر، 2001م.
89. فندريس. ج: **اللغة**، تعريب: عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1950م.
90. القزويني، محمد بن عبدالرحمن الخطيب: **تلخيص المفتاح**' مطبعة الحلبي، مصر، 1938م.
91. قطب، سيد: **تفسير في ظلال القرآن**، دارالشروق، بيروت والقاهرة، ط10،1982، مج6.
92. -------------: **التصوير الفني في القرآن**، دار الشرق، بيروت، ط8، 1982.
93. القمي، محمد بن محمد رضا بن إسماعيل المشهدي: **تفسير كنز الدقائق**، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، 1413هـ.

94. كوهين، جاك: بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الوالي و محمد العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986م.
95. لاشين، عبدالفتاح: التعبير في القرآن: حروف القرآن، مكتبات عكاظ، الرياض، 1983.
96. -----------: الفاصلة القرآنية،، دار المريخ، الرياض، 1982.
97. -----------: المعاني في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1999م.
98. المالقي، أحمد بن عبدالنور: وصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق: أحمد الخراط، دمشق، 1975.
99. المبارك، محمد محمد: خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد، مطبعة نهضة مصر، 1960م.
100. المخزومي، مهدي: في النحو العربي: نقد وتوجيه على المنهج العلمي الحديث، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1966.
101. مرتاض، عبدالملك: بنية الخطاب الشعري: دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1986.
102. المسدي، عبدالسلام: الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1977م.
103. معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، ط 1.
104. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط 1 ج1.
105. مفتاح، محمد: دينامية النص: تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، الرباط، 1987.
106. المقدسي، شهاب الدين أبو محمد، كتاب البسملة، تحقيق: عدنان بن عبدالرزاق الحموي، منشورات المجمع الثقافي في أبوظبي، 2004.
107. المنجد، محمد نور الدين: الترادف في القرآن الكريم: بين النظرية والتطبيق، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1997م.
108. نحلة، محمود: دراسات قرآنية في جزء عم، دار العلوم العربية، بيروت، 1989م.
109. الهاشمي، أحمد: ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، المكتبة التجارية الكبرى، ط16، 1966م

110. اليافي، نعيم: مقدمة لدراسة الصورة الفنية، دمشق، 1982م.

ب- الدوريات:

1. عبدالمطلب، محمد: بحث "النحو بين عبدالقاهر الجرجاني وتشومسكي"، مجلة فصول، مج 5/ع1.
2. القرعان، فايز: "الإجمال والتفصيل في القرآن الكريم: دراسة تحليلية"، مجلة أبحاث اليرموك، مج12، ع1، 1994.

جـ- الرسائل الجامعية:

1. البياتي، سناء حميد: البناء الفني لشعر الحب العذري في العصر الأموي، رسالة دكتوراة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1989م.
2. الحجاج، إبراهيم عقلة: جزء عم: دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، جامعة مؤتة، الأردن، 2006م.

